24

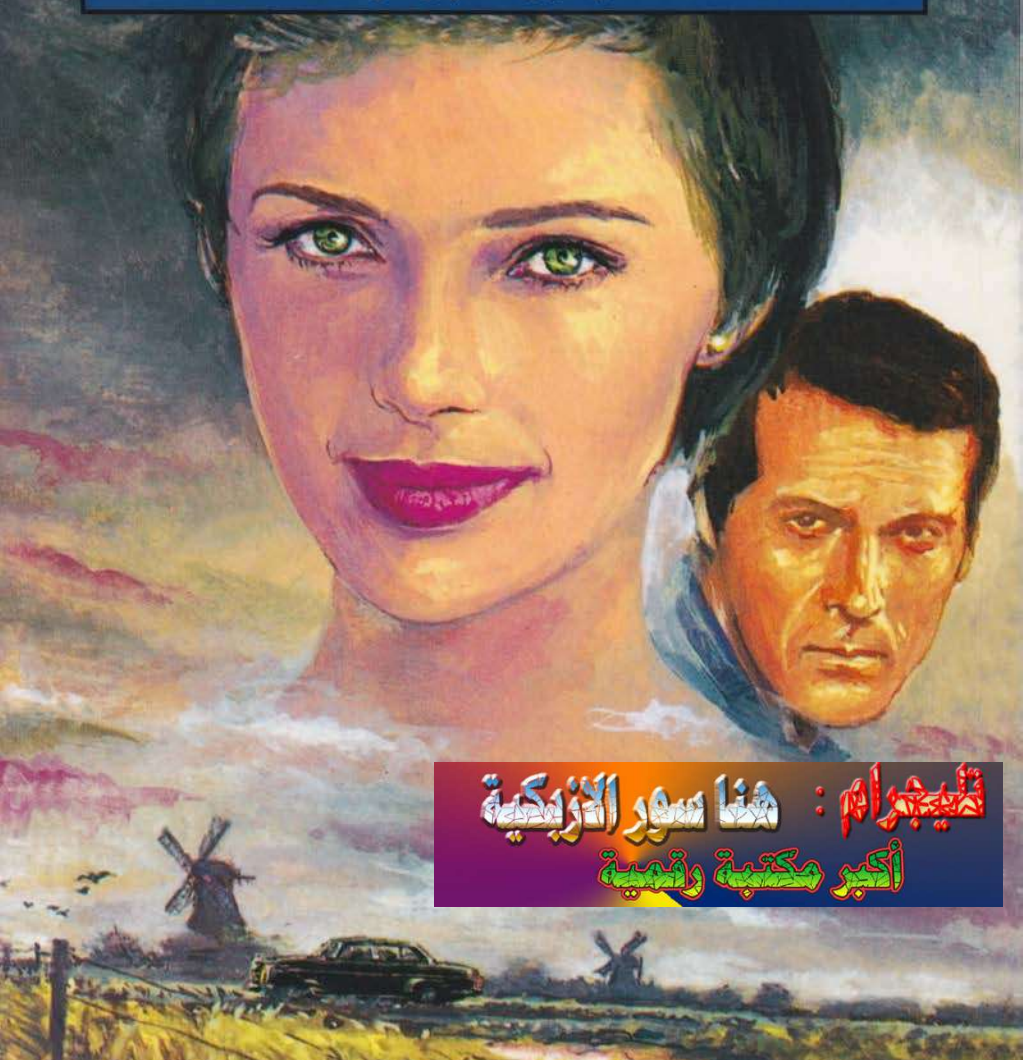
روائع الأدب العالمي

ضحكة في الظلام

مكتبة 417

تأليف الكاتب الروسي

فلاديمير نابوكوف



ضحكة في الظلام



الإسم الأصلي للكتاب
LAUGHTER IN THE DARK

إسم المؤلف
VLADIMIR NABOKOV



ضحكة في الظلام



تأليف

فلاديمير نابوكوف

مكتبة ٢٠١٩٥٥

الناشر

دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق – بيروت

تلفون 674 803 1 961 00   فاكس 223 790 1 961 00

E-mail : darbachir@terra.net.lb

هذا الكتاب

لعلّ اسم "**فلاديمير نابوكوف**" ليس غريبا على القارئ العربي ، فإنّ الضجّة التي أثارتها "**لوليـتـا**" أغرت كتابنا بالحديث عنه، وإن لم يقدّم أحد أعماله الأدبية- في ترجمة كاملة- حتّى يتعرف القارئ عليه معرفة أوثق..

ومن جديد. عاد الكتّاب- في الأسابيع الأخيرة- يتكلمون عن "**نابوكـوف**" وعن قصّته هذه ، التي تقدمها لك "مطبوعات ميوزيك" اليوم.. لا لأنها آخر إنتاجه – فالواقع أنهـا تسـبق"**لوليـتـا**" في تاريخ صدورها – وإنما لأنها تمثّل اتّجاها جديدا في كتابة القصّة.. فالكاتب لايحاول أن يحيط موضوعه بالغموض، ولايتوسّل لاكتساب إعجاب القارئ باستثارة أعصابه وإرهاقها بتوقع المفاجآت في كل فقرة .. وإنّما هو يصارح القارئ- من البداية- بموضوعه : رجل كان ثريّا، ومحترما، وسعيدا.. هجر زوجته من أجل عشيقة لم تحبه، ثم انتهت حياته بكارثة..

"هذه هي القصّة كلّها.. ولعلّنا كنّا خليقين بأن نكتفي منها بهذا القدر، لولا أن في سردها متعة وفائدة".

وهذا هو الواقع.. ففي خلال السرد، يغوص "**نابوكوف**" في أعمق أغوار شخصيّاته، ليكشف في كل منها عن شخصيتين: إحداهما مرئية ، مسموعة الصوت، ظاهرة الحركة.. والأخرى متوارية خلف الأولى، تتحدّث فلا يسمع صوتها، وإن كانت هي التي تتحكّم في الأحداث وتوجّهها ولايكتفي الكاتب بتحليل النفسيات ، بل إنه يحلّل الأحداث كذلك، ويسوق الآراء خلال المواقف في غير اصطناع ولا إبراز يبدد من استرسال الجو الطبيعي..

المؤلف في سطور

على أننا ندعك تكتشف هذا بنفسك ، لنحدثك عن "**نابوكوف**" في عجالة موجزة:

انحدر "**فلاديمير نابوكوف**" من اسرة روسيّة من اصل ارستقراطي .. لذلك لم تكد الثورة البلشفيّة تقوم، حتى نزح – في سنة ١٩١٩– إلى "**أوروبا**" ، فاتم تعليمه في جامعة "**كمبريدج**" الإنجليزية ، حيث برز في اللغات الحديثة ..

ثم عاش في المانيا ردحا من الزمن ، حتى إذا استفحلت قبضة النازية على حرية الرأي – وسوف تصادفك لمحات خاطفة تعكس آثار ذلك على نفسيته وتفكيره– انتقل إلى "**فرنسا**" .. ثم انتقل إلى "**أمريكا**" – في مايو(أيار) سنة ١٩٤٠– واتخذها موطنا له، وعين مدرسا للأدب الروسي ولفن الكتابة في كلية "**ويلسيلي**"، وفي جامعة "**ستانفورد**"..

ومن الطريف أن لـ"**نابوكوف**" ابنا شابا– يدعى "**ديمتري**"– تولى بنفسه ترجمة الكتب الأولى لأبيه إلى الإنجليزية فقدر لها – بذلك– أن تخرج من قوقعتها ، وأن تجتذب انتباه قراء الرواية في العالم ، إذ سرعان ما ترجمت بعد ذلك إلى عدد من اللغات الأخرى..

على ان "**نابوكوف**"اصبح يكتب قصصه بالإنجليزية مباشرة.

ومن أروع إنتاجه "**ضحكة في الظلام**"، و"**دعوة إلى قطع رقبة**"، و"**الحياة الحقيقية لـ"سباستيان نايت**"، و"**لوليتا**"..

الفصل الأول

كان يعيش في "برلين" -بـ"ألمانيا"- في وقت ما، رجل يدعى "**ألبينوس**". وكان ثريا، ومحترما، وسعيدا.

إلا انه ذات يوم، هجر زوجته من اجل عشيقة في ربيع العمر، أحبها.. لكنها لم تحبه.. ثم انتهت حياته بكارثة!

هذه هي القصة كلها ، ولعلنا كنا خليقين بان نكتفي منها بهذا القدر ، لولا ان في سردها متعة وفائدة.. لأنه إذا كان موجز حياة أي رجل كافيا لأن ينقش في عبارة على رخامة قبره الذي يكسوه الطحلب ، فإن سرد التفاصيل مطلوب دائما، ومرغوب فيه..

وكان "**ألبينوس**"- باعتباره ناقدا فنيّا، وخبيرا بالتّصوير- يجد كثيرا من المتعة في اقتناء لوحات كبار الفنانين القدامى، ذات المناظر الطبيعية والوجوه البشرية، حتى تحوّلت حياته إلى معرض رائع للصّور البديعة، وقد كان- ذات مساء- يروّض قريحته الغزيرة العلم بتدبيج مقالة صغيرة عن فن السينما، حين واتته فكرة رائعة تتعلق بالرسوم المتحرّكة الملونة- التي كانت قد بدأت تظهر في ذلك الحين- فحدث نفسه: "كم يكون رائعا لو امكن استعمال هذا الأسلوب في عرض إحدى اللوحات الشهيرة- ويستحسن أن تكون من المدرسة الهولندية- بحيث تظهر بطريقة متقنة على شاشة السينما في الوان زاهية، ثم تبعث فيها الحياة، فتتحرك فجأة، وقد اتسقت الصور المتحركة اتساقا تاما مع الصور الأصلية، في حالتها السّاكنة.. كان تظهر حانة اجتمع بها بعض الشبان، يجلسون إلى موائد خشبيّة، وهم يشربون في نهم وتلذّذ، وقد تسللت أشعة الشمس من فناء هنالك، تمرح في ساحته جياد مطهمة. ثمّ فجاة ، تبعث الحياة في كل شيء.. فيبدو ذلك الشاب ذو الرداء الأحمر يضع قدحه. وتلك الفتاة حاملة الصينية تتهادى وتتاود على هواها، وثمة دجاجة تنقر الأرض عند عتبة الباب.. ويمكن أن يستمر ذلك، وأشخاص الصّور الأصليّة يروحون ويجيئون خلال المنظر الطبيعي ، وقد بدت السماء ورديّة اللون، وامتد غدير يكسوه الثّلج ، واشخاص بقباقيب الانزلاق العجيبة التي كانت تستعمل يومذاك، يتزحلقون عبر المنحنيات ذات الطراز القديم التي تبدو في

الصّورة.. أو ترى العين طريقا تغشاه مياه الأمطار ، يتساقط فوقه الرذاذ ، وشخصان يمتطيان الجياد.. وفي آخر الأمر يعود كلّ شيء تدريجا إلى حاله، فيبتعد الأشخاص ، ويخفت الضوء شيئا فشيئا حتى ترجع الصورة الأصليّة إلى حالتها الساكنة الأولى.

وبالطريقة نفسها يمكن محاولة الأمر نفسه بالنسبة للصور الإيطالية ، وكذلك بالنسبة للموضوعات الدينية، مع مراعاة الدقة في رسم الأشخاص .. ويتطلب ذلك؛ مع الرسامين دراية عظيمة باللوحة المختارة، والعصر الذي تمثله.."

وقد حدث بعد قليل ان تحدّث "**ألبينوس**"عن فكرته هذه مع منتج أفلام، لكن هذا الأخير لم ترقه الفكرة على الإطلاق، وقال إنها تتطلب دقة في العمل ينبغي معها إدخال تحسينات جديدة على طريقة الصور المتحركة ذاتها ، وإنها لذلك تتكلّف في جملتها نفقات باهظة إلى حد كبير. فضلا عن ان مثل هذا الفيلم، برغم المشقة التي يحتاج إليها في رسمه، لن يستمر عرضه بطبيعة الحال أكثر من بضع دقائق، ومع ذلك فإنه سيصادف لدى أغلب الناس تبرّما شديدا، وسينتهي أمره إلى الفشل الذريع!

.. ثم ناقش "**ألبينوس**"الفكرة مع رجل آخر من رجال السّينما، لكن هذا بدوره سخر من الامر كلّه.. فقال "**ألبينوس**" :" إنّنا نستطيع ان نبدأ بشيء بسيط جدًا، كنافذة ملوّنة مثلا، تبعث فيها الحياة فجأة، وتتكشف- بالتّدريج- عن أحد القديسين" . فأجابه الآخر بقوله :" إنها فكرة غير صائبة.. ولن نستطيع أن نجازف بعرض صور خيالية" .

غير ان "**ألبينوس**" ظل متشبثا بفكرته. وأخيرا قيل له عن رسام نابه يدعى "**أكسيل ريكس**"، كان قد صور بالفعل قصّة فارسية خياليّة، نالت إعجاب الخبراء في "**باريس**" .. ومن ثم حاول "**ألبينوس**" ان يقابله، ولكنّه علم انّه عاد لتوه إلى "**الولايات المتحدة**"، حيث كان يرسم رسوما هزليّة لصحيفة مصورة.. وأخيرا تمكّن "**ألبينوس**" بعد حين من الاتصال به:" فابدى "**ريكس**" اهتماما بالموضوع.

وفي يوم من أيام مارس، تلقى "**ألبينوس**" خطابا طويلا منه.

غير ان الخطاب وصل في وقت وقعت فيه أزمة مفاجئة في حياة "**ألبينوس**" الخاصّة- الخاصة جدا- ومن ثم فإن الفكرة الرائعة التي كان من شانها لولا ذلك أن تعيش ، وربّما

وجدت حائطا تعلقت به وازهرت ، قد ذبلت خلال الأسبوع الأخير.

وقد قال "**ريكس**" في رسالته إن من العبث محاولة إغراء رجال "**هوليوود**" بتنفيذ تلك الفكرة، واقترح على "**ألبينوس**" - في برود - أنّه ، بصفته رجلا ثريا، ينبغي ان يموّل فكرته بنفسه، وفي هذه الحالة : فإنه على استعداد لان يقبل منه اجرا قدره كذا(وذكر رقما مفزعا)، على أن يتقاضى نصف المبلغ مقدما، في نظير ان يرسم أية صورة يريد "**ألبينوس**" ان يبعث فيها الحركة والحياة.

وكان "**بول**" - شقيق زوجة "**ألبينوس**" - حاضرا وقتئذ وهو رجل بدين ، طيّب الخلق، تبدو في جيب سترته مشابك قلمي رصاص وقلمي حبر، فقال : " لو كنت مكانك، لقمت بهذه المخاطرة.. إن الأفلام العادية تكلف أكثر من ذلك..

أعني تلك الممتلئة بالحروب والأبنية التي تنهار وتتهشّم" .

فاجابه "**ألبينوس**" : " ولكن من ينتج تلك الافلام يستردّ كلّ ما ينفقه عليها .. كلا، لاينبغي إن ارتكب هذا الخطأ!" .

فقال "**بول**" ، وهو ينفخ سيجارته ، وكانوا على وشك ان يفرغوا من العشاء: " يبدو أنّي ينبغي أن اذكّرك بأنّك عرضت التّضحية بمبلغ كبير، لايقلّ عن الأجر الذي يطلبه"**ريكس**" ولكن ماذا جرى؟ إنك لاتبدو متحمّسا كما كنت منذ لحظة.. فهل ترى ستتخلى عن فكرتك؟"

فأجابه قائلا : " لاادري.. إن النّاحية العمليّة للموضوع هي التي تضايقني.. ولولاها لبقيت متشبثا بفكرتي" .

فسالت "**إليزابيث**" - الزوجة - قائلة : " ايّة فكرة؟" .

وكانت تلك عادة متاصّلة من عاداتها : ان تسال عن أشياء قد نوقشت بالفعل بإسهاب في وجودها! . كانت تلك ظاهرة عصبية محضة من جانبها، وليست برودا أو غفلة.. فكثيرا ما كانت تفطن - وهي تلقي السؤال ، وقبل أن تتمّ عبارته - إلى أنها تعرف الجواب عليه. وقد كان زوجها يعرف هذه العادة لديها، فلا تضايقه على الإطلاق، بل - بالعكس - كانت تطربه وتسلّيه، فكان يواصل كلامه في هدوء ، وهو

عالم كل العلم- بل موقن- أنه سيجيب في الحال على ذات سؤالها! .. ولكنه في ذلك اليوم بالذّات من شهر مارس(آذار) ، كان في حالة تعسة من البلبلة والانفعال ، حتى لقد افلت منه زمام أعصابه فجأة، وقال لها في خشونة:

"هل سقطت لتوّك من القمر؟".

فنظرت زوجته إلى أظافرها، وقالت في هدوء : " أوه.

نعم ، تذكرت الآن!". ثم استدارت إلى "**إيرما**"- ابنتها التي كانت في الثّامنة من عمرها، وكانت تلتهم في عجلة طبقا من القشدة بالشوكولاتة- وصاحت بها: " ليس سريعا هكذا ياحبيبتي .. من فضلك ، ليس سريعا هكذا!".

وقال "**بول**" : " أعتقد أن كلّ ابتكار جديد.."

ولكن "**ألبينوس**" - وقد اشتدت عليه وطأة عواطفه- ثار في أعماق نفسه متسائلا- " ما لي والمدعو "**ريكس**"، وهذه المحادثات الحمقاء ، وهذه القشدة بالشوكولاتة؟.. إنني على وشك أن يصيبني الجنون.. ولاأحد يعلم ذلك.. وليس في إمكاني أن أتوقّف.. كلاّ. لا أمل في المحاولة..

وغدا سأذهب إلى السّينما مرّة أخرى، وأجلس كالمعتوه في ذلك الظّلام.. ياله من أمر لايمكن تصديقه!".

وهو بالتأكيد أمر لايصدق: فإنه طوال التّسع السنوات الماضية من حياته الزوجية، كان يكبح جماح نفسه:" إنني- في الواقع- ينبغي أن أخبر "**إليزابيث**" بالأمر.. أو أخرج معها بعض الوقت.. أو أذهب إلى طبيب نفسانيّ.. وإلا.. كلاّ. لايمكن للمرء أن يأخذ مسدسا ، ويصوبه إلى فتاة لايعرفها ، لمجرد أنها راقت في عينيه!".

الفصل الثاني

لـم يـكـن "ألبـيـنوس" قطّ محظوظا في شؤون القلب. فبالرغم من أنه كان حسن الصّورة، رفيع الأسلوب، فإنه لم يجن أية فائدة من إعجاب النّساء به!.. فقد كان بالتأكيد ثمة شيء ما يدعو إلى الإعجاب في ابتسامته المشرقة، وعينيه الصّافيتي الزرقة، اللتين تبرزان قليلا حين يشحذ قريحته.

وإذ كان بطيء الفهم، فقد كان ذلك يحدث أكثر مما ينبغي!..

وكان محدثا لبقا، يعتري كلامه تردّد خفيف جدا، في لعثمة لذيذة، تضفي على أتفه العبارات فتنة خلابة. وأخيرا، فإنه ورث عن والده ثروة طائلة. ومع ذلك فإن القصّة عرضة لأن تغدو تافهة، لو أنّه كان بطلها الأوحد!

ففي أيام تلمذته كانت له صلة عميقة من النوع الثقيل بامرأة عجوز شمطاء، أرسلت إليه بعد ذلك، وهو في الجبهة – أثناء الحرب– جوارب وملابس صوفية، وخطابات ملتهبة بالعواطف، مكتوبة في سرعة كبيرة بخط رديء غير مقروء، على ورق من الجلد الرقيق. ثم كانت له بعد ذلك تلك العلاقة بزوجة الأستاذ التي قابلها على ضفاف "الرّاين".

وقد كانت جميلة حين يراها المرء من زاوية معيّنة وفي ضوء معين، ولكنّها كانت فاترة جدّا وخجولا جدا، ومن ثمّ فقد هجرها سريعا. ثمّ آخر الأمر– قبل زواجه مباشرة–كانت ثمّة امرأة في "برلين"، هزيلة العود، ساذجة الملامح، عليها الكآبة.. وكانت توافيه مساء كل سبت، وقد اعتادت أن تحكي كل ماضيها بالتّفصيل، وتكرر ذات العبارات الممجوجة مرة بعد أخرى، وتتنهّد تنهّدا مضجرا وهي في حضنه، وما تفتأ تردد العبارة الفرنسية الوحيدة التي تعرفها، قائلة: "هذه هي الحياة!". وهكذا كانت حياته سلسلة من العلاقات الكئيبة والفشل في الحب..

كأنما كان "كيوبيد" الذي يعمل في خدمته ولاشك أعسر،أعمش، ضعيف الحيلة!.. وإلى جانب هذه المغامرات التافهة، كانت ثمة مئات من الفتيات اللاتي يحلم

بهن، ولكن لم يحدث ان تعرّف بهن قط، وإنما كن يمررن به، تاركات فيه– لمدّة يوم أو يومين– ذلك الشعور المضني بالحرمان ، الذي يجعل من الجمال نجما بعيد المنال في سماء ذهبيّة اللون. . أو موجات من النور تتراقص على القوس الداخلي لجسر فوق أحد الأنهار. . أو اي شيء آخر يستحيل أن تدركه أو تقبض عليه.

ولقد تزوّج . . إلا ان "**إليزابيث**"– وإن كان قد احبّها بطريقة ما– لم تستطع أن تعطيه تلك الرجفة التي كان يضنيه اشتياقه إليها. وقد كانت– وهي ابنة مدير مسرح مشهور– غادة مياسة القد، رقيقة العود، ذهبية الشعر، ذات عينين لالون لهما، وأنف صغير انتشرت عليه بثور دقيقة. وكانت بشرتها شديدة الحساسيّة، حتى ان أخفّ لمسة تترك فيها بقعة قرنفلية، لاتزول إلا ببطء شديد.

وقد تزوّجها، لا لشيء إلا لأن ذلك قد حدث.

وكان ذلك أثر رحلة قصيرة في الجبال، معها ومع أخيها البدين، وابنة خالة لها قوية الجسم بشكل ملحوظ،

تزوجت والحمد لله من رجل في "**بونتريزينا**" . . وكان في "**إليزابيث**" شيء، ما يضفي عليها قدرا كبيرا من الظرف وخفة الظل، وضحكة مرحة صافية. وقد تزوجا في "**ميونيخ**"، حتى يتجنبا هجوم أصدقائهما الكثيرين في "**برلين**". وكانت أشجار الكستناء في اكتمال بهائها وتفتح زهورها.

وكانت "**إليزابيث**" تتحلّى بالرقة والدعة والظّرف، وكان حبها من النوع الطاهر النقي، ولكنّها كانت من حين لآخر تضطرم بالحرارة، فكان يخيّل لـ"**ألبينوس**" في مثل هذه الأحيان انه لاحاجة به إلى رفيقة أخرى تشبع رغبته الكامنة.

وحين اصبحت حاملا، ارتسم في عينيها تعبير عن السّعادة والرّضا، وبدت وكأنّما هي دائمة التأمل في ذلك العالم الجديد الذي بداخلها. . وبعد أن كانت تقفز قفزا في مشيتها ، أصبحت تتهادى متّئدة . وكانت تجرف ملء كفّها من الثلج ، تختطفه اختطافا في غفلة من العيون ثم تروح تلتهمه في شراهة. وقد بذل "**ألبينوس**" كل ما في وسعه لرعايتها والعناية بها، فكان ياخذها خارج البيت في جولات طويلة يتمشّيان

خلالها في بطء وتمهل ، ويتاكد كل مساء من انها ذهبت مبكرة إلى فراشها ، بيد أنه في الليل كان يحلم بانه يحتضن فتاة صغيرة تستلقي عارية على شاطئ بعيد ، تضطرم رماله بالدفء ، ثم يتولاه في ذلك الحلم خوف مفاجئ من أن تضبطه زوجته!.. وفي الصباح كانت "**إليزابيث**" ترنو إلى جسمها المنتفخ في مرآة ، وتبتسم ابتسامة راضية غامضة!

وفي ذات يوم، أخذوها إلى مستشفى الولادة، وعاش "**ألبينوس**" ثلاثة أسابيع وحيدا، لايعرف ماذا يفعله بنفسه،فراح يحتسي قدرا كبيرا من "الشراب". وقد كانت تعذبه فكرتان سوداوان ، وإن كان لكل منهما نوع مختلف من السّواد: إحداهما أن زوجته قد تموت، والأخرى أنه لو أوتي قدرا قليلا آخر من الجراة ، لالتقط فتاة من فتيات الطريق وأتى بها إلى مخدعه الشاغر!

وراح "**ألبينوس**" يمشي جيئة وذهابا في ممرّ المستشفى ذي الجدران المدهونة باللون الأبيض، وكان في أعلى السّلم إناء به شجرة "**لاتانيا**"، وإنه ليكره كل ذلك: يكره ذلك البياض اليائس الذي يربن على المكان، وممرضات المستشفى ذوات الخدود الورديّة، بحفيف أثوابهم ، والقبعات البيضاء ذات الأجنحة التي على رؤوسهنّ ، وهنّ يحاولن إبعاده. وأخيرا ظهر مساعد الجراح ، وقال في فتور: " حسنا، لقد انتهى كل شيء" وعندئذ تراقص امام عيني "**ألبينوس**" رذاذ دقيق أسود، كانه مرور فيلم قديم جدّا من أفلام١٩١٠ ، يبدو فيه موكب جنازة تهتزّ وأرجل المشيعين تتحرك بسرعة كبيرة. وما لبث أن اندفع إلى حجرة الولادة.. وهنالك كانت "**إليزابيث**" سعيدة ، وقد ولدت بنتا.

وكانت الطّفلة في أول الأمر حمراء الجلد مغضّنته، كأنّها كرة من المطاط أفرغت من هوائها ، بيد انها سرعان ما غدت ملساء ناعمة الوجه، ثمّ بعد عام واحد بدأت تتكلّم.. حتى إذا ما بلغت الثامنة، صارت أقل جلبة، إذ ورثت طبيعة أمها الهادئة، وكان مرحها كمرح امها كذلك متئدا غير صاخب ، من ذلك النوع من المرح الذي يستشعره المرء لا لشيء إلا لأنه متمتع بنعمة الوجود، مع إثارة خفيفة من الدّهشة الضاحكة من ذلك الوجود ذاته!

وطوال هذه السنوات ظل "**ألبينوس**" مخلصا لزوجته ، مع ذلك الازدواج في

مشاعره، الذي كان يضنيه ويرهقه كل إرهاق:

فقد كان يحب زوجته حبّا صادقا رقيقا ، هو اقوى حبّ يمكن ان يكنّه لكائن بشري، وكان صريحا معها كلّ الصّراحة، في جميع الأمور، وكان يُفضي إليها بكل شيء، إلا بتلك الشهوة الحمقاء الخفية.. ذلك الحلم الذي كان يضني لياليه .. الشبق الذي كان يحرقه بنيرانه وينخر متغلغلا في كيانه.. وكانت "إليزابيث" تقرأ كل الخطابات التي يكتبها أو يتلقّاها ، وتحب ان تعرف كل تفصيلات عمله.. وكانت لهما رحلات بهيجة جدًا في الخارج، وامسيات كثيرة ناعمة جميلة في المنزل ، حين كان يجلس معها في الشرفة المطلة على الشوارع ذات اللون الأزرق الجميل، والأسلاك والمداخن تبدو وكأنها مرسومة بالحبر الهندي على لوحة الليل. وكان إذ ذاك يهمس لنفسه بأنه سعيد حقا وسط صحرائه الجدباء!

*****

وفي ذات مساء- قبل الحديث عن "أكسيل ريكس" ،بأسبوع – كان في طريقه إلى أحد المقاهي ، حيث كان على موعد يتعلق بعمله، حين لاحظ ان ساعته متقدّمة ، وأن امامه ساعة كاملة، بمثابة منحة مجّانية، له ان يستعملها كيف يشاء.. وقد كان عبثا بالطّبع ان يعود إلى البيت في الطّرف الآخر من المدينة، كما انه كان راغبا عن الجلوس والانتظار .. وكان منظر الرّجال الآخرين مع صديقاتهم يؤلمه دائما، فراح يتسكّع دون غاية ، حتى بلغ دارا صغيرة للسينما ، كانت أضواؤها القرمزيّة تتلألأ على الجليد ، فراح يتطلع إلى الإعلان – وعليه صورة رجل ينظر إلى نافذة يطلّ منها طفل في قميص النّوم– وتردّد برهة ، ثم اشترى تذكرة.

فما دلف إلى الظّلمة النّاعمة ، حتى اتجه نحوه الشعاع البيضاوي لمصباح كهربائي ، فقاد خطواته في الظلام في خفة وهو يميل جانبا في لطف ، حتى إذا وقع الضوء على التّذكرة في يده ، لمح وجه الفتاة التي تقوده.. وفيما هو يسير خلفها ، بدت له – وقد لفها الظلام- رشيقة الحركة، رقيقة القوام ، تنسل في سكينة وهدوء. وبينما هو يتلمس طريقه إلى مقعده ، تطلع إليها فرأى مرة أخرى ذلك الوميض المتالق الذي ينبعث من

عينيها . وقد صادف أن وقع الضوء على خدها الناعم، فبدا له في الظلام وكأنما رسمته يد فنان عظيم على لوحة فاخرة ، من نسيج فاحم السّواد! . .

ولم يكن في ذلك كلّه ما هو غير عادي بالنّسبة إليه، فقد طالما وقع له مثل ذلك من قبل ، وكان يعلم أنه ليس من العقل في شيء أن يعوّل على امور كهذه ، بيد أن الفتاة ما إن ابتعدت واختفت في الظلام ، حتى شعر فجاة بالابتئاس والضّيق ، وكان قد دخل والفيلم يقارب نهاينه– وقد بدت على الشاشة فتاة تتراجع بين أثاث مقلوب، أمام رجل ملثم يصوب نحوها مسدسا في يده– وليس ثمّة اي متعة في أن يشاهد المرء أحداثا لايمكنه أن يفهمها، إذ فاتته بدايتها.

فلما أضيئت الأنوار في فترة الراحة، لمح الفتاة مرة أخرى ، وكانت عند باب الخروج بجانب ستارة ذات لون أرجواني فاقع، كانت لتوها قد أزاحتها، وجموع الخارجين تموج من حولها، وهي تضع إحدى يديها في جيب إزارها القصير المطرّز، وقميصها الأسود محبوك على ذراعيها وصدرها.

وقد تطلّع "ألبينوس" إلى وجهها في تهيّب ، وكان وجها بديعا، ممتقعا ، عليه سمات الأسى والاكتئاب، فقدر أنها في نحو الثّامنة عشرة من عمرها.

وحين أصبح المكان خاليا تقريبا ، وبدأت دفعات جديدة من الوافدين تتلمّس طريقها بين الصّفوف، كانت فتاته تروح وتجيء مرارا بالقرب منه، ولكنه أدار وجهه، إذ كان يعذبه النظر إليها، وهو يذكر كم من مرة مرت به غادة جميلة– او اعتقد أنها جميلة– ثم ذهبت واختفت!

وظل نصف ساعة أخرى يجلس في الظلام، وعيناه تحدّقان في الشاشة ، وأخيرا نهض واتّجه نحو باب الخروج، فأزاحت السّتار من أجله– وقد ارتفع من ارتطام حلقاتها الخشبية صليل خافت– وعندئذ حدث نفسه في تعاسة قائلا: " ولكنني سأتزود بنظرة أخرى" . وقد بدا له أن شفتيها اختلجتا قليلا ، وهي ترد الستار إلى مكانها.

وفي الخارج كان الشّارع غارقا في وحل أحمر كالدم، وقد بدأ الثلج يذوب ، وامتلأ الليل بالرّطوبة ، وراحت الأضواء تومض ثم تتوارى . وقال "ألبينوس" في نفسه"

"**آرجوس**" .. إنه اسم جميل لسينما.

وبعد ثلاثة أيام، لم يعد يمكنه ان يتناسى ذكراها أكثر من ذلك . وقد انتابه تأثر يبعث على الرثاء وهو يدخل المكان مرة أخرى. وهنالك حدث ذات الذي حدث في المرة الأولى:

المصباح الكهربائي تجري أشعته في الظلام ، والعينان الواسعتان يتلألأ وميضهما ، والمشية الرّشيقة في الظلمةالكابية،والحركة الرقيقةلذراعها في كمها الأسود، وهي تزيح السّتار جانبا. وقال "**ألبينوس**" في نفسه:" إن اي رجل طبيعي في وسعه أن يعرف ماذا يفعل، لو كان في مكاني" . وكانت على الشّاشة عربة منطلقة في طريق ممهد ذي منعطفات حادة، بين جبل شاهق وهوة سحيقة.

وحاول "**ألبينوس**" وهو خارج أن ينظر في عينيها هذه المرة ولكنّه أخفق . وكان المطر في الخارج ينهمر مدرارا ، وقد اصطبغت الأرض بذلك اللون القرمزي.

ولو حدث أنه لم يذهب مرة أخرى إلى هناك، لكان من المحتمل -حينئذ أن يتمكن من نسيان مغامرته تلك، اما الآن فقد فات الأوان.. ولقد ذهب إلى هناك مرّة أخرى، وهو مصمّم كل التصميم على أن يبتسم لها.. وياله من شيء تافه ، لو أنه حقّقه،ولكن الذي حدث ان قلبه راح يدقّ دقًا شديدا حتى فاتته الفرصة!

وفي اليوم التّالي، جاء"**بول**" - شقيق زوجته- للغداء، وتكلما معا عن مسالة "**ريكس**" .

والتهمت "**إيرما**" قشدتها بالشوكولاتة، وسالت "**إليزابيث**"، على عادتها، فقال لها:

" هل سقطت لتوّك من القمر؟" . ثم راح يخفي ضجره بضحكة مفتعلة.

وبعد الغداء ، جلس بجانب زوجته على الأريكة الرّحبة، وبدأ يقطف منها قبلات صغيرة ، وهي تتطلع إلى الأثواب والصور في مجلة نسائيّة، وراح يفكّر في نفسه في إعياء قائلا:" لعنة الله على كلّ شيء. إنّني لسعيد..فماذا يعوزني أكثر من ذلك؟ تلك المخلوقة التي تنسل في الظّلام؟!..

وددت لو سحقت رقبتها الجميلة.. ولكنها قد ماتت بالنسبة لي.. فإنني لن أذهب إلى هناك مرة أخرى!" .

الفصل الثالث

كان اسمها "**مارجوت بيترز**" ، وكان ابوها بوابا ، أصيب في الحرب إصابة بالغة ، وكان رأسه الأشيب ما يفتأ يهتزّ بغير انقطاع ، وكأنه يؤكد- بصورة مستمرة- ما هو فيه من همّ وغم. وكانت أقل إثارة تدفع به إلى نوبة من التهيج العنيف.. أما امها ، فكانت بعد في طور الشّباب ولكنّها محطّمة كذلك .. وكانت فظة قاسية القلب ، ويدها الضاربة إلى الحمرة ما تفتأ مستعدة للضرب على الدّوام. وكان رأسها في أكثر الأحيان معصوبا بمنديل يقي شعرها من التراب أثناء العمل، إلا أنها كانت- بعد انتهاء عمليّة التنظيف الكبرى يوم السبت- ترتدي ثيابها وتخرج لزيارة صاحباتها، ولم يكن السّكان يحبونها لسلاطة لسانها وطريقتها الوقحة وهي تامرهم بمسح أحذيتهم في الممسحة.

وكانت درجات السّلم هي صنمها المعبود .. لا باعتبارها رمز الصعود إلى المجد ، وإنما لأنها شيء يجب أن يظل نظيفا.

ومن ثم فقد كان أشد ما يثير حنقها أن ترى على الدرجات البيضاء النّاصعة، أثرا أسود لحذاء تتابع خطواته إلى نهاية السلم.. على أنها كانت امرأة فقيرة ، ومن ثم فلاداعي للسّخرية!

وكان "**أوتو**"- شقيق "**مارجوت**"- شابا يكبرها بثلاث سنوات، ويعمل في مصنع درّاجات. وكان يزدري مهنة والده، ويشتغل بالسياسة ، فكان يضرب المنضدة بقبضته قائلا: " إن اول ما ينبغي للإنسان هو معدة ممتلئة" .. وهذا هو مبدؤه الذي اعتاد أن يسير عليه.. ولاشكّ أنه مبدأ رنّان.

وقد ذهبت "**مارجوت**" في طفولتها إلى المدرسة، وهناك كانت تتلقى من الضّرب أقل مما كانت تتلقّاه في البيت.. والحركة المالوفة لدى القطّة الصّغيرة ، هي أن تقفز قفزة صغيرة بطيئة، ثم تتوالى قفزاتها فجاة .. اما الحركة المالوفة لدى "**مارجوت**"فكانت أن ترفع مرفقها في حركة حادّة لتحمي وجهها من الضّرب!.. إلا أنها رغم كلّ شيء نمت وتفتحت وأصبحت فتاة مشرقة ممتلئة بالحيوية والحياة، فما إن بلغت الثّامنة حتّى

اشتركت- بكلّ ما فيها من المرح المتدفق- في مباريات كرة القدم المحتدمة الصّاخبة التي كان يقيمها تلاميذ المدارس في وسط الشارع ،بكرة من المطاط في حجم البرتقالة ، ثم تعلّمت- في العاشرة- ان تركب درّاجة اخيها، فكانت تنطلق - وذراعاها عاريتان، وضفائرها الطويلة السوداء تتطاير في الهواء - تارة فوق الرصيف ، وتارة في عرض الطريق ، ثم لاتلبث أن ترتكز بقدم واحدة على حجر كبير ، وتظل ساكنة حالمة.

بيد انها- في الثّانية عشرة- اصبحت اقل ميلا إلى اللعب والصخب ، وكانت تلك هي الأيام التي لم تكن تعشق فيها أكثر من الوقوف لدى الباب ، والثّرثرة بصوت خافت مع ابنة بائع الفحم، متحدثتين عن النّسوة اللائي يزرن بعض السكّان ، أو عن قبعات السيدات المارات في الطّريق.. وذات مرة ، عثرت تحت السلم على حقيبة يد رثّة، بها قرص صغير من صابون اللوز، وقد التصقت به خصلة شعر رقيق مجعّد، وبضعة صور فاضحة جدّاً.، وفي مرة أخرى ، اقترب منها الولد ذو الشعر الأحمر- الذي اعتاد على الدوام أن يدفعها بيديه أثناء اللعب- وقبّلها في مؤخر عنقها.

ثم حدث- ذات مساء- أن أصابتها نوبة هستيرية ، صبّوا بسببها الماء البارد على رأسها، ثم ضربوها ضربا مبرحا.

وبعد ذلك بعام، ازداد جمالها ازديادا واضحا، وصارت تلبس ثوبا قصيرا أحمر اللون، وتحبّ السينما حبّا جنونيّا.

وقد اعتادت- فيما بعد- أن تتذكر هذه الفترة من حياتها بحسرة شديدة: الأمسيات الهادئة المتلألئة الدافئة .. وأصوات الحوانيت وهي تغلق وقد تقدّم الليل .. وأبوها جالس في استرخاء خارج الباب وهو يدخن غليونه ويهز رأسه..

وأمها وقد عقدت ذراعيها .. وأيكة البنفسج نائمة على السور..و"**فراو فون بروك**" عائدة إلى بيتها بمشترياتها في حقيبة خضراء من الخيط المجدول.. و"**مارتا**" الخادمة تتأهب لعبور الطريق مع كلبها السلوقي وكلبي الصيد بشعرهما الشائك.. والليل يرخي سدوله..

واخوها ياتي مع زميلين صاخبين ، يتدافعان نحوها، ويحاصرانها ، حائمين حول

ذراعيها العاريتين، وكانت عينا أحدهما كعيني الممثل السينمائي "**فيديت**" .. والشّوارع والطّوابق العليا للمنازل ، سابحة كلها في الضوء الاصفر، وقد ران عليها سكون لايعكره إلا رجلان أصلعان يلعبان الورق في الشّرفة– عبر الطريق– وكل ضحكة أو ضربة بنان منهما يمكن للأذن أن تسمعها.

*****

وإذ أصبحت في السادسة عشرة، صادقت الفتاة الجالسة خلف صندوق النقود في حانوت صغير عند ركن الشّارع ، وكانت الأخت الصغيرة لهذه الفتاة تعمل نموذجا لأحد الفنّانين، وتحصل من هذا العمل على أجر سخي.

ومن ثم راحت "**مارجوت**" تحلم بأن تغدو نموذجا ، ثم نجمة سينمائية.. وكان ذلك يبدو لها أمرا سهلا: فها هي ذي السماء متأهبة لاستقبال نجمتها، وفي تلك الفترة تعلمت الرقص وأخذت تذهب من وقت لآخر مع فتاة الحانوت إلى ملهى "الفردوس" ، حيث كان الشّيوخ من الرّجال يعرضون عليها– بين عواء الجازباند عروضا فاضحة!

وفي ذات يوم، كانت واقفة عند ركن الشّارع، حين اقترب منها فجأة شابّ يركب درّاجة بخارية– وكانت قد رأته مرة أو مرتين من قبل– وعرض عليها أن تركب معه.

وكان ذا شعر كستنائي مصفف إلى الخلف، وقميصه يتماوج أمامه وهو منتفخ بما فيه من هواء، فابتسمت له، وجلست خلفه ، وضمّت أطراف ثوبها .. وإن هي إلا لحظة حتى كان منطلقا بسرعة مخيفة، ورباط رقبته يتطاير في وجهها، وقد أخذها إلى خارج المدينة، وهنالك عرج بها على بقعة خلوية.. وكانت الشمس مشرقة ، والطيور ترفرف، والسّكون الشّامل يرين على شجر الصنوبر والخلنج.

وجلس بجانبها على حافّة أخدود هنالك ، وقال لها إنه في السنة الماضية رحل إلى "**إسبانيا**" على دراجته .. ثم طوقها بذراعه وراح يضمها إليه ويتحسس ذراعيها وينهال عليها بقبلات عنيفة أجهدتها ثم أصابتها آخر الأمر بالدوار.

وراحت تتلوى حتى تملصت منه ، وقالت له باكية: " لك أن تقبلني.. ولكن ليس بهذه الطريقة !" . فهز الشاب كتفيه، وقفز إلى دراجته ، ثم انطلق تاركا إياها جالسة

على حجر من احجار الطريق ، فعادت إلى البيت على قدميها! وهنالك امسك بها شقيقها "اوتو" – وكان قد رآها حين ذهبت– وقبض على عنقها باصابعه، ثم ركلها ركلة بارعة جعلتها تسقط على آلة الخياطة ، فاصابتها منها رضوض.

وفي الشّتاء التّالي، قدّمتها أخت فتاة الحانوت إلى "**فراو ليفاندوفيسكي**"، وهي امرأة عجوز ،تعيش في حيّ راق، وتتحدّث باسلوب رقيق ، وإن كان حديثها تافها .. وعلى خدّها بقعة كبيرة أرجوانية بحجم اليد، اعتادت أن تبرّر وجودها بأن أمها ذعرت من النار وهي حبلى بها، وقد اقامت "**مارجوت**" بغرفة الخادمة في مسكنها .. وحمد أبواها الله على أنّهما تخلّصا منها، فضلا عن انّهما كانا يعتقدان أن أي عمل يعتبر مقدسا مادام يدر مالا!..

وكان أخوها– الذي اعتاد أن يحب الكلام بعبارات تهديدية عن شراء الراسماليين لبنات الفقراء– غير موجود، لحسن الحظ، إذ كان يعمل في "**برسلاو**".

وقد وقفت "**مارجوت**" – في مبدأ الأمر– كنموذج في مدرسة من مدارس البنات، ثمّ في مرسم حقيقيّ بعد ذلك.

حيث كان يتطلع إليها فنّانون لا من النّساء فحسب، وإنما من الرجال كذلك.،. وكان أغلبهم شبان، وكانت تجلس على بساط صغير، وشعرها الأسود النّاعم مصفف أبدع تصفيف، وهي عارية تماما، وقد ثنت قدميها تحتها، واتكأت على ذراعها ذات الأوردة اللازوردية ، وبدا ظهرها ناعما ، وانتشر زغب خفيف بين كتفيها البديعتين، وقد رفعت إحداهما إلى خدّها الوردي ، ومالت قليلا إلى الأمام في شبه فتور وتأمل.

وكانت ترقب بطرف عينها التلاميذ وهم يرفعون ابصارهم ثم يخفضونها.. وتسمع الحفيف الخفيف الصادر عن أقلام الفحم، وهي تظلل هذا القوس أو ذاك..

واختارت من بينهم واحدا– كان أكثرهم وسامة– فراحت ترميه بنظرة غامضة ملؤها الفتنة، كلّما رفع وجهه وتطلع إليها وشفتاه منفرجتان وجبينه مقطّب ، ولكنها لم تفلح أبدا في أن تجذب انتباهه إليها، وكان هذا يؤلمها أيما ألم!.. فقد كانت– من قبل– تتوهم ذلك غاية السعادة، كلما تصورت نفسها جالسة هكذا ، غارقة وحدها في هالة من

النور، وكل العيون تتطلّع إليها.. بيد أن كل الذي حدث- في الواقع- هو أنها أصبحت تعاني الملل الشّديد.

ولكي تلفت الأنظار إليها، أخذت تبالغ في تزيين وجهها، وتغرق بالطّلاء الأحمر شفتيها الحارّتين بطبيعتهما ، وتغالي في تسويد أجفانها ، بالرغم من أنها كانت سوداء في الأصل بما فيه الكفاية.. بل إنها مسّت حلمتي نهديها- ذات مرة- بأحمر الشّفاه، ، فتلقت بسبب ذلك تعنيفا شديدا من المرأة "**ليفاندوفيسكي**" !

*****

ومرت الأيام هكذا ، وليس لدى "**مارجوت**" إلا فكرة غامضة عن هدفها الحقيقي، وقد ظلت تراود خيالها- على الدوام- صورتها وكأنها غادة جميلة ترتدي الفراء الفاخر، يعاونها خادم فندق فخم على النزول من عربة فارهة ، تحت مظلة عظيمة. وكانت تسأل نفسها في عجب: كيف يتسنى لها أن تقفز مباشرة من البساط الحائل اللون- في المرسم - إلى ذلك العالم المشرق المتلالئ، حين أنبأتها "**فراو ليفاندوفيسكي**"- لأول مرة- عن شاب متيم في هواها من الأرياف، قائلة لها في رقّة وهي تشرب قهوتها: " ليس بوسعك الحياة هكذا وحيدة.. فأنت صبيّة فاتنة، وينبغي أن يكون لك صاحب .. وهذا الشاب الخجول يبحث عن تربة نقية في هذه المدينة الشريرة" .

وكانت "**مارجوت**" تضع في حجرها كلب"**فراو ليفاندوفيسكي**" الأصفر المكتنز، وهي تشد أذنيه الناعمتين الحريريتين- اللتين تشبهان من الداخل زهر القرنفل الأسود- لتضم طرفيهما فوق رأسه الظريف..

وأجابت دون أن ترفع عينيها قائلة :" أوه لا داعي لذلك بعد ، فأنا مازلت في السادسة عشرة.. أليس كذلك؟..

ثم ما الفائدة؟ هل يؤدي ذلك إلى شيء؟.. إنني اعرف أولئك الأشخاص" .

فقالت "**فراو ليفاندوفيسكي**"في هدوء :" انت مجنونة.. إنني لاأكلمك عن أحد أولئك المحتالين، وإنما عن رجل كريم رآك مرة في الطّريق، ومنذ ذلك اليوم وهو يحلم

بك!".

فقالت "**مارجوت**" وهي تقبّل الثؤلول الذي على خدّ الكلب: أظنه كهلا محطما..".

فاجابتها "**فراو ليفاندوفيسكي**" قائلة: " مجنونة.. إنه في الثلاثين، حليق الذقن، أنيق الهندام، ذو ربطة عنق حريرية. ومبسم ذهبي للسجائر".

وعندئذ قالت "**مارجوت**" للكلب: " هيا.. هيا بنا نتمشّى !".

.. فانسل من حجرها إلى الأرض، وانطلق يجري في الردهة.

وكان السيد الذي أشارت إليه "**فراو ليفاندوفيسكي**" أبعد الناس عن أن يكون شابا خجولا من الأرياف.. وقد اتصل بها عن طريق تاجرين عرفهما في الباخرة وكان يلعب معهما البوكر، طوال الطّريق، من "**بريمن**" إلى "**برلين**". ولم يجر أي كلام في مبدأ الأمر عن الثّمن.. كل الذي حدث هو أن "القوّادة" أرته صورة فتاة باسمة، وبريق الشمس في عينيها، وكلب نائم بين ذراعيها، فلم يفعل "**ميللر**" وهذا هو الاسم الذي ذكره- إلا أن هز رأسه موافقا.

*****

وفي اليوم المحدد اشترت المرأة بعض الفطائر، وأعدت قدرا كبيرا من القهوة، ونصحت "**مارجوت**" - في كثير من الدهاء - بأن ترتدي ثوبها الأحمر القديم.

وفي نحو الساعة السادسة رن الجرس، وعندئذ قالت "**مارجوت**" في نفسها: " إنني لن أعرض نفسي لأي مخاطرة فلو أنني كرهته، فسأقول لها ذلك فورا.. وإذا لم أكرهه فسأتيح لنفسي الفرصة الكافية للتفكير!".

إلا أنه لم يكن لها- لسوء الحظ- أن تبت بهذه البساطة فيما عساها أن تفعل مع "**ميللر**": فقد كان أول كل شيء - ذا وجه يصدم الناظر إليه، بشعره الطويل الأغبر غير اللامع، المرتد إلى الخلف في إهمال، والذي لم يكن مستعارا، وإن بدا كذلك.. وبوجنتيه اللتين كانتا تبدوان غائرتين لفرط بروز عظامهما.. وبشرته الشديدة البياض

وكانها مطلية بطبقة كثيفة من المسحوق(البودرة) . وعينيه الحادتين البراقتين .. وذينك المنخرين المضحكين، المثلثي الأركان ، اللذين كانا يذكران المرء بالوشق الضاري، وهما لايكفان عن الحركة أبدا.. والنّصف الأسفل من وجهه بذينك الأخدودين الغائرين عند طرفي الفم..

وكانت ثيابه تبدو أجنبية : ذلك القميص ذو الزّرقة النّاصعة ، وربطة العنق الزاهية الزرقة، والسترة الداكنة الزرقة، وسراويله الواسعة.. وكان يبدو فارع الطول، نحيف القوام، وهو يحرّك كتفيه المربعتين في خفّة، ويتّخذ طريقه بين أثاث "**ليفاندوفيسكي**" ذي الأغطية المخملية، وكانت "**مارجوت**" تتصوّره- من قبل غير ذلك تماما، وقد جلست وذراعاها معقودتان، وهي تستشعر الحسرة وخيبة الأمل، بينما كان"**ميللر**" يلتهمها بعينيه.

وسألها بصوت خشن عن اسمها، فلما أجابته، قال وهو يطلق ضحكة قصيرة :" وأنا "**أكسيل الصغير**". ثم تحوّل عنها في فظاظة، وواصل كلامه مع "**فراو ليفاندوفيسكي**"عن مشاهد "**برلين**" ، وكان متادبا -في شيء من السخرية – مع مضيفته!.. وصمت فجاة ليشعل سيجارته ، فلصقت قطعة صغيرة من ورق السيجارة بشفته المكتنزة الشديدة الحمرة .. ولكن أين المبسم الذهبي؟!

واخيرا قال:" إنها لفكرة يا سيّدتي العزيزة.. هاك بطاقة لمقعد أمامي بمسرح "**فاجنر**"، ولابد انك تحبّينه.. فارتدي قبعتك ، واستاجري عربة أدفع عنك أجرها كذلك!".

فشكرته "**فراو ليفاندوفيسكي**"، قائلة- في شيء من العزة- إنها تفضّل البقاء بالمنزل. وتضايق "**ميللر**" بشكل واضح ، وقام من مقعده قائلا لها:" هل لي أن أقول لك كلمة ؟". بيد أن السيدة تجاهلت قوله، وقالت في برود:

" خذ مزيدا من القهوة!". فازدرد "**ميللر**" كلامه ، وجلس مرة أخرى، ثم ابتسم وبدأ- في أسلوب ظريف هذه المرة-يقص عليهما قصّة فكهة عن صديق له من المغنيين في الأوبرا .. فما لبثت "**مارجوت**" أن عصت شفتيها ، ثم انحنت فجاة إلى الأمام،

واستغرقت في نوبة من الضحك الذي يشبه ضحك الأطفال ، وضحكت **"فراو ليفاندوفيسكي"** كذلك، وصدرها الضّخم يهتزّ اهتزازا رتيبا.

وفكّر **"ميللر"** في نفسه قائلا: " حسنا .. إذا كانت العاهرة العجوز تريدني ان امثّل دور العاشق المتيّم، فسأفعل ذلك بغير شك، وبإتقان ونجاح يفوقان ما تتصوّرا" .

ومن ثمّ جاء مرة أخرى في اليوم التالي، ثم مرة ثانية، ثم ثالثة. ولكن **"فراو ليفاندوفيسكي"**- التي لم تكن قد تقاضت سوى مبلغ صغير كمقدّم للأتعاب ، وكانت تريد اقتضاء المبلغ كله- لم تدع الاثنين وحدهما لحظة واحدة. إلا أنه كان يحدث أحيانا، حين كانت **"مارجوت"** تأخذ الكلب لتتمشّى به في أواخر الليل، أن كان **"ميللر"** يبرز لها فجاة من جوف الظّلام ، ويسير بجانبها ، فتضطرب اشد الاضطراب وتسرع الخطى بغير وعي ، تاركة الكلب يتبعها وقد مال جسمها قليلا عن اتجاهه وهو يجري متارجحا. غير ان **"فراو ليفاندوفيسكي"** علمت بهذه المقابلات السرية، فاصبحت بعد ذلك تصطحب الكلب بنفسها!

*****

ومرّ أكثر من أسبوع على هذه الوتيرة، ثمّ قرّر **"ميللر"** العمل، فقد كان من السّخف أن يدفع الثّمن الغالي الذي تطلبه المرأة، في حين انه كان على وشك أن يحصل على ما يشتهي دون مساعدتها، وفي ذات ليلة ، روى لها ولـ**"مارجوت"** ثلاث حكايات فكهة أخرى، كانت أظرف ما سمعتها .. وشرب ثلاثة أقداح من القهوة.. ثم قام إلى **"فراو ليفاندوفيسكي"** ، فجمعها في ذراعيه ، ودفع بها إلى الحمام، وأدار المفتاح في الباب من الخارج!..

وبوغتت المرأة المسكينة لأول وهلة مباغتة شديدة ، فظلت خمس ثوان لاتنطق حرفا، ولكنّها بعد ذلك لم تكف عن الصّراخ.

وتحول الرجل إلى **"مارجوت"** ، وكانت واقفة في وسط الغرفة وقد عقدت يديها على

راسها ، وقال لها : " احزمي امتعتك وتعالي! " . . واخذها إلى مسكن صغير – كان قد استاجره لها في اليوم السّابق– فما عبرت عتبته حتى اذعنت واستكانت في نشوة من السعادة والرّضا بحظّها الذي كانت تنتظره منذ بعيد!.

واحبت "ميللر" حبا جما. . فقد كانت ثمة متعة– ايما متعة– في ضمّة ذراعيه القويتين، ولمسة شفتيه الغليظتين، ولم يكن يتكلم معها كثيرا، ولكنّه كان في معظم الوقت يجلسها على ركبتيه ، ويضحك في تؤدة، وهو يفكر في شيء لاعلم لها به . ولم يكن في وسعها ان تعرف ماذا كان يفعل في "برلين" ، أو من هو في الحقيقة. . كما لم يمكنها أن تعرف عنوان فندقه، وحين حاولت ذات مرة ان تفتش جيوبه، انهال بضربة على مفاصل اصابعها، مما جعلها تصمّم على أن تعاود الكرة بطريقة أفضل. . ولكنه كان حريصا جدا.

وكانت تخاف كلما خرج ألا يعود ابدا مرة اخرى ، بيد أنها – فيما عدا ذلك– كانت سعيدة جدا، كانت تامل أن يظلا على الدّوام معا. وكان من وقت لآخر يهديها شيئاما– كجوارب حريرية، أو علبة"بودرة" – إلا انه لم يكن يمنحها شيئا غالي الثمن، وإن اعتاد أن يأخذها إلى المطاعم الأنيقة ودور السينما، ثم أصبح بعد ذلك يأخذها إلى المقهى . . وفي ذات مرة جاءت ممثلة مشهورة من ممثلات السينما، وجلست على بعد موائد قليلة منها. والتفت هو إلى الرّجل الذي كان معها، وبادله التحيّة. فشهقت "مارجوت" لفرط الازدهاء والسرور.

وكان هو من جانبه متعلّقا بها ، حتى انه كثيرا ما كان يهم بالرحيل، ثم يلقي بقبعته فجأة في أحد الأركان ، ويقرر ان يبقى . . وقد اكتشفت مصادفة– ذات مرة– أنه يعتزم الرحيل إلى "نيويورك" . ومرّعلى ذلك شهر كامل، ثم نهض – في ذات صباح– مبكّرا عما كان يفعل عادة، وقال إنه راحل. . وسالته لأي مدّة ، فنظر إليها، ثم راح يذرع الغرفة جيئة وذهابا في "بيجامته" الأرجوانية، وهو يفرك يديه كانه يغسلهما، وقال فجأة: " إلى الأبد فيما أعتقد! " .

وشرع يرتدي ثيابه دون أن ينظر إليها، وقد حسبته يمزح ، فخلعت ملابسها وألقتها

بعيدا- إذ كانت الغرفة حارّة جدا- وأدارت وجهها إلى الحائط ، وعندئذ ضرب الأرض بقدمه قائلا: " ليس عندي مع الأسف صورة لك! " .

ثم سمعته يغلق الحقيبة الصغيرة التي كان يضع فيها بعض الأشياء التي يأتي بها إليها.

وبعد بضع دقائق قال لها: " لاتتحركي ، ولا تتلفتي حولك! " . فلم تتحرّك.. ولكن ماذا كان يفعل؟.. لقد صاح فيها مرة أخرى حين حركت كتفها العارية، قائلا" لاتتحركي! " . ولمدّة دقيقتين، ران السّكون ، لا يعكره إلا صرير خفيف ، كان يبدو مالوفا. وأخيرا قال لها: " يمكنك الآن أن تستديري! " . ولكن "**مارجوت**" ظلت بلا حراك، فسار نحوها وقبل أذنها وخرج مسرعا.. وظل صوت القبلة يرن لحظة في أذنها. وظلت في الفراش طول النّهار ، ولكنّه لم يعد!

وفي الصبّاح التّالي تلقت برقية من "**بريمن**"، جاء بها "أجر الغرف مدفوع حتى يوليو(تموز).. وداعا أيتها الشّيطانة الحلوة! " .

فصاحت "**مارجوت**" قائلة: " ياإلهي!.. ماذا أفعل بدونه؟" . ثم قفزت إلى النّافذة، وفتحتها على مصراعيها وهمت بإلقاء نفسها في الشارع. ولكن سيّارة أقبلت في هذه اللحظة، تنبعث منها أضواء حمراء وذهبّية، وهي تجلجل بصوت مرتفع ، ووقفت أمام المنزل المقابل، الذي تكأكأ الناس عنده، وكانت تنبعث من إحدى النوافذ العليا غيوم من الدخان، وتتطاير في الهواء قصاصات سوداء من الورق المحترق . فالهاها الحريق عما كانت قد اعتزمته!

*****

ولم يكن قد تبقّى لها إلا القليل من النقود ، بيد أنها في كربها ذهبت إلى ملهى من ملاهي الرقص، كما تفعل الفتيات المهجورات في الأفلام، وهنالك اقترب منها رجلان يابانيان.وإذ كانت قد احتست أكثر مما ينبغي من الشّراب ، وافقت على أن تقضي الليل معهما! . وفي الصبّاح التالي طلبت مائتي مارك.. إلا أنّ الرجلين أعطياها مائة وخمسين قطعة من العملة الصغيرة وصرفاها، ومن ثمّ قرّرت أن تكون أكثر حذرا في المستقبل!

وفي ذات ليلة كانت في إحدى الحانات ، فجاء كهل بدين، ذو أنف يشبه الكمثرى المعطوبة، ووضع يده المجعّدة على ركبتها الناعمة، وقال لها في اشتياق: " يسعدني أن أراك مرة أخرى يا "دورا" .. أمازلت تذكرين أي لهو تمتّعنا به في الصيف الماضي؟" .

فضحكت وأجابته قائلة إنه مخطئ،.

فسألها الكهل- وهو يتأوه- عما تحبّ أن تشرب، ثم مضى بها إلى البيت. إلا أنه كان قاسيا معها- في ظلمة العربة- حتى لقد قفزت منها تاركة إياه. ولكنه تبعها ، وراح يتوسّل إليها- والدموع في عينيه- أن تلقاه مرة أخرى. فأعطته رقم تليفونها..

وحين دفع إيجار غرفتها حتى شهر نوفمبر(تشرين الثاني) وأعطاها مالا كافيا لتشتري ثوبا من الفرو، سمحت له بأن يقضي الليل معها، وإذا به مريح جدا، فسرعان ما استغرق في النوم.. ولكنه لم يف بالموعد الذي ضربه لها بعد ذلك،

فلما اتصلت – آخر الأمر- بمكتبه تليفونيا، قيل لها إنه مات!

وباعت رداءها الفرو ، فكفاها ثمنه حتى الربيع، إلا أنها – قبل أن تبيعه بيومين- شعرت برغبة شديدة في أن تبدو أمام والديها وهي في بهائها ، فاستأجرت عربة إلى المنزل.

كان يوم سبت.. وكانت أمها تمسح مقبض الباب الأمامي، فما رأت ابنتها، حتى جمدت في مكانها ، وقالت لها في حدّة:

" لن أقبلك أبدا!" . فابتسمت "مارجوت" في هدوء ، وعادت إلى العربة ، ومن خلال النافذة الخلفية رأت أخاها يقبل مسرعا من المنزل ويصرخ بشيء ما خلفها ، وهو يلوّح بقبضته.

واستأجرت غرفة أرخص من السابقة ، واعتادت أن تجلس على حافة سريرها في الظلمة المتراكمة – وهي نصف عارية الجسم ، حافية القدمين- وتروح تدخن بلا انقطاع.

وكانت صاحبة المنزل وهي امرأة حنون – تأتي من حين لآخر لتتحدث معها بعض الوقت .. وكان الشتاء يبدو أكثر بردا من المعتاد، فراحت "مارجوت" تبحث عن شيء

لديها ترهنه ليفي بحاجتها، وهي تقول في نفسها: " وماذا أفعل بعد ذلك؟"

وفي ذات صباح صافي الزّرقة، كانت روحها المعنوية مرتفعة ، فتزينت حتى أصبحت فاتنة ، وقصدت إلى شركة أفلام ذات شهرة تبشّر بالخير.

ونجحت في تحديد موعد لمقابلة المدير في مكتبه..

وإذا هو رجل عجوز ذو عصابة سوداء على عينه اليمنى، وبريق نافذ ينبعث من عينيه اليسرى.. وراحت "**مارجوت**" تؤكّد له انها مثّلت قبل ذلك، ونجحت نجاحا باهرا.

فسألها في حنان ،وهو يحدق في وجهها الذي بدا عليه الانفعال قائلا: " في أي فيلم؟" .

وفي هدوء ذكرت له فيلما، فسكت الرجل ، ثمّ أغمض عينه اليسرى..وكان من الممكن أن يكون هذا غمزا ، لو ان عينه الأخرى كانت مفتوحة وقال لها : " من حظك انك اتيت إلي.. فلو كان آخر مكاني ، لأغراه شبابك بأن يغدق عليك الوعود الخلابة.. ثم تذهبين في الطريق الذي يذهب فيه الجميع!.. إنني لم أعد– كما قد تلاحظين – في ميعة الصبا،والذي لم أره من الحياة ،هو الذي لايستحقّ أن أراه ، ولي ابنة أكبر منك سنّا، فيما أظن.. لذلك أود أن أقول لك شيئا يا طفلتي العزيزة: إنك لم تكوني أبدا ممثّلة، وفي كل الاحتمالات لن تكوني أبدا.. فعودي إلى بيتك، وفكّري في الأمر، وتحدثي فيه إلى والديك،إن كان ذلك ممكنا.. وهو أمر أشك فيه! " .

وعندئذ ضربت "**مارجوت**" طرف المقعد بقفازها وانتصبت واقفة، وتسللت إلى الخارج، وقد تقلص وجهها من الغضب.

*****

وكان ثمة مكتب لشركة اخرى في المبنى ذاته، إلا انهم لم يسمحوا لها حتى بالدخول .. فانطلقت عائدة ، وقد امتلأت سخطا و سلقت لها صاحبة المنزل بيضتين، وراحت تربت كتفها وهي تأكل بنهم وغضب. ثم أتت المرأة الطيّبة بزجاجة من النبيذ وكاسين صغيرتين ، ملأتهما بيد مرتعشة، ثم أقفلت الزجاجة في عناية، وأعادتها إلى مكانها. وقالت وهي تجلس ثانية إلى المنضدة العرجاء: "إنك حسنة الحظ، وكل شيء

سيغدو على ما يرام يا حبيبتي .. فغدا سأقابل ابن عمي ونتحدث معا عنك".

وقد نجح الحديث مع ابن العمّ الذي كان يملك دارا للسّينما.. وفرحت "**مارجوت**" في أول الأمر بوظيفتها الجديدة، وإن كانت بالطّبع ، بداية متواضعة لاشتغالها بالسينما. .وبعد ثلاثة أيام، أصبحت تشعر كأنما هي لم تمارس عملا في حياتها سوى أن ترشد الناس إلى مقاعدهم!

وحدث أن تغير البرنامج في يوم الجمعة، فسرّت بذلك، ووقفت متّكئة على الحائط،تشاهد "**جريتا جاربو**". ولكنها ما لبثت أن سئمت المشاهدة.

ومر أسبوع آخر ، ثم حدث أن نظر إليها رجل– وهو يخرج متباطئا– وقد ارتسم على وجهه الخجل والارتباك . .وبعد ليلتين أو ثلاث ليال، عاد مرة أخرى. وكان أنيق الهندام، يرنو إليها بعينيه الزرقاوين في ظمأ وجوع.

وقالت "**مارجوت**" في نفسها:" إنه لشخص ظريف، وإن كان قد تجاوز سنّ الشّباب!" . . فلما عاد للمرة الرابعة أو الخامسة– ولم يكن ذلك من أجل الفيلم قطعا،لأنه قد رآه عدّة مرات – شعرت برجفة خفيفة من السّعادة!

ولكنّه كان خجولا ، غاية الخجل..وفي ذات ليلة ، لمحته –وهي عائدة إلى البيت– على الجانب الآخر من الطريق،. فسارت ببطء دون أن تتلفت حواليها، وإن ظلّت تراقبه من ركني عينيها ، متوقعة أن يتبعها ، ولكنه لم يفعل ، بل اختفى ..

وعندما جاء مرة أخرى إلى دار سينما "**آرجوس**" ، كان شاحبا ومبتئسا بشكل غريب ..

حتّى إذا انتهت "**مارجوت**" من عملها ، تسلّلت إلى الشارع ، ثم توقفت وفتحت مظلتها.

وكان هو هنالك .. يقف مرة أخرى على الطوار المقابل.

فعبرت الطريق في هدوء متّجهة نحوه. ولكنّه حين رآها تقترب منه، تحرّك على الفور مبتعدا!

وفي هذه اللحظة ، شعر بأنّه أحمق ضعيف، فقد كان يعلم أنها خلفه ، ومن ثم كان يخاف أن يوسع الخطى فيفقدها، وكان– في الوقت ذاته– يخاف أن يتباطأ فتلحق به! . . حتّى إذا بلغ تقاطع الطرق التالي ، اضطر إلى أن ينتظر، والعربات تنطلق أمامه واحدة بعد

أخرى. وعندئذ لحقت به.. وفي ذات اللحظة، مرقت أمامها عربة كبيرة، فقفزت إلى الخلف، واصطدمت به، فامسكها من مرفقها النحيل ،وراحا يعبران الطريق معا.

وقال "ألبينوس" في نفسه: " الآن بدأ الأمرا " ..

وراح يجتهد - في ارتباك- أن يوفّق بين خطوته وخطوتها، فما سبق له قط أن سار مع امراة صغيرة السن بهذا الشكل. وما لبثت أن قالت له باسمة: " لقد بللك المطر" .

فاخذ المظلة من يدها ونشرها فوق رأسيهما،وعندئذ التصقت به أكثر من ذي قبل ، فخاف في تلك اللحظة أن ينفجر قلبه،ولكنه ما لبث أن شعر فجاة بتراخ لذيذ، وكانما وضع يده على وتر سعادته.. تلك السعادة الناعمة التي تضرب على الوتر المشدود في قمة الرأس!.. وما فتئت كلماته أن انسابت في سهولة، وقد اسعدته هذه السهولة الجديدة عليه.

وانقطع المطر، ولكنهما ظلا يسيران تحت المظلّة، حتّى إذا توقفا أمام باب بيتها ، اغلق المظلة الجميلة المبتلّة وأعادها إليها، قائلا في توسل: " لاتذهبي الآن! " . ووضع يده في جيبه، وحاول أن يخلع خاتم زواجه بإبهامه ، وهو يكرّر توسّله قائلا: " لاتذهبي! " .

واستطاع ان يخلع الخاتم أخيرا.. في اللحظة التي أجابت فيها قائلة : " لقد تأخّرت.. وستغضب خالتي" .

فامسك برسغيها،وحاول - في خجل شديد- ان يقبلها، ولكنّها حنت رأسها ، فلاقت شفتاه قبعتها المخمليّة.

وقالت بصوت خافت: " دعني اذهب.. أنت تعلم أنه لا ينبغي ان تفعل ذلك! " .

وصاح قائلا: " لاتذهبي .. فلا أحد لي في الدنيا سواك" .

فقالت : " لاأستطيع .. لاأستطيع" ، وادارت المفتاح في القفل ،واندفعت بكتفها الرقيقة عبر الباب الكبير. فقال لها: " سانتظرك مرّة أخرى غدا" .

وابتسمت له خلال الزّجاج، ثمّ جرت في الممر المعتم نحو الفناء الخلفي ، فندت عنه آهة عميقة ، وأخرج منديله، وجفف أنفه ،وأحكم أزرار معطفه بعناية ، ثم عاد ففكّها مرّة اخرى . وشعر بيده خفيفة عارية، فاسرع ودس أصبعه في الخاتم الذي كان لايزال دافئا!

الفصل الرابع

وفي بيتـه، لم يكن ثمـة شيء قـد تغيـر.. وبدا له ذلك غـريبـا .. كـانت "**إليزابيث**" و"**إيرما**" و"**بول**" يبدون كأنهم يمتون لعصر آخر.. هادئين، في سكون الصور الإيطالية الأولى.

وكان"**بول**" قد قضى يومه في عمل مستمر بمكتبه، فأراد أن يقضي أمسية هادئة في بيت أخته، وكان يكن احتراما عميقا لـ"**ألبينوس**"، لثقافته ودماثته، وللأشياء الجميلة التي تحيط به، واللوحة ذات الخضرة الزاهية – في غرفة الطعام– التي كانت تمثل الصيد في غابة.

كـان "**ألبينوس**" – حين فتح باب مسكنه– قد شعر بتقلّص في أمعائه، إذ تذكّر أنه لن يلبث أن يرى زوجته بعد لحظة، فهل تراها قادرة على أن تقرأ في وجهه خيانته؟..

ألم يكن ذلك السير تحت المطر خيانة؟.. وقد حدث كل هذا بعد أن كان مجرد أفكار وأحلام ، من قبل .. ومن يدريه أن سوء حظه الشّنيع لم يسق له من يكون قد رآه وأبلغ زوجته؟.. أو لعلها تشمّ العطر الرّخيص اللذيذ الذي كانت تستعمله فتاته؟

وراح –وهو يدلف إلى الرّدهة– ينسج سريعا في ذهنه قصة تسعفه عند اللزوم .. قصّة عن فنّانة صغيرة ، فقيرة ونابغة ، كان يحاول أن يساعدها..

ولكنّه لم يجد شيئا قد تغيّر .. لا الباب الأبيض الذي كانت تنام خلفه ابنته عند نهاية الدّهليز.. ولامعطف شقيق زوجه الواسع، الذي كان معلّقا في مشجبه– وهو مشجب خاص مكسو بالحرير الأحمر– في دعة ووقار كالمعتاد.

ودخل غرفة الجلوس ،.. فإذا "**إليزابيث**" في ردائها العادي ذي المربعات ، و"**بول**" يدخن سيجارته، وسيّدة عجوز من معارفهم ،كانت أرملة بارون وافتقرت بسبب التضخّم المالي، فاصبحت تعيش من دخل تجارة بسيطة في الأبسطة واللوحات الزيتية .. وكانوا يتحدّثون أحاديث كل يوم الرّتيبة ، فارتاح لذلك، وشعر باختلاجة سعادة، إذ لم يكتشف أحد أمره.

وعندما رقد- بعد ذلك- بجانب زوجته في غرفة نومهما ذات الضوء الخفيف والأثاث الفاخر، وقد انعكس على صفحة المرآة- كالمعتاد- جزء من جهاز التّدفئة المطلي باللون الأبيض ، راح يعجب من طبيعته المزدوجة : فإن حبه لـ"**إليزابيث**" مازال متينا لم ينقص شيئا، ومع ذلك فقد راحت تومض في عقله فكرة أنه ربما في الغد .. نعم في الغد بالتّأكيد . !

*****

ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة ، فإن "**مارجوت**"- في مقابلتهما التالية- اجتهدت في ان تتجنب مغازلاته بمهارة، ولم تتح له أية فرصة لكي يصطحبها إلى أحد الفنادق . .

بل إنها لم تقل شيئا كثيرا عن نفسها ،اللهم إلا أنها يتيمة، وأن أباها كان رساما- فيا لها من مصادفة عجيبة!- وانها كانت تعيش مع خالتها ،وتعاني ضيقا شديدا، وتتوق لأن تترك وظيفتها المرهقة!

وقدم "**ألبينوس**" نفسه إليها باسم لفّقه سريعا ، وهو "**شيفر ميللر**" .. وعندئذ قالت "**مارجوت**" في نفسها بمرارة: "**ميللر**" آخر أيضا ." ثم قالت له: " آه! .. إنك تكذب طبعا" .

وكان شهر مارس(آذار) مطيرا،وتلك الجولات الليلّية تضني "**ألبينوس**" ،ومن ثمّ فإنه لم يلبث أن اقترح عليها أن يذهبا إلى مقهى .. واختار مكانا صغيرا مظلما، اطمأنّ إلى أنه لن يصادف فيه أحدا من معارفه .

وكانت عادته- حين يجلس إلى مائدة - أن يضع عليها في الحال علبة سجائره وقدّاحته، فمكّن هذا "**مارجوت**" من أن تلمح الحرفين الأولين من اسمه منقوشين عليها، وكانا يختلفان عن حرفي الاسم الذي زعمه لها.. ولم تقل شيئا، ولكنها بعد تفكير قليل طلبت منه أن يأتي لها بدفتر التّليفون .. وبينما كان يتجه إلى حجرة التّليفون ، بمشيته البطيئة المتراخية ، تناولت قبعته من على المقعد، وراحت تفحصها في خفّة، فوجدت بداخلها اسمه مكتوبا!

وما لبث "**ألبينوس**" ان عاد بدليل التّليفون ، يحمله كانه الإنجيل، وهو يبتسم في رقّة ، وبينما كان يطيل التّحديق في أهدابها الوطفاء الواهنة، راحت تمرّ بسرعة على حرف الرّاء، حتى عثرت اخيرا على عنوان "**ألبينوس**" ورقم تليفونه ، ثمّ اغلقت المجلّد الأزرق في هدوء.

وقال لها "**ألبينوس**" مغمغما : " اخلعي معطفك! " . فراحت –دون ان تكلّف نفسها عناء الوقوف – تسحب ذراعيها من الكمين ، وهي تحني عنقها الجميل ، حتى تخلصت من الكم الأيمن ثم من الكم الأيسر.وإذ كان "**ألبينوس**" يعاونها، عبقت أنفاسه بنفحة من عطر البنفسج المتضوّع منها..

وتامل انثناء جيدها، وتموّج بشرتها. ثمّ استوت معتدلة، وخلعت قبعتها ، وراحت – وهي تتطلّع في مرآتها الصغيرة– تبلل سبابتها وتربت بها على خصلات الشعر الفاحمة المتدلّية على وجنتيها.

وجلس "**ألبينوس**" بجانبها ،ينظر ثمّ ينظر إلى ذلك المحيا الذي كان كل شيء فيه رائعا فتّانا : خدان احمران بلون الورد ،وشفتان كانهما مغمستان بخمر في حمرة الكريز، وعينان دعجاوان تحاكيان البندق ، وشامة صغيرة زغباء قابعة عند استدارة خدها الأيسر ذي البشرة الحريرية النّاصعة..

وإذ تملكه الهيام، قال في نفسه: " ساظلّ أنظر إليها هكذا ..ولو شنقوني! " .

.. حتى لهجة "**برلين**" العاميّة التي كانت تتكلم بها ، لم تزد صوتها الأبحّ إلا فتنة.. وكانت إذا تكلمت كشفت عن اسنانها الكبيرة البيضاء، وإذا ضحكت أغمضت عينيها نصف إغماضة، فترقص غمّازتان على خديها!

ومد يده متلصّصا إلى يدها الصغيرة ،ولكنها سحبتها على الفور ، فقال لها: " إنك ستودين بي إلى الجنون! " .

فربتت ذراعه قائلة: " رويدك، كن ولدا طيبا! "

*****

بيد أنه لم يكد يستيقظ في الصّباح التّالي، حتى قال في نفسه: " لايمكن أن تستمر الحال هكذا.. أبدا.. يجب أن أعثر لها على غرفة.. ولكن لعنة الله على هذه الخالة-خالتها - فليس أبدع من أن نكون وحدنا تماما!..

إذ ذاك أعلّمها الحب كما يتعلّم المبتدئون أيّ شيء.. فيالها من طفلة صغيرة جدا.. وبريئة جدا.. وتسبّب الجنون.. جدا!".

وفي هذه اللحظة ، سمع صوت "**إليزابيث**" تقول له في رقة:

"أأنت نائم؟".. فتثاءب وفتح عينيه ، وإذا "**إليزابيث**" جالسة على حافة السرير الكبير، في قميص نومها الأزرق الفاتح وقد أخذت تتصفح الخطابات.. وسألها وهو ينظر إلى ذراعها النّاصعة البياض: "هل من شيء هام؟". فأجابته قائلة: " هذا خطاب من "**آش**" يطلب فيه نقودا مرة أخرى ، ويقول إن زوجته وحماته كانتا مريضتين ، وإن النّاس يتآمرون عليه.. كما يقول إنه عاجز عن شراء الألوان.. أعتقد أن علينا أن نساعده مرة أخرى!"

فقال "**ألبينوس**": " نعم.. طبعا!"..وارتسمت في ذهنه - في هذه اللحظة- صورة زاهية الألوان لوالد "**مارجوت**" المتوفىّ.. فقد كان مثله - بلا شك -مريضا، وعصبيّا،وفنّانا غير موهوب ،تمضي حياته عسيرة خشنة! وواصلت "**إليزابيث**" كلامها قائلة: " وهذه دعوة من نادى الفنّانين ..أعتقد أن علينا أن نذهب هذه المرة ..وهذا خطاب من "**الولايات المتحدة**".." ، فقال لها: "اقرئيه بصوت مرتفع!". فشرعت تقرأ: " سيّدي العزيز- ليس عندي أنباء كثيرة أنقلها إليك ..إلا أنه لاتزال ثمّة أشياء أود أن أضيفها إلى خطابي الطويل السابق، الذي أود أن أقول- بين قوسين- أنك لم تجب عليه بعد .. كما قد يأتي في.."

وفي هذه اللحظة دوّى رنين التليفون على المنضدة القائمة بجوار السرير ، فمدّت "**إليزابيث**" يدها إليه وقد مالت إلى الأمام ،وراح "**ألبينوس**" - وهو شارد الذّهن- يتابع حركات أصابعها الرقيقة،وهي تتناول المسماع وتقربه من أذنها..

وسمع شقشقة صوت من الطرف الآخر، فقالت "**إليزابيث**": " أوه، صباح الخير"..

واختلجت ملامحها - في ذات الوقت- بإشارة معيّنة لزوجها، توحي إليه بأن البارونة هي التي كانت تتكلّم.. وتتكلم كثيرا!

وعندئذ، مدّ يده إلى الخطاب الأمريكي ، ونظر إلى تاريخه، وهو يعجب من نفسه إذ لم يرد بعد على الخطاب الماضي..

وأقبلت "إيرما" لتحيي والديها كعادتها كل صباح، وفي هدوء قبلت أباها ثم أمها ، التي كانت تنصت إلى حديث التليفون بعينين مغمضتين، وهي تغمغم من حين لآخر بتأكيد فيه رياء، أو دهشة مصطنعة.

وقال "**ألبينوس**" لابنته هامسا: " أرى أنك اليوم فتاة صغيرة حسناء جدًا! " ..

فابتسمت "**إيرما**" كاشفة عن أسنان كأنها عقد من اللؤلؤ، بيد أنها لم تكن جميلة على الإطلاق ، بل كان النمش يكسو جبهتها الشّاحبة، وكانت أهدابها بيضاء ، وأنفها طويلا جدا بالنسبة لوجهها.

وقالت "**إليزابيث**" : " بكل تأكيد! " . للمرة الأخيرة، ثم وضعت المسماع وهي تتنهّد في ارتياح.. وبينما مضى "**ألبينوس**" في قراءة الخطاب ، أمسكت "**إليزابيث**" ابنتها من رسغيها ، وراحت تقول لها كلاما مرحا، وهي تضحك وتقبّلها وتجذبها جذبا خفيفا عقب كل عبارة، والطفلة تبتسم في رصانة..

وفجاة، رن جرس التليفون ثانية . وفي هذه المرّة، تناول "**ألبينوس**" المسماع ورفعه إلى أذنه ، فإذا بصوت نسائي يقول له: " صباح الخير يا عزيزي "**ألبينوس**" ! " .. وتساءل: " من الذي يتكلم؟ " .. وفجاة انتابه إحساس رهيب، وكأنما كان يهبط به مصعد سريع!

واستمرّ الصّوت قائلا: " لم يكن ظريفا منك أن تعطيني اسما زائفا ، ولكني أسامحك.. إنما أردت أن أقول لك.. " .

فقال بصوت أجش: " أخطأت الرقم! " . وألقى بالمسماع في مكانه ، وقد تولاه الخوف من أن تكون "**إليزابيث**" قد سمعت شيئا، كما سمع هو- من قبل- صوت البارونة الخافت .

وسألته "**إليزابيث**" : " ماذا جرى؟.. لماذا تضرج وجهك هكذا؟" . فقال مغمغما: "

يالـه من عـبث!.. "**إيرمـا**" ياصغيرتي"، امشي مشية لائقة، ولاتتمايلي هكذا.. هذه عاشر مرّة يدعوني فيها التليفون خطأ، في بحر يومين.. لقد كتب أنه ربما يحضر إلى هنا في نهاية العام.. سيسرني ان أراه!".

فقالت زوجته متسائلة " من الذي كتب؟" فأجاب" يا إلهي.. إنك لاتعينَ أبدا ما أقوله لك إنه ذلك الرّجل الأمريكي "ريكس".. فسألته في غير انتباه: " أي "ريكس" ؟"

الفصل الخامس

كان لقاؤهما في ذلك المساء لقاء عاصفا. وكان "**ألبينوس**" قد بقي بالبيت طول النهار وهو في رعب دائم من ان تتصل به تليفونيا مرة اخرى ، فما إن رآها خارجة من دار السّينما حتى حياها غاضبا، وهو يقول: " اسمعي ايتها الطفلة..

إنني أمنعك من أن تكلميني تليفونيا، إذ إن هذا لايليق..

وإذا كنت لم اذكر لك اسمي، فلأن عندي اسباب ذلك!".

فقالت "**مارجوت**" في برود: " اوه، حسنا.. لاشان لي بك". ومشت بعيدا ، فوقف في مكانه ينظر إليها قانطا.. فيا له من حمار! اما كان خليقا به ان يمسك لسانه؟..

إنها كانت مسوقة إلى أن تعرف في النّهاية أنها أخطأت!

وما لبث أن لحق بها ومشى بجانبها ، قائلا لها: " سامحيني يا "**مارجوت**" ولاتغضبي منّي.. إنني لااستطيع أن أعيش بدونك.. وقد فكّرت في الأمر جميعه ، فاتركي وظيفتك- فإنني غني- وستكون لك غرفتك الخاصّة، أو بيتك الخاصّ، أو اي شيء تحبّينه!".. فقالت "**مارجوت**" : " انت كذاب، جبان، أحمق!.. فانت متزوّج ، ولهذا تخفي ذلك الخاتم في جيب معطفك.. أوه!.. إنك متزوّج فعلا ، وإلا لما كنت فظا في حديثك التليفوني معي".

وقال متسائلا: " وإذا كنت متزوّجا.. فهلا تقابلينني مرّة اخرى؟". فقالت: " وماذا يهمني؟ اخدعها.. فهذا خير لها !" فزمجر قائلا: ""**مارجوت**" .. اسكتي!".

فقالت: " إذن ، دعني وشاني !". ولكنه صاح: "**مارجوت**" انصتي لي.. إن لي حقّا اسرة، ولكني أرجوك أن تكفي عن سخريتك بي..".

وحاول ان يمسكها ، فافلتت منه ، وتشبّث بحقيبتها الصغيرة الرثة قائلا: " أوه .. لاتذهبي!".. فصاحت فيه: " اذهب إلى الجحيم!".

وكانا قد بلغا مسكنها ، فصفقت الباب في وجهه.

الفصل السادس

قـالت "**مـارجـوت**" لصاحبة المنزل الذي تقيم فيه: " أريد أن تقرئي لي طالعي" . فأخرجت المرأة- من خلف زجاجات البيرة الفارغة -رزمة مهلهلة من أوراق اللعب، فقدت معظمها أركانها، فبدت كلها كانها مستديرة.. وراحت تقرأ ما فيها: فثمة رجل غني أسود الشعر.. ومتاعب .. ووليمة .. ورحلة طويلة..!

وبينذاك ، راحت "**مـارجـوت**" تقول لنفسها ، وقد أسندت مرفقيها إلى المائدة: " يجب أن أعرف كيف يعيش؟.. فلعلّه – بعد كل شيء- ليس غنيا حقا، ولا يستحقّ أن أحفل به لحظة.. أم ينبغي أن أجازف ؟" .

وفي الصّباح التّالي، طلبته تليفونيّا مرّة أخرى، في ذات الموعد السابق بالضبط، وكانت "**إليزابيث**" في الحمام.

فراح "**ألبينوس**" يتكلم هامسا وعينه على الباب ، وهو يكاد يجن فرحا- برغم الخوف الذي تملّكه- لانها صفحت عنه .. وراح يهمهم قائلا: " ياحبيبتي .. يا حبيبتي!" .

وسألته وهي تضحك: " قل لي، في أي وقت ستكون زوجتك خارج البيت؟" . فأجابها وقد سرت في بدنه رعدة باردة: " لاأدري .. لماذا؟" . فقالت : " اريد ان أزورك في البيت لحظة!" .

وسكت إذ سمع بابا يفتح في مكان ما، ثم غمغم قائلا: " لن يمكنني الاستمرار في الكلام" . فقالت: " إذا جئتك فسامنحك قبلة!" . ولكنه قال متلعثما: " لاأعرف الآن .. كلا، لا أعتقد ذلك ممكنا.. إذا وضعت المسماع فجاة، فلا تدهشي.. سأراك الليلة، وسوف.. " . وهنا وضع المسماع ، وجلس برهة دون حراك، ينصت إلى دقات قلبه، وهو يقول في نفسه: " يا لي من جبان!.. من المؤكد ان "**إليزابيث**" ستمكث في الحمام نصف ساعة أخرى!" .

*****

وقال لـ"**مارجوت**" حين التقيا بعد ذلك: " أرجو ان تجيبيني إلى طلب صغير .. هيا

نستاجر عربة ! ". فقالت : " عربة مفتوحة ! ". ولكنه اجاب : " كلا ، فهذا خطر جداً. . بيد أنني اعدك ان أكون عاقلا ".

وراح يتطلع في هيام إلى محياها الناضح بالطفولة ، وقد بدا ناصع البياض في وهج مصباح الشّارع، حتى إذا جلسا في العربة ، بدأ يقول لها : " اسمعي ! . . إنني – أولا– لست غاضبا منك لأنك اتصلت بي تليفونيا. . ولكني أرجوك– بل أتوسل إليك– الا تفعلي ذلك مرة أخرى يا حبيبتي . . يا معبودتي الغالية! ". فقالت "**مارجوت**" في نفسها " هذا أفضل "، بينما واصل هو حديثه قائلا : " وثانيا، قولي لي ، كيف عرفت اسمي؟ ".

فكذبت ، بلا داع، قائلة له إن امرأة تعرفها رأتهما في الشّارع معا، وإن هذه المرأة تعرفه هو كذلك.

فسألها "**ألبينوس**" في جزع قائلا : " من هي؟ ".

فأجابته قائلة : " أوه، إنها ليست سوى إحدى العاملات، وأعتقد أن أختا لها كانت تشتغل– في يوم ما– خادمة أو طبّاخة لدى أسرتك ". وإذ راح "**ألبينوس**" يشحذ ذاكرته في يأس ، قالت له : " لقد قلت لها– على اية حال– إنها مخطئة . . فأنا صبيّة لطيفة! ".

وكانت الظّلمة داخل العربة تلف وتلتفّ في دوائر وانصاف وارباع دوائر من ظلال سنجابية راحت تتراقص من نافذة إلى نافذة ، وكانت "**مارجوت**" تجلس قريبة منه جدا، حتى لقد كان يحسّ بالحرارة الحيوانيّة الشهيّة المنبعثة من جسدها ، فقال في نفسه : " لسوف أموت أو أفقد عقلي إذا لم أنلها! ". . ثمّ قال لها بصوت مرتفع، مواصلا كلامه : " وثالثا، ابحثي لنفسك عن مسكن– من حجرتين مثلا أو ثلاث حجرات ومطبخ– على شريطة أن تدعيني أزورك من حين لآخر! ".

ولكنها ما لبثت أن قالت : "**ألبير** " . . انسيت ما عرضته عليك هذا الصباح؟ " . . ودمدم قائلا : " ولكنّها مخاطرة . . فانت ترين مثلا أنّني ساكون وحدي غدا من نحو الساعة الرابعة إلى السادسة . . ولكن من يدري ما عساه أن يحدث؟ ". . وتصور كيف

يحتمل ان تعود زوجته فجاة من اجل شيء نسيته..

وقالت في نعومة: " ولكنني وعدتك بان أمنحك قبلة.. وأنت تعرف أنه ما من شيء في الدنيا يتعذر تفسيره بطريقة ما.."

*****

وهكذا ، أرسل "**فريدا**"- الخادم- بكتابين أمرها أن تسلمهما إلى صديقين على بعد بضعة اميال ، عندما خرجت "**إليزابيث**" مصطحبة"**إيرما**" إلى حفلة شاي ، في اليوم التّالي..

ومكث وحيدا.. وكانت ساعته قد توقفت قبل دقائق بيد أن المنبه- في غرفة النوم- كان مضبوطا.. ثم إنه لو اطل من النافذة ، لاستطاع أن يرى ساعة الكنيسة وقد أشارت إلى الرابعة إلا ربعا.. وكان اليوم من أيام أبريل (نيسان)الوسطى ، مشرقا ، شديد الرياح.. وقد لاح على الحائط المشمس للمنزل المقابل، شبح دخان ينطلق مسرعا من ظل مدخنة .. وقد جفت رقع من أرض الشارع، كان المطر قد بللها منذ قليل، وبدا ما تبقى من البلل كانه أشكال غريبة سوداء مرسومة في عرض الطريق.

وبلغت الساعة الرابعة والنصف ، ولما تات الفتاة..

وكان كلما فكر في محياها الصبياني الرقيق، وبشرتها الحريرية الناعمة ، وملمس يديها الصغيرتين العاطلتين من الزينة ، أحس بلذعة الرغبة العارمة تؤلمه.. وبات تصور القبلة الموعودة يملأه هياما لاتفتأ وطاته تشتد عليه حتى لم يعد يحتمل المزيد .. وفي زاوية أخرى من مخيلته كانت صورة جسدها المرمري تتمثل له .. تلك الصورة التي سبق لطلبة الفن ان سجلوها في رسومهم.. ولقد تصادف ان راى هو أحد تلك الرسوم: إذ حدث مرة أن جاءه"**لامبرت**"- طبيب العائلة الشيخ- بمجموعة من الصور المرسومة بالفحم ، كان ابنه قد رسمها قبل عامين.. وكانت بينها صورة فتاة ذات شعر معقوص، وإحدى قدميها مثنية تحتها فوق البساط الذي جلست عليه، وقد مالت على ذراعها الرقيق، وكتفها تلامس خدها.. ولم تكن هذه الفتاة سوى "**مارجوت**" !

وبلغت الساعة الخامسة إلاّ عشر دقائق، وقد تأخرت "**مارجوت**" عشرين دقيقة، فتمتم قائلا: " سأنتظر حتى الخامسة.. ثم أخرج بعد ذلك" .

وفجأة ، رآها.. وكانت تعبر الطريق ، دون معطف ولا قبعة، وكأنها تسكن عند ركن الشّارع. فقال في نفسه: " مازال ثمّة وقت لأنزل إليها وأقول لها إن الوقت قد تأخّر جدّا!" . ولكنّه بدلا من أن يفعل ذلك ، هرع لاهثا إلى البهو، وتربّص حتى إذا سمع وقع خطواتها الصبيانيّة على السلم، فتح الباب في حذر، فإذا هي في ثوبها القصير الأحمر، وذراعاها عاريتان ، تبتسم في مرآة صغيرة- في يدها- ثم تستدير على عقبها، وهي تسوي مؤخرة شعرها..

وما إن خطت إلى الداخل، حتى شهقت صائحة: " إنك لفي عيشة فاخرة!" . ثم راحت تدور بعينيها المتألقتين في البهو ذى اللوحات الكبيرة الفخمة، والزهرية الخزفية الرائعة في الركن، وذلك الطلاء الفاخر بدلا من ورق الحائط.

وقالت متسائلة: " أأدخل هنا؟" .. وفتحت بابا، ثم فغرت فاها قائلة: "أوه!" . فمدّ يدا مرتعشة حول خصرها ، وراح يتطلع معها إلى الثريا البلورية المدلاة، وكأنه يراها – هو الآخر- لأول مرة.. ولكنها بدت له ملفوفة بالضباب !

ووقفت الفتاة وقد ثنت قدميها إحداهما فوق الأخرى، وجسمها يهتز اهتزازا خفيفا، وعيناها تجولان فيما حولها.

ثم دخلت معه الغرفة التالية، فما إن وقع بصرها عليها حتى هتفت- مرة أخرى- قائلة: " إنك غني!" .. ثم أردفت: " يا للسّماء.. يالها من سجاجيد!" .. وبهرها "البوفيه"- الذي كان في غرفة الطعام- إلى درجة أتاحت لـ"**ألبينوس**" أن يتلصّص بيده في جسدها اللّدن الحار. وقالت هي في تلهّف: " لنمض في جولتنا!" .

وفي مرآة مرّا بها، أبصر "**ألبينوس**" رجلا وقورا شاحبا يسير بجانب تلميذة من تلميذات المدارس في ثوب يوم الأحد!

.. وفي حذر مرّ بيده على ذراعها الناعمة الملمس ، فغامت المرآة أمام عينيه، وقالت "**مارجوت**" : " هيا بنا!" . وأراد أن يعود بها إلى غرفة المكتب، حتى إذا قدّر لزوجته أن

تعود قبل موعدها ، استطاع أن يزعم أن زائرته فنانة صغيرة تريد منه المساعدة.، ولكن "**مارجوت**" سألته وهي تتوقّف عند آخر غرفة بلغاها: " وما هذه؟" . فأجابها : " تلك هي غرفة الأطفال .. لقد رأيت الآن كلّ شيء" . فقالت، وهي تحرك ذراعيها: " دعني أشاهدها!" .. فأرسل زفرة عميقة ، وقال : " إنها غرفة الأطفال ياحبيبتي .. ليست سوى غرفة للأطفال، وليس فيها ما يستحقّ المشاهدة!" .

ولكنها – مع ذلك– دخلت .. وشعر فجأة بدافع قوي لأن يصيح فيها: " أرجو ألا تمسّي أي شيء!" . ولكنها أمسكت دمية تمثل فيلا أرجوانيا ذا خرطوم طويل. فخطفه منها وألقى به في أحد الأركان، فضحكت "**مارجوت**" قائلة: " إن ابنتك الصغيرة تحيط بها السعادة هنا!" . ثم فتحت الباب التّالي، فصاح فيها متوسلا: " كفاك يا "**مارجوت**" .. لقد ابتعدنا كثيرا عن البهو، ولن نسمع صوت الباب الخارجي .. إنه لخطر مخيف!" .. ولكنها دفعته في نزق الطّفل المدلل، وانسلت عبر الردّهة إلى غرفة النوم.. وهناك جلست أمام المرآة، وراحت تدير فرشاة فضية الظهر في يدها، وتتشمّم عبير زجاجة عطر ذات سدادة فضّية.. فصاح "**ألبينوس**" قائلا: " أوه.. دعي هذه!" .

واندفع إليها ، فراوغته في مهارة ،واندفعت نحو الفراش المزدوج ، وجلست على حافته وراحت تخلع جواربها كما يفعل الأطفال، وهي تحدث جلبة كبيرة،ثم أخرجت لسانها، وعندئذ فقد "**ألبينوس**" عقله فجأة وقال في نفسه "سأنالها ثم أقتل نفسي!" .. ومشى نحوها مترنحا وقد فتح ذراعيه ،ولكنها قفزت نحو الباب وقد ندت عنها صيحة مرح،فاندفع خلفها .ولكنه كان متأخرا ، إذ صفقت الباب في وجهه وهي تضحك وتلهث ، وأدارت المفتاح من الخارج ، فقال "**ألبينوس**" متوسلا: " افتحي يا "**مارجوت**" !

ولكنه سمع وقع خطواتها تبتعد راقصة ، فردد في صوت مرتفع: "افتحي يا"**مارجوت**" !" ، غير أنها لم تجبه، فغمغم قائلا: " يالك من لبؤة صغيرة!" . ثم قال في نفسه: " ياله من موقف سخيف!" .

*****

واستولى عليه الانزعاج ، كما أحس بتعب محموم ، فهو لم يألف من قبل أن يقفز هكذا بين الغرف ، كما أضنته الرغبة التي حبطت فجأة . .ولكن ، أتراها ذهبت حقًا؟ . .

كلاّ، فهناك شخص يسير في الداخل . .وجرب بعض المفاتيح التي كانت في جيبه ، ولكنه لم يفلح في فتح الباب، فانهارت أعصابه وراح يهزّه هزّا عنيفا،وهو يصيح: " افتحي حالا!

. .أتسمعينني؟" . واقتربت الخطوات . .ولكنّها لم تكن خطوات "**مارجوت**" ! . . وسمع صوتا لم يكن يتوقعه في تلك اللحظة. . صوت "**بول**"، يقول: " ما هي الحكاية؟ . .

هل الغرفة مغلقة عليك؟ . . أأفتحها لك؟" .

وفتح الباب ،وبدا خلفه "**بول**" منزعجا ، وهو يردد قائلا: "ماذا حدث؟" . ثم فغر فاه، إذ رأى الفرشاة ملقاة على الأرض. فقال "**ألبينوس**" : " أوه . . إنه لشيء مضحك، سأرويه لك بعد قليل! . . لنشرب كأسا من أي شيء!" .

وقال "**بول**" : " لقد سببت لي انزعاجا لعينا، فلم أستطع أن أحدس ماذا حدث . . ومن حسن الحظ أنني أتيت ، فقد قالت لي "**إليزابيث**" إنها ستعود في نحو الساعة السادسة . . من حسن الحظ أنني أتيت مبكرا. . ولكن من الذي أغلق عليك الباب ؟ . . أرجو ألا تكون خادمك قد أصيبت بمس من الجنون؟" . . وكان "**ألبينوس**" قد جلس موليا إياه ظهره، متشاغلا بالشراب. . وما لبث أن قال، وهو يجد عناء في إخراج الكلمات :" ألم تقابل أحدا على السلم ؟" . . فقال "**بول**" :" لقد استقللت المصعد" .

وقال "**ألبينوس**" في نفسه ،وقد انتعش بشكل ظاهر: " إذن فقد نجوت!" . ثم فطن إلى مدى غبائه الخطر، إذ نسي أن "**بول**"كان يحمل مفتاحا لباب المسكن . .وبصوت مرتفع ، قال وهو يرشف كأس الشراب: " هل تصدق؟ . . لقد دخل لص المنزل ،ولكن ، لاتقل لـ"**إليزابيث**" طبعا!

. . أعتقد أنه كان يظن أن المنزل خال. . وفجأة سمعت صوتا غريبا يصدر عن الباب

الخارجي ،فخرجت من غرفة مكتبي لأرى ما هنالك.. وفي البهو رأيت رجلا يتسلّل إلى غرفة النوم ، فتبعته.. وحاولت أن امسك به ، ولكنه استدار واغلق الباب،فحبسني في الداخل وهرب مع الأسف.. ظننتك قابلته!.. فقال **"بول"** مشدوها : " إنك تمزح! " .

-كلاّ ، لقد كنت في مكتبي ،وسمعت صوت الباب الخارجي.. فذهبت لأرى ما هنالك و...

- ولكن قد يكون سرق شيئا.. هيا نتبيّن بانفسنا .. يجب أن نخطر الشّرطة.

- اوه، لم يكن لديه وقت ليسرق ، فقد حدث كل شيء في ثانية..وقد أفزعته فهرب.

- كيف كان شكله؟

- رجل ضخم الجسم ، تبدو عليه القوة الهائلة..

- كان من الممكن أن يوقع بك ضررا.. ياله من حادث محزن !.. هيا ينبغي أن نلقي نظرة على البيت!

وراحا يمران بين الحجرات، ويفحصان الأقفال، فإذا كل شيء في مكانه،ولكن .. في نهاية بحثهما، وهما في غرفة المكتب ، سرت في **"ألبينوس"** فجاة رعدة ذعر جعلته يترنّح فهناك خلف خزانة مستديرة للكتب ، كان يبدو طرف ثوب احمرا.. ولكن **"بول"**- باعجوبة - لم يره ، برغم انه كان ينعم النّظر في كل شيء.. وبادره **"ألبينوس"** قائلا بصوت مختنق : " كفى يا **"بول"** !.. لاداعي للاستمرار في ذلك ، فمن الواضح انه لم ياخذ شيئا" .

وقال **"بول"** ، وهو يهم بالخروج من غرفة المكتب: " كم تبدو منزعجا !.. اسمع ياصديقي العزيز ، يجب ان تغير قفلك الخارجي، أو تترك بابك مغلقا على الدوام.. ولكن ماذا عن الشرطة؟.. هل تحب أن...؟" وهنا وضع **"ألبينوس"** اصبعه على فمه مشيرا إليه أن يسكت.. فقد ارتفعت أصوات في البهو ، ثم دخلت **"إليزابيث"** ، تتبعها **"إيرما"** ومربيتها ، وإحدى صديقاتها الصغيرات.. طفلة بدينة ، يبدو من ملامحها أنّها بلهاء خجول، وإن كانت كثيرة الجلبة والصخب.

وشعر "**ألبينوس**" بانه في كابوس : فإن وجود "**مارجوت**" في البيت كان أمرا مروّعا لايطاق.. وما لبثت الخادمة أن عادت ومعها الكتابان اللذان كان قد أوفدها بهما- لأنها لم تجد العنوان طبعا- فازداد الكابوس هولا.. واقترح على الجميع ان يذهبوا إلى المسرح في ذلك المساء، ولكن "**إليزابيث**" قالت إنها كانت متعبة..

ولم ينفك "**ألبينوس**" - اثناء العشاء- عن إرهاف أذنيه لأي صوت مريب، منصرفا إلى ذلك بكل انتباهه، حتى أنه لم يدر ما الذي كان ياكله.. وظلّ يتلفت حواليه وهو يسعل ويهمهم، ويقول في نفسه: "ليت المجنونة الفضولية تبقى في مكانها ولاتتحرك!".

ولكن ، كان ثمّة احتمال آخر رهيب.. فقد تنطلق الطفلتان في الغرف.. ولم يجرؤ على أن يذهب فيغلق باب غرفة المكتب، إذ قد يؤدي ذلك إلى ارتباكات لايمكن تصورها. ولكن ، الحمد لله!.. فإن صديقة "**إيرما**" الصغيرة لم تلبث أن غادرت البيت، فآوت "**إيرما**" إلى فراشها.. بيد أن التوتر استمر، وكان يُخيّل إلى "**ألبينوس**" أنهم جميعا- هو و"**إليزابيث**" و"**بول**" والخادم- ينتشرون في البيت كله، بدلا من أن يجتمعوا في مكان واحد ليتيحوا لـ"**مارجوت**" فرصة لتتسلل إلى الخارج.. لو كانت تنوي ذلك حقا!

*****

وأخيرا .. انصرف "**بول**" في حوالي الساعة الحادية عشرة، فذهبت "**فريدا**" واغلقت الباب الخارجي بالمزلاج كالعادة.. ولم يعد في وسع "**مارجوت**" ان تخرج!

وقال "**ألبينوس**" لزوجته وهو يتثاءب في انفعال" إنني نعسان جدا!" .. ثم استولت عليه نوبة تثاؤب فذهبا معا إلى الفراش.. وساد الهدوء البيت. وكانت "**إليزابيث**" على وشك أن تطفئ النور، حين سمعته يقول "نامي أنت، فسأذهب أنا لأقرأ قليلا!". فابتسمت في تكاسل- غير منتبهة إلى تناقض تصرّفاته- وتمتمت قائلة: " لا توقظني حين تعودا".

وكان كلّ شيء يبدو طبيعيا، وكأنما السّكون يرتفع ويرتفع ويكاد أن يطفح ثمّ ينفجر ضاحكا!.. وانسلّ من الفراش بقميص النوم وسار في نعليه الخفيفين دون صوت في الردهة وياللعجب!.. لقد ذهب الخوف كله، وذاب الكابوس واستحال إلى شعور لذيذ بالحرية الكاملة.. وسرت في جسده رعدة وهو يقول في نفسه: "بعد لحظة.. ستكون لي!". وفتح باب غرفة المكتب في حذر، وأشعل النور الخافت، وهمس وهو محموم: " "**مارجوت**"!.. أيتها المجنونة الصغيرة!".

ولكنها لم تكن سوى وسادة من الحرير الأحمر.. قد جاء بها بنفسه إلى هنا- منذ بضعة أيام- ليجلس عليها وهو يبحث في كتاب "تاريخ الفن"، ذي المجلدات العشرة، لـ"**نونيمارشر**"..!

الفصل السابع

أخطرت "**مارجوت**" صاحبة المنزل بأنها توشك أن تغادره قريبا، إذ كان كل شيء يسير سيرا حسنا: فقد تحققت من ثراء عاشقها بعد أن زارت مسكنه، وقد عرفت من الصورة التي رأتها على منضدة فراشه ، أن زوجته لم تكن أبدا كما تصورتها- امرأة ضخمة، متجهّمة الوجه، ذات قبضة من حديد- وإنما كانت تبدو على النقيض: هادئة مسالمة، يمكن أن تزاح عن الطريق بغير عناء كبير.

ولقد أحبّت "**ألبينوس**"، إذ كان مهذبا، حسن التّربية، تفوح منه رائحة البودرة والطّباق الجيد. ولم تكن تأمل -بالطّبع- أن تسترجع سعادة حبها الأول ، إلا أنها لم تشأ أن تسلم نفسها للتّفكير في "**ميللر**"، وفي خديه الغائرين بلونهما الأبيض "الطباشيري" ، وشعره الأغبر المشعث، ويديه الطّويلتين البارعتين.. كان في استطاعة "**ألبينوس**" أن يريحها ويهدئ ما بها من حمّى القلق، كتلك الأوراق النباتيةالمرطبة ، التي تستعمل في تبريد الالتهابات .. وكان ثمّة شيء آخر : لم يكن "**ألبينوس**" غنيا فحسب، وإنما كان يمتّ إلى ذلك العالم الذي يؤدّي بسهولة إلى ارتقاء المسرح والاشتغال بالسينما.. فقد طالما وقفت أمام المرآة تشكّل وجهها في كل صورة غريبة، أو تتقهقر أمام فوهة مسدّس تتصوّره، وكان يبدو لها أن ابتسامتها المغرية تارة، والسّاخرة أخرى، تحكي ابتسامة أية ممثلة من ممثلات السينما.

وبعد بحث طويل مضن، وجدت بضع غرف جميلة في حي من الأحياء الراقية.. وكان "**ألبينوس**" مضطربا - بعد زيارتها له- حتى لقد شعرت بالإشفاق عليه، فلم تثر أيّة صعوبة في قبول الرزمة السمينة من الأوراق الماليّة التي دسّها في حقيبتها أثناء سيرهما في المساء .. ثم تركته - بعد ذلك- يقبلها في ظل سقيفة بالطريق، فظل وهج هذه القبلة يطوف به كأنه هالة مجد عظيم ، حتى إذا عاد إلى بيته ، لم يستطع أن يضع هذه الهالة في البهو- مع قبعته - فلما دخل غرفةالنوم، خيل إليه أن زوجته لن تلبث أن تبصرها! على أنه لم يحدث قط لـ"**إليزابيث**" الهادئة- "**إليزابيث**" التي بلغت الخامسة والثلاثين من

عمرها- أن حلمت بأن زوجها يخونها!.. كانت تعلم أن له مغامرات صغيرة قبل الزواج!
وكانت تذكر أنها هي الأخرى- حين كانت فتاة صغيرة- أحبت في السر ممثلا مسنا اعتاد أن يزور اباها ويضحكها أثناء الغداء بتقليد اصوات الحيوانات ..وكم سمعت وقرأت أن الأزواج والزوجات يخونون بعضهم البعض على الدوام .. فما من شك في أن الفسق كان محور كلام الناس، وخيال الشعراء، والروايات الهزلية والأوبرات الشهيرة..
ولكنها مع ذلك كانت مقتنعة - في يقين ساذج - بأن الرابطة - التي تربطها بزوجها - من نوع خاص، وثمين، وطاهر، ولايمكن انتهاكه!
ولم تكن الأمسيات التي اعتاد زوجها أن يقضيها في الخارج- والتي كان يقول إنه يقضيها مع بعض الفنانين المهتمّين بفكرته- لتسبّب لها أدنى ريبة أو شك.. أما تقلّب مزاجه وفرط انفعاله، فكانت "**إليزابيث**" تعزوه إلى الجوّ المتغير في شهر مايو(أيار) ، فهو في لحظة شديد الحرّ، ثم إذا المطر ينهمر- في اللحظة التّالية- باردا مدرارا، وقد اختلط بحبات البرد التي تقفز على النّوافذ كأنها كرات صغيرة.
وقد حدث مرّة أن قالت له: " هل نذهب في رحلة قصيرة إلى مكان ما، كـ"**التيرول**" مثلا، أو "**روما**" ؟" . فأجابها قائلا: " اذهبي أنت إذا أردت. أما أنا فعندي الكثير من الأعمال يا عزيزتي!" . فقالت: " أوه ، كلا.. إنها مجرد نزوة!" .
ثم ذهبت مع "**إيرما**" إلى حديقة الحيوان لرؤية الفيل المولود حديثا .. وكان يبدو كما لو أنه لم يؤت ذيلا على الإطلاق والشّعر القصير منتثر على ظهره!

*****

ولكن الأمر كان يختلف ، بالنسبة لـ"**بول**" ، فإن حادثة الباب المغلق سبّبت له اضطرابا غريبا.. إن "**ألبينوس**" لم يرفض استدعاء الشّرطة فحسب، وإنّما انزعج فعلا حين عاد "**بول**" إلى الكلام في الموضوع!.. ومن ثم فإن "**بول**" لم يسعه إلا أن يعاود التفكير في الأمر، وراح يحاول أن يتذكّر أي شخص مريب يحتمل ان يكون قد رآه وهو متجه إلى المصعد ، حين وصل إلى البيت.. لقد كان يقظا جدا، حتى ليذكر أنه لمح- وهو يجتاز

الحديقة- قطة تقفز فوق السياج، ورأى تلميذة بثوب أحمر خارجة من المصعد، وسمع أغنية وضحكة مدويّة تنبعث من مسكن البوّاب ، حيث كان الراديو مفتوحا كالعادة.. إذن، فلا بد أن اللصّ خرج حين كان هو في داخل المصعد.. ولكن ما سر ذلك الشّعور المتوجس الذي انتابه؟.. لقد كانت سعادة أخته الزوجية بالنسبة إليه شيئا مقدسا.

وحدث بعد ذلك بأيام ، أن أراد الاتّصال بـ"**ألبينوس**" تليفونيا، فلما أعطته العاملة الخطّ، كان "**ألبينوس**" يتكلم قائلا: " لاتسأليني، وإنّما اشتري ما تشائين!" . فأجابه صوت نسائي قائلا: " ولكن ألا ترى يا "**ألبينوس**"..؟".. وعندئذ ألقى "**بول**" المسماع بيد مرتجفة، وكأنه كان يمسك حيّة سامّة.

وفي ذلك المساء- حين جلس "**بول**" مع أخته وزوجها- لم يستطع أن يفكّر في أي شيء أو أن يقول شيئا ، وإنما جلس قلقا متململا ، وهو ما يفتأ يحكّ ذقنه ، ويعقد قدميه المكتنزتين- إحداهما فوق الأخرى- ثم يعيدهما إلى وضعهما الأول .. وينظر في ساعته ، ثم يضعها في جيب صديريته..

لقد كان من تلك المخلوقات الحسّاسة التي تحمرّ خجلا، إذا ارتكب شخص آخر أي خطأ!

ولكن أيمكن لهذا الرّجل الذي يحبّه ويحترمه أن يخون "**إليزابيث**"؟.. كلاّ، كلاّ.. هذا غير صحيح ، بل إنه سوء فهم أحمق.. وظلّت هذه الأفكار تتردّد في رأسه وهو ينظر إلى "**ألبينوس**"،الذي كان يقرأ كتابا ، و"يتنحنح" من حين لآخر، ويفصل- في عناية شديدة-صفحات الكتاب بمشرط من العاج، ووجهه يفيض بالبشر والصّفاء.. وراح "**بول**" يقول في نفسه: " مستحيل .. إن ذلك الباب المغلق لا يدلّ على شيء ، وتلك الكلمات التي سمعتها مجرد كلمات بريئة من غير شكّ.. كيف يمكن لإنسان أن يخون "**إليزابيث**"؟" .

وكانت "**إليزابيث**" منزوية في ركن الأريكة تحكي بالتفصيل- وفي تؤدة- مسرحيّة رأتها،والإخلاص يشعّ من عينيها الصّافيتين، وحبات النّمش الخفيف تحف بهما، وأنفها يعبر عن الرقة والحنان.. وراح "بول" يرقبها، وما لبث أن هز رأسه وابتسم.. ثمّ فجأة- ولمدة ثانية واحدة فقط- لمح عيني "**ألبينوس**" تتاملانه من فوق الكتاب الذي يقرأه!

الفصل الثامن

وكانت "**مارجوت**" قد استأجرت المسكن وراحت تشتري بعض الحاجات المنزلية، مبتدئة بثلاجة "فريجيدير" ومع أن "**ألبينوس**" كان يدفع بسخاء- بل بسرور- فإنه لم ير المسكن، ولا عرف عنوانه، فقد قالت له إنها تريد أن تفاجئه به حين يكتمل إعداده.

ومرّ أسبوع .. وكان يعتقد أنها ستكلمه تليفونيًا في يوم السّبت، فظلّ طوال اليوم جالسا إلى جانب "التليفون"، إلا أن الآلة ظلت صامتة.. حتى إذا جاء يوم الأحد، أيقن أنها خدعته واختفت إلى الأبد!.. وفي المساء جاء "**بول**"، وكانت زياراته قد أصبحت -منذ ذلك الحين- جحيما لكليهما.. ومما زاد الأمر سوءا أن "**إليزابيث**" لم تكن بالبيت عند وصوله.

وجلس "**بول**" في غرفة المكتب مواجها لـ"**ألبينوس**" وراح يدخن، ويتطلّع إلى طرف سيجارته.. وكان قد بدا- في المدّة الأخيرة- أكثر نحولا، فقال "**ألبينوس**" لنفسه في كمد: " إنه يعلم كل شيء.. ليكن!.. وماذا لو كان يعلم؟..إنه رجل، وسيفهم ..!

ودخلت "**إيرما**" تخبّ، فأشرق وجه "**بول**"، وأخذها على ركبتيه، وند عنه صوت مضحك، إذ وخزته بقبضتها الصغيرة في بطنه، وهي تستريح في جلستها.. وما لبثت أن عادت "**إليزابيث**" من حفلة كانت بها .. وحان وقت العشاء، ثمّ المساء الذي بدا لـ"**ألبينوس**" أطول مما يستطيع أن يحتمله، فقال إنه لن يتعشى بالبيت. ولم تغضب زوجته، بل سألته في رقة، كيف لم يقل ذلك من قبل.

وكانت تتملّكه رغبة واحدة فقط، هي أن يعثر على "**مارجوت**" في الحال، مهما يكلّفه ذلك.. فإن حظّه الذي أجزل له الوعود من قبل، لاينبغي أن يخدعه الآن.. وقد كان يائسا لدرجة أنه قرر أن يقوم بمغامرة جريئة: فقد كان يعلم أين غرفتها القديمة، التي كانت تعيش فيها مع خالتها..

فذهب إلى هناك. وإذ دلف إلى الفناء الخلفي، رأى خادما صغيرة تجلس في نافذة مفتوحة بالطّابق الأرضي، فسألها عن "**مارجوت**" .. وأجابت الفتاة: " **فراولين**

بيترز"؟!.. اعتقد أنها انتقلت من هنا.. ولكن الأفضل أن تتحقّق بنفسك .. الطّابق الخامس ، الباب الذي إلى اليسار".

وفتحت له الباب امرأة قذرة ذات عينين بلون الدّم، فسألته عما يريد– خلال فُرجة صغيرة في الباب ، دون أن ترفع المزلاج– فقال: " أريد أن أعرف العنوان الجديد لـ"**فراولين بيترز**" .. لقد كانت تعيش هنا مع خالتها".

وإذ ذاك قالت المرأة باهتمام مفاجئ: " أوه.. حقّا؟".

ثم رفعت المزلاج وقادته إلى بهو صغير، كان كل شيء فيه يهتز ويقعقع لأنفه حركة. وكانت تضع– على مفرش من النّسيج الأمريكي ذي دوائر حمراء – طبقا به بطاطس مدهوكة، وقبضة من الملح في كيس ممزّق من الورق وثلاث زجاجات بيرة فارغة..

ودعته للجلوس بابتسامة غامضة، وقالت له وهي تغمز بعينها: "لو أنّني كنت خالتها، لما قدر لي أن أعرف عنوانها ". ثم أردفت في حدة ظاهرة : " كلا .. فلا خالة لها!".

فقال "**ألبينوس**" لنفسه في ضجر: " إنها سكرانة!". ثم قال للمرأة: " اسمعي.. أيمكنك أن تخبريني أين ذهبت؟".

فاجابت في تخاذل: "لقد كانت تستاجر غرفة منّي." وكانت بينذاك تفكّر بحسرة في عقوق "**مارجوت**"، إذ أخفت عنها خبر الصديق الغني ، كما أخفت عنوانها الجديد، وإن لم يتعذر عليها التوصل إلى معرفة هذا العنوان.

فقال "**ألبينوس**" : " ماذا افعل ؟.. ألا يمكنك أن تقترحي شيئا؟؛.. بيد أن المرأة كانت شاردة في تفكيرها : نعم إنه لنكران للجميل ، فقد طالما ساعدت "**مارجوت**"، وهي الآن لاتدري هل تكون– إذا أخبرته– قد صنعت معها جميلا أو تكون قد صنعت العكس!.. وكانت تفضل الفرض الثاني، لاسيّما أن الرّجل الوجيه ، المرهف الإحساس الأزرق العينين ، كان يبدو حزينا جدا، حتّى إنها لم تتمالك نفسها من أن تطلعه على بغيته وهي تتأوه. وشيعته، إلى الباب ، وهي تهز رأسها وتغمغم قائلة: " لقد كان من دأبهم أن يسعوا ورائي أنا كذلك، في الأيام الغابرة .. نعم، هذا ما كان يفعله الرّجال!"

وكانت الساعة قد بلغت السّابعة والنّصف، وقد اضيئت الأنوار ، فإذا وهجها البرتقاليّ النّاعم يبدو غاية في البهاء على صفحة الغسق الشاحب، والسّماء لاتزال صافية الزرقة، لايعكر صفاءها غير سحابة واحدة فضّية اللون تبدو على البعد، بيد ان هذا التداخل بين النّور والظّلمة اصاب "**ألبينوس**" بالدوار.

وقال في نفسه والسيّارة تسرع به: " بعد لحظة ساكون في الفردوس!" .. وكانت ثمّة ثلاث شجرات باسقة من شجر الحور، مصطفة أمام المنزل الكبير المشيّد بالقرميد الأحمر، الذي تسكنه ، وعلى الباب لوحة نحاسيّة جديدة تحمل اسمها.. وبرزت له أنثى ضخمة الجسم ذات ذراعين ككتلتين من اللحم، ثم استدارت لتعلن سيدتها بحضوره، فقال في نفسه وهو جذل: " سرعان ما جاءت بطباخة!" .

وبعد هنيهة ، عادت المرأة فقالت له: " تفضل بالدخول!" .

فسوى شعره المتطاير ودخل .

وكانت "**مارجوت**" مستلقية –في عباءة يابانية– على أريكة مكسوة بنسيج صارخ الألوان، وذراعاها معقودتان خلف رأسها ، وعلى بطنها كتاب مقلوب. فما إن أبصرته حتى قالت بصوت متكسّر، وهي تمدّ إليه يدها: " أسرعان ما جئت؟!" .. وغمغم في رقة قائلا: " لماذا؟ كأنّك غير مندهشة لرؤيتي .. فهل تعلمين كيف عرفت عنوانك؟" .. فقالت وهي تتأوه وترفع مرفقيها مرة أخرى: " لقد كتبت لك عنواني" .

بيد أن "**ألبينوس**" استمر دون ان يفطن لكلماتها، وهو يحدق في شفتيها المزمومتين، قائلا: " لقد كان شيئا مسليا.. لاسيما وانت ترهبينني بخالتك تلك التي اخترعتها اختراعا! " .

فغضبت "**مارجوت**" فجاة وقالت له: " لماذا ذهبت إلى هناك؟.. لقد كتبت لك عنواني ، في الرّكن الأيمن.. إنه واضح جدا" .. ففغر "**ألبينوس**" فاه حيرة، وهو يكرر قولها متسائلا: " في الرّكن الأيمن؟.. واضح جدا؟.. عمّ تتحدّثين؟" .

واغلقت الكتاب بضربة من يدها، وجلست على الأريكة قائلة: " الم تتلق خطابي؟" . فسالها "**ألبينوس**" قائلا:

" اي خطاب ؟" .. ثمّ وضع فجاة يده على فمه، وفتح عينيه إلى أقصاهما.. بينما قالت وهي تستلقي مرة أخرى، ،وتنظر إليه في عجب: " لقد أرسلت إليك خطابا هذا الصباح.. وقد قدرت أن يصلك في بريد المساء، فتأتي إلى هنا مباشرة ا" .

وصاح "ألبينوس" : " هل فعلت ذلك؟" . فقالت:

" بالطبع فعلت ذلك، واستطيع أن أذكر لك بالضبط ما كتبته .. فقد قلت: " حبيبي "ألبير" : إن العشّ الصّغير قد تم إعداده ، والطائر ينتظرك .. ولكنّي أرجوك لاتضمني ضما شديدا، وإلا أدرت رأس صغيرتك أكثر من أي وقت مضى" .

.. هذا كلّ شيءا" .

فهمس بصوت مختنق قائلا: " "مارجوت" ، ماذا فعلت ؟.. لقد غادرت المنزل قبل أن أتسلّمه ، فإن عامل البريد لاياتي إلا في الثّامنة إلا ربعا.. إنه الآن.." . ولكنّها قاطعته قائلة: " حسنا. إنّها ليست غلطتي ، فمن الصعب ارضاؤك.. لقد كان خطابا ظريفا!" . وهزت كتفيها، والتقطت الكتاب ، وأدارت له ظهرها ، فلمح على الصفحة اليمنى صورة لـ"جريتا جاربو" ..

*****

وبلغت الساعة الثامنة إلا عشر دقائق، و"مارجوت" راقدة هناك، وجسدها منحن بلاحراك .. فانفجر صائحا بأعلى صوته: " لقد تركتك تثرثرين.." . ولكنّه لم يتمّ جملته، وخرج يجري مندفعا إلى السّلم، ثمّ قفز إلى سيّارة، وجلس على طرف المقعد منحنيا إلى الأمام، وراح يحدّق في ظهر السّائق.. إلا أن هذا الظّهر لم يكن يوحي بأي أمل!

وإذ بلغ داره ، قفز من السّيارة، ودفع الأجر في عجلة، كما يفعلون في الأفلام ، وعند سياج الحديقة، رأى عامل البريد الهزيل الجسم، المقوّس الساقين- الذي اعتاد رؤيته- يتكلّم مع البوّاب القصير البدين، فتقدّم "ألبينوس" منه.

وسأله لاهثا: " أليس لي خطابات؟" . فأجاب العامل بابتسامة ودية قائلا: " لقد

سلمتها لتوي، ياسيدي!".

وتطلع "**ألبينوس**" إلى أعلى ، فإذا نوافذ مسكنه مضاءة كلها، على غير العادة. ودخل المنزل.. وبجهد عظيم بدا يصعد السلم ، وهو يحدث نفسه بما ينبغي أن يقوله لزوجته: " دعيني اوضح لك الامر.. إنها فنانة صغيرة تحتاج .."، وأمسك ، ثم استطرد يناقش نفسه:

" ولكن، غير معقول .. فهل تكتب خطابات غرام إلى الغرباء؟!..

هراء ، لقد انتهى كل شيء!".

وقبل ان يصل إلى باب مسكنه، استدار فجاة ، واندفع ينزل السّلم ثانية.. وعندئذ قفزت قطة في ممشى الحديقة وانسلت بخفة بين قضبان السياج الحديدية.

وبعد عشر دقائق، كان يدلف مرة أخرى إلى تلك الغرفة التي دخلها- من قبل- ممتلئ الجوانح بالغبطة والمرح.. وكانت "**مارجوت**" لاتزال مستلقية على الفراش، في ذات الوضع ، والكتاب لايزال مفتوحا عند ذات الصّفحة فجلس بالقرب منها، وراح يضغط مفاصل أصابعه فتحدث صوتا ، فقالت له "**مارجوت**" دون أن ترفع راسها : " لاتفعل ذلك!". وتوقف هنيهة ، ثم ما لبث أن عاد إلى تلك الفعلة، فقالت له: " حسنا.. هل وصل الخطاب؟".

وأجاب ، وهو لايكاد يستطيع ان يخرج الكلمات: " آه يا "**مارجوت**" .. لقد تأخر جدا، تأخر جدا..". ثمّ انفجر يبكي بصوت مرتفع.. وما لبث أن وقف وراح يجيء ويذهب في الغرفة .. وأخيرا جلس مرّة أخرى، وهو يقول:"إن زوجتي تقرأ كل خطاباتي".. فقالت له:" كان خليقا بك أن تمنعها من ذلك!".

فقال :" إنك يا "**مارجوت**" لاتفهمين .. لقد كان الأمر على الدّوام هكذا .. كانت عادة .. سعادة!.. كانت زوجتي تفض الخطابات احيانا، قبل أن أقرأها .. وقد كانت خطابات مسلّية ، من كلّ صنف .. كيف أمكنك أن تفعلي هذا؟.. إنني لااستطيع أن أتصوّر ما ستفعل الآن!..

ليت معجزة تكون قد حدثت هذه المرّة فقط، كان تكون هي مشغولة بشيء ..

ولكن، كلا.. كلا!".

فقالت له:" حسنا.. أرجوك ألا تظهر إذا جاءت وسأقابلها وحدي في البهو". فقال في ذهول :" متى؟. متى؟". وتذكّر في هذه اللحظة العجوز السّكرانة التي رآها منذ فترة.. كأنما مرّت أجيال منذ رآها!

وقالت "**مارجوت**" :" متى؟!.. في اية لحظة على ما أعتقد.. إنها أصبحت تعرف عنواني، أليس كذلك؟". ولكنّ عقل "**ألبينوس**" ظل جامدا لايفهم.. ثم صاح أخيرا:" أوه.. هل هذا ما تعنينه؟..يالك من حمقاء يا "**مارجوت**".. صدّقيني إن هذا مستحيل.. قد يحدث اي شيء آخر إلا.. هذا!".

فقالت "**مارجوت**" في نفسها :" هذا أفضل كثيرا". وشعرت فجاة بفرح عظيم.. فقد كانت – حين أرسلت الخطاب– تتوقّع نتيجة أتفه من هذه بكثير.. كانت تتوقع أن يرفض "**ألبينوس**" ان يسمح لزوجته برؤية الخطاب، فتغضب وتضرب الأرض بقدمها، وتروح في نوبة عصبيّة.. ثم يبدأ الشك يعبث بها، فيكون في ذلك تمهيد للطريق.. أما الآن فقد خدمها الحظّ، وفتحت الطّريق بخبطة واحدة..

وتركت الكتاب يسقط على الأرض، وابتسمت وهي تنظر إلى وجهه المنكّس، المختلج العضلات، وقالت في نفسها:" لقد جاء وقت العمل!". ثم تمدّدت على الفراش، وهي موقنة من فتنة جسدها الرّشيق، وقالت له وهي تنظر إلى السّقف:" تعال بجانبي!". فجلس على حافة الفراش وراح يهزّ راسه في قنوط،فقالت له وهي تغمض عينيها:"قبلني.. ولسوف تجد الرّاحة بين أحضاني!"

الفصل التاسع

في ذلك الصّباح من شهر مايو(أيار) كان عمّال "برلين" - ذوو القبعات البيضاء- ينظفون الشّوارع، والعصافير تشقشق فوق عساليج اللبلاب، وعربات اللبن تنطلق ، والشّمس تتالق في نافذة علوية على منحدر سقف مغطّى بالقرميد الأخضر، وهدوء الصباح الجديد لم يالف بعد صخب حركة المرور، فهو يحوم حولها في رقّة- كأنّه شيء هشّ ثمين- وقد تفتّحت في الحدائق زهور البنفسج، والفراشات البيضاء ترفرف – برغم رجفة الفجر- وتهوم ، كأنها في حقول الرّيف.

كل هذا اكتنف "ألبينوس" وهو خارج من المنزل الذي قضى فيه ليلته.. كان يحسّ بتعب ثقيل ، وكان جائعا، لم يحلق ذقنه بعد، ولم يستحم .. وملمس قميص الأمس على جلده يثيره ويحنقه!.. كان منهكا تماما . ولاعجب، فتلك هي الليلة التي كان يحلم بها منذ سنين.. إن الطّريقة التي قوست بها كتفيها وتاوّهت- حين طبع أول قبلة على جيدها النّاعم- أنباته بأنه سيحصل على ما كان يريده تماما .. وما أراده كان شيئا غير برودة الطهر والبراءة!.. وقد تحقّق له كلّ ما كان يحلم به في تخيلاته الداعرة..

أما الحبّ البريء ، وأما التحفّظ المتعالي، فلم يكن معروفا في ذلك العالم الجديد الطّليق.. ولقد كانت في عُريها طبيعية، كأنها معتادة – منذ زمان طويل – أن تجري على شاطئ أحلامه. بيد أنها ما لبثت أن نعست فجاة، فبسط عليها الغطاء ، وقبّل شعرها الفاحم المنتشر.. وفي الفجر ، كتب ورقة تركها لها على المنضدة، ثم خرج في هدوء.

والآن ، وهو يسير في ضوء الصبّاح الوادع ، أدرك أن وقت الحساب قد حان!.. وإذ أبصر – من جديد- ذلك البيت الذي عاش فيه طويلا مع "إليزابيث" .. وإذ ارتفع به المصعد الذي ضمّ – منذ ثماني سنوات- طفلته وليدة بين ذراعي مربّيتها، وزوجته وقد بدت شاحبة جدا- إثر الوضع- وسعيدة جدا.. وإذ وقف أمام ذلك الباب الذي كان يحمل اسمه في لوحة لامعة ، توحي بالاحترام، أحسّ بأنّه على استعداد لأن ينبذ كل ذكرى لليلة الماضية ، لو أن معجزة حدثت!.. كان واثقا من أن بوسعه أن يبرّر غيابه

بطريقة ما، إذا كانت "**إليزابيث**" لم تقرأ الخطاب.. كان يقول لها إنه حاول مازحا أن يدخّن الأفيون في بيت ذلك الفنّان اليابانيّ الذي جاء مرّة للغداء.. كان عذرا معقولا!

ووجد ان عليه أن يفتح الباب، وأن يدخل ، ويرى.. ولكن ما عساه مبصرا؟.. أليس الأفضل الا يدخل على الإطلاق؟.. أن يترك كل شيء ، وان يذهب .. ان يختفي؟

إلا انه تذكّر فجأة كيف انه – خلال الحرب– وطّن نفسه على الا يستسلم أو ييأس من النّجاة، ففتح الباب. وفي البهو، وقف بلا حراك يرهف أذنيه.. ولكن، لاصوت .. كان البيت عادة– في مثل هذا الوقت من الصّباح– يمتلئ بالأصوات .. فثمّة خرير الماء يرتفع من مكان ما . والمربية تتحدّث مع "إيرما" بصوت مرتفع، والخادم تحدث جلبة في غرفة النّوم.. أما الآن ، فلم يكن ثمّة صوت .. وفي ركن من البهو، كانت تنتصب مظلة "**إليزابيث**".. وحاول ان يتلمس بعض الأمل في هذا، إلا انه ما لبث – وهو واقف هناك– أن رأى "**فريدا**" تخرج من الداخل.. ونظرت إليه. ثمّ قالت في شقاء :" أوه ياسيدي!..

لقد ذهبوا جميعا في الليلة الماضية".

وقال "**ألبينوس**" دون أن ينظر إليها :" إلى أين؟".

ومضت تروي له كل شيء.. كانت تتكلّم بسرعة ، وبصوت مرتفع– على غير عادتها– ثم انفجرت باكية وهي تتناول منه قبّعته وعصاته، وقالت له وهي تنشج:" هل آتيك ببعض القهوة؟".

وكان الاضطراب– في حجرة النّوم– ينبئ بكل شيء :

فأثواب زوجته ملقاة على السّرير ، وأحد أدراج خزانة الثياب مفتوح عن آخره ، وقد اختفت صورة المرحوم حميه من فوق المنضدة ، وانقلب طرف البساط فسواه "**ألبينوس**" ،ومشى ببطء إلى غرفة المكتب، وهنالك كانت بعض الخطابات مفتوحة وملقاة على المكتب، و.. آه ، ها هو ذا الخطاب، فيا له من خطّ أطفال ، وكم من خطأ في الهجاء!.. وهذه دعوة للغداء من "**درايزر**".. وهذا خطاب قصير من "**ريكس**". وفاتورة من طبيب الأسنان..

وبعد ساعتين ظهر "**بـول**"، وقد بدا أنه كان مضطرباوهو يحلق ذقنه ، فثمّة شريط أســود- على شكل صليب- الصق على خــدّه المكتنز.. وقــال وهو يمر بجــانب "**ألبينوس**" :

" جئت لآخذ الأشياء !؟.. فتبعه في سكون .. وكانت قطع من النقود تصلصل في جيب سرواله، وراح "**بـول**"و"**فـريدا**" يحزمان الحقيبة في سرعة ، كأنهما متعجّلان للحاق بقطار..

وغمغم "**ألبـينوس**" قائلا:" لاتنس المظّلة!" . ثمّ تبعه إلى غرفة الأطفال ، وتكرر حزم الأمتعة .. هناك. وكانت ثمة حقيبة سفر ممتلئة في غرفة المربية، أخذها"**بول**" كذلك.

وتنحنح "**ألبينوس**"، ثم قال متلعثما:" "**بـول**".. أتسمح لي بكلمة؟".. ثم اتّجه إلى غرفة المكتب، فدخل "**بول**" خلفه، ووقف في النّافذة.

وقال "**ألبـينوس**" :" هذه ماساة!"، فقاطعه "**بـول**" قائلا وهو ينظر خارج النّافذة:" دعني أقل لك شيئا واحدا.. لسوف يكون من حسن الحظّ للغاية ، لو أن "**إليـزابيث**" نجت من هذه الصّدمة .. إنها .." وأمسك والصليب الأسود يرتفع وينخفض على خده، ثم أردف قائلا: "إنها أصبحت تشبه امراة ميّتة .. هذا هو الواقع .. وأنت- في الحق- نذل ياسيدي !.. إنك في غاية النّذالة!".. فقال "**ألبـينوس**"، وهو يحاول أن يبتسم:" ألا تراك قد خرجت عن طورك؟".

فصـاح "**بـول**" وهو ينظر إلى زوج أخته لأول مرة:" إنه لشيء فظيع!.. من أين التقطتها، هذه العاهرة؟.. وكيف جرؤت على أن تكتب إليك؟".

قال "**ألبـينوس**" وهو يلعق شفتيه:" على رسلك.. على رسلك!".. فقال "**بـول**" بصوت أكثر ارتفاعا: "لسوف أدقّ عنقك .. إنني لأستحق الشّنق إن لم أدقّ عنقك!".

فغمغم "**ألبينوس**" قائلا:" تذكر "**فريدا**".. إن في إمكانها أن تسمع كل كلمة!".

فقال "**بول**" :" هل تعطيني تبريرا؟"

وحـاول أن يمسك "**ألبـينوس**" من طية سترته ، ولكن هذا لطمه على يده وهو

يحدجه بنظرة قاسية، قائلا: " إنني أرفض أن تستجوبني.. إن هذا كلّه مؤلم للغاية..

أليس بوسعك أن تعتقد أنه سوء تفاهم فظيع؟ افرض.. " .

فقال "**بول**" مزمجرا، وهو يضرب الأرض بمقعد : " أنت تكذب أيها الوغد.. فقد كنت لتوّي عندها .،. تلك العاهرة الصّغيرة ، التي كان الأخلق بها أن توضع في إصلاحيّة..

إنني اعرف أنك تكذب أيها الوغد.. كيف أمكنك أن تفعل هذا؟.. إنه ليس مجرد خطيئة .. إنه.. "

فقاطعه "**ألبينوس**" قائلا بصوت خافت: " كفى! " .

ومرت عربة في الشارع، فقعقع زجاج النافذة قعقعة خفيفة.

وما لبث "**بول**" أن قال بهدوء غير متوقّع ، ونغمة حزينة: " أوه، يا "**ألبير**" .. من الذي كان يظنّ ان هذا حدث؟" .

وخرج .. وكانت "**فريدا**" تبكي في الداخل.. وحمل شخص ما الأمتعة إلى الخارج، ثم ساد السّكون!

الفصل العاشر

وفي ذلك المساء حزم "**ألبينوس**" حقيبة ملابسه، وانتقل إلى مسكن "**مارجوت**". وما كان من السّهل إقناع "**فريدا**" بالبقاء في البيت الخالي، لولا أن اقترح عليها ان يأتي فتاها الذي تحبه– وهو "**جاويش**" بالشّرطة– فيشغل غرفة المربّية.. وأوصاها "**ألبينوس**" بان تجيب كلّ من يسال عنه تليفونيا، بانّه قد سافر فجاة إلى "**إيطاليا**" مع أسرته.

واستقبلته "**مارجوت**" ببرود، فقد أثارها – في الصباح– رجل بدين مهتاج، كان يبحث عن زوج أخته، وقد سبّها، وإن كانت الطباخة السليطة قد خلّصتها منه.. وما كان هذا الرجل سوى "**بول**" طبعا!

ونظرت "**مارجوت**" إلى حقيبة "**ألبينوس**"، قائلة له: " إن هذه الشقّة مخصّصة لشخص واحد فقط!". فتمتم "**ألبينوس**" في بؤس قائلا: " أرجوك يا "**مارجوت**"!". ولكنّها استطردت : " ثمّ إن هنالك أشياء كثيرة يجب أن نتكلّم فيها .. فأنا لست مستعدة لأن أسمع إهانات أقربائك السّفهاء!".

.. وراحت تذرع الغرفة في دثارها الحريريّ الأحمر، ويدها اليمنى على زندها الأيسر، وهي تنفخ دخان السّيجارة في عصبيّة ، وشعرها الأسود منسدل على جبينها ، كانها غجريّة .

وبعد تناول الشّاي ، خرجت لشراء "جرامفون".. ولكن لماذا رأت أن تشتريه في هذا اليوم دون غيره من الأيّام؟.. واستلقى "**ألبينوس**" على الأريكة في غرفة الجلوس، وقد هدّه الإرهاق، وأضناه الصّداع، وراح يقول لنفسه: إن شيئا فظيعا مروعا قد وقع. ولكنّني مع ذلك في غاية الهدوء.. وقد أغْمي على "**إليزابيث**" عشر دقائق ، ثمّ راحت تصرخ صراخا ربما كان أفزعني سماعه، ومع ذلك فأنا هادئ تماما .. إنّها مازالت زوجتي وأنا أحبّها، وساقتل نفسي– من غير شكّ– إذا ماتت بسبب غلطتي !.. وإنّني لأعجب كيف فسروا لـ"**إيرما**" ذلك الانتقال المفاجئ إلى مسكن "**بول**"، وكل تلك العجلة وذلك الاضطراب؟.. لقد كانت طريقة مؤلمة تلك التي وصفت بها "**فريدا**" ما حدث ، وهي

تقول : " إن السيدة راحت تصرخ . . إن السّيدة راحت تصرخ! " . .

فيا له من امر عجيب ، لان "**إليزابيث**" لم يسبق ان رفعت صوتها في حياتها قط! "

وفي اليوم التّالي- بينما كانت "**مارجوت**" في الخارج تشتري اسطوانات- كتب لزوجته خطابا طويلا اكد لها فيه- بكل إخلاص ، وإن يكن باسلوب منمّق – أنه ما زال يعزّها كما كان يفعل من قبل، برغم هفوته الصّغيرة ، التي قال إنها مزّقت سعادتهم العائليّة كما تمزّق السّكين في يد مجنون صورة جميلة. واخذ يبكي وينهنه- وهو يرهف أذنيه ليتأكد من ان "**مارجوت**" غير قادمة- ثمّ يواصل الكتابة، والدّمع يهطل من عينيه ، متوسّلا إلى زوجته أن تصفح عنه. ولكن خطابة كان خلوّا من أية إشارة تدلّ على استعداده لهجر عشيقته.

ولم يتلق أي ردّ على خطابه، ومن ثمّ فقد تحقّق من أنّه – إذا شاء الا يقضي على نفسه -يجب ان يمحو ذكرى أسرته من ذهنه ، وأن يستسلم كل الاستسلام لذلك الهيام العنيف – بل الأقرب إلى المرض- الذي تثيره فيه فتنة "**مارجوت**" الخليعة المتهتّكة . وقد كانت هي من جانبها مستعدّة على الدّوام ، لأن تستجيب لمغازلته وشطحات رغبته ، وكان ذلك ينعشها ، إذ كانت لعوبا، لاتبالي بشيء.

فقد أكّد لها الطّبيب- منذ عامين- انها لن تلد أبدا ، وقد كانت تعتبر ذلك فضلا من الله ونعمة!

وعلّمها "**ألبينوس**" ان تستحم كل يوم، بعد ان كانت – قبل ذلك -لاتغسل إلا عنقها ويديها، وأصبحت أظافر يديها وقدميها نظيفة دائما، ومخضّبة بالطّلاء الأحمر اللامع.. وكان ما يفتأ يكتشف مفاتن جديدة فيها، ويلمس اشياء صغيرة، لو كانت في فتاة غيرها لبدت له مرذولة مبتذلة ، كنزقها الذي يشبه نزق الأطفال ، وانعدام حيائها، وتدرج الظّلمة في عينيها ، كأنها أضواء المسرح تطفأ شيئا فشيئا!.. وكانت تثير فيه الخبل والجنون ، حتى لقد انعدم فيه كل أثر للخجل الذي كان يستشعره مع زوجته الرّقيقة المتحفظة.

ولم يعد يغادر المنزل إلا قليلا ، خشية أن يقابله احد معارفه، ولم يكن يسمح

لـ"**مارجوت**" بالخروج- كي تواصل بحثها الذي لاينتهي عن الجوارب الحريرية والملابس الداخليّة- إلا على مضض ، وفي فترات الصباح . وقد كان يدهشه تجرّدها من حبّ الاستطلاع ، إذ لم يحدث أن سألته مرة واحدة عن حياته السّابقة ، وكان يحاول- في بعض الأحيان - ان يسليها بالحديث عن ماضيه، فيكلّمها عن طفولته وعن أمّه- التي لم يكن يتذكرها إلا بغموض - وعن ابيه الطيّب العنصر الذي كان يملك ضيعة في الرّيف ، ويحب كلابه وخيوله، وسندياناته وغلاله، والذّي مات فجاة على أثر نوبة من الضّحك الشّديد، انتابته وهو في حجرة البليـاردو، مع ضيف يقصّ له قصة داعرة.. فقالت "**مارجوت**" "قص لي هذه القصّة!" .. ولكنه كان قد نسيها.

وحدّثها عن شغفه الأول بالرسم، وعن اعماله واكتشافاته، وروى لها كيف أمكنه أن يجدّد اللوحات القديمة بمزيج من الصمغ المسحوق والثوم، وكيف استطاع أن يزيل ما علق من الدّخان بالصّور المرسومة على الخشب بخرقة مبلّلة بالتربنتين، فعاد إليها بهاؤها الأول من جديد. بيد ان اكثر ما كانت تهتمّ له "**مارجوت**" هو السؤال عن ثمن هذه الصور في السّوق..

وحدّثها عن الحرب، والوحل البارد في الخنادق ، فسألته لماذا- وهو الغني - لم يضع نفسه في وظيفة وراء خطوط القتال؟.. فصاح وهو يناغيها قائلا: "يالك من معبودة ساذجة!".

إلا أنّها بدأت تستشعر الضّجر في الامسيات ، وتتوق إلى دور السّينما ، والمطاعم الأنيقة، وموسيقى الزّنوج الصّاخبة، فقال لها: "سيكون لك كل شيء .. كل شيء!

.. دعيني أسترح أولا، فإن في رأسي انواعا من المشروعات .. ولسوف نذهب قريبا إلى شاطئ البحر".

وكان يجيل بصره في بهو مسكنها، ويعجب من نفسه، كيف استطاع - وهو الذي كان يفخر بأنّه لايطيق أيّ شيء سقيم الذوق- أن يحتمل هذا المكان البشع.. بيد أنه كان لايلبث أن يقول في نفسه إن شغفه بها وهيامه بحبّها يضفي على كلّ شيء غلالة من البهجة والبهاء!.. وقال لها ذات يوم: "لقد اندمجنا حقا أروع اندماج.. أليس

كذلك ياحبيبتي؟". فوافقته راضية .. وإن كانت قد أيقنت ان هذا كله ليس إلا مؤقتا، فإن ذكرى مسكنه الفاخر ظلت لاصقة بخيالها.. إلا انه لم يكن ثمة داع - بالطبع- للعجلة!

*****

وفي ذات يوم من أيام يوليو (تموز) كانت "**مارجوت**" عائدة من عند الخيّاطة، سائرة على قدميها.. حتّى إذا غدت بالقرب من المنزل، شعرت بشخص ما ينهشها من الخلف - فوق مرفقها- فاستدارت ، وإذا هو أخوها "**أوتو**" يضحك ضحكة مقيتة، وقد وقف بالقرب منه اثنان من أصدقائه يضحكان ضحكات مقيتة كذلك .. وقال لها: " كم أنا سعيد برؤيتك يا أختي.. ليس جميلا منك أن تنسي ذويك!".

فقالت "**مارجوت**" ببطء، وهي تُرخي اهدابها: " دعني وشأني!"

وعقد "**أوتو**" ذراعيه، وقال وهو يجيل فيها بصره من الفرع إلى القدم: " كم تبدين جميلة .. حقا إنك لتشبهين تمام الشّبه سيّدة صغيرة!". فاستدارت "**مارجوت**" وواصلت سيرها ، ولكنّه امسك ذراعها مرة أخرى ، فندت عنها من الألم آهة مستطيلة واهنة- كتلك التي كانت تصدر عنها وهي طفلة -بينما قال "**أوتو**" اسمعي!.. هذا هو اليوم الثالث منذ بدأت أراقبك، وانا أعرف أين تسكنين.. ولكن يحسن أن نبتعد قليلا!".

فهمست "**مارجوت**" وهي تحاول ان تفلت من قبضته: " دعني وشأني!". وعندئذ توقف أحد المارة، وقد توقّع نشوب معركة .. وكان منزلها قريبا جدا، ومن المحتمل ان يطلّ "**ألبينوس**" من النّافذة ، فيحدث ما لاتحمد عقباه.. لذلك استسلمت لعنف أخيها ، واسلست له قيادها وهو يسحبها إلى ركن الشّارع، وقد تبعهما الآخران، "**كاسبار**" و"**كيرك**"، وهما يغمزان باعينهما ويطوّحان باذرعهما !

وسألته ، وهي تنظر في اشمئزاز إلى قبّعته الملطّخة بالشّحم ، وقد وضع سيجارة خلف أذنه : " ماذا تريد؟".

فأومأ برأسه إلى ناحية وقال: " هيا نذهب إلى الحانة التي هناك! ".

وصاحت "**مارجوت**": " كلا ". ولكن الرجلين الآخرين اقتربا منها جدا وراحا يزمجران وهما يدفعانها ناحية الباب، فتملكها الخوف.. وكان بالداخل بضعة رجال يتحدّثون عن الانتخابات القادمة في جلبة وصخب، فقال "**أوتو**": لنجلس هنا.. في هذا الرّكن! ".

وجلسوا .. وتذكرت "**مارجوت**" بجلاء– وبشيء من الدّهشة– كيف كان من عادتهم جميعا ان يخرجوا في رحلات مرحة إلى الضّواحي.. هي و"**أوتو**" وهذان الشّابان اللذان لوحتهما الشّمس، واللذان علمّاها السباحة وكانا يتحسّسان فخذيها العاريتين تحت الماء،وكان لـ"**كيرك**" وشم على صورة هلب على ساعده، ووشم آخر على صورة تنين على صدره.

وكانوا يستلقون على الشّاطئ،ويرمي كل منهم الآخر بالرمل النّاعم المبتلّ .. حتّى إذا استلقت هي، راحوا يضربونها على عجزها !.. لكم كان جميلا وبهيجا كل شيء : فثمّة الجماعات المرحة، ووسائد القش منتثرة في كل مكان، و"**كاسبار**" ذو العضلات القوية والشّعر الأشقر يهزّ ذراعيه على حافة البحيرة ويصخب ..وكان عندما يسبح، يضع فمه تحت الماء،ويصرخ كعجل البحر.. حتى إذا خرج، كان أول ما يفعله أن يمشّط شعره إلى الخلف،ويضع قبّعته بعناية على رأسه..وتذكرت كيف كانوا يلعبون الكرة، ثم ترقد على الشّاطئ ويغطونها بالرّمال ، فلا يتركون إلا وجهها مكشوفا ، ويضعون صليبا على الحصباء ، فوق القمة!

*****

ووضع السّاقي على المائدة أربع كؤوس من الشراب محاطة بأشرطة ذهبيّة، فقال "**أوتو**" لأخته: " اسمعي!.. لاحاجة بك لأن تخجلي من أهلك لمجرد أنك وقعت على صديق غنيّ .. بل إن عليك – على النقيض– ان تفكّري فينا". وأخذ رشفة من الكاس،وفعل صديقاه مثله ،وكانا يرمقان "**مارجوت**" بنظرات ملؤها الحقد والغرور،

فقالت بازدراء:

"أنت لاتعلم شيئا عما تتحدّث عنه. .إن الأمر يختلف كل الاختلاف عما تظنّ. . فنحن في الحقيقة مخطوبان!".

وانفجر ثلاثتهم ضاحكين، فادارت "**مارجوت**" وجهها بعيدا وقد امتلأت نفورا واشمئزازا. .وتململت في جلستها وهي تغلق حقيبة يدها، فاخذها "**أوتو**" منها وفتحها، فوجد بها علبة بودرة، وبضعة مفاتيح، ومنديلا صغيرا، وثلاث ماركات ونصف، فاخذ هذه الأخيرة قائلا: "هذا يكفي للشّراب"، ثمّ انحنى لـ"**مارجوت**" ووضع الحقيبة أمامها. .

وطلبوا مزيدا من الشّراب، وجرعت "**مارجوت**" كذلك بعضا منها بصعوبة لأنها كانت تكرهها، ولكنها لم تشأ أن ياخذوا نصيبها. . وسالتهم وهي تربت الخصلتين التوأمتين المسدلتين على خديها قائلة: "هل يمكنني أن أذهب الآن؟"

فصاح "**أوتو**" في دهشة ساخرة قائلا: "ماذا؟. . الا تحبين الجلوس مع أخيك وأصدقائه؟. . لشد ما تغيرت ياعزيزتي. . إننا لم نتفق بعد على العمل!". فقالت: "لقد سرقتم نقودي. . وأنا الآن منصرفة!".

وزمجروا جميعا مرة أخرى، فعاودها الخوف، وقال "**أوتو**" في بذاءة: "لاكلام عن السرقة، فهذه ليست نقودك، وإنما أخذتيها انت من شخص أخذها بدوره من عرق جبين الطّبقات الكادحة، فالأفضل الا تتحدّثي عن السّرقة!

إنّك. ." وهنا كبح لسانه ريثما استعاد بعض الهدوء، وقال: "اسمعي. . ينبغي ان تاتي ببعض النّقود من صاحبك لنا. . للعائلة. . ولا باس بخمسين افاهمة أنت؟". فقالت: "وإذا لم افعل؟". وأجاب في تؤدة: "عندئذ سيكون لنا انتقامنا الجميل. . فإنّنا نعرف كلّ شيء عنك!". . ثم قال متهكما: "تقولين إنك مخطوبة؟. . يالها من أكذوبة كبرى!.

وعندئذ أشرق محياها فجأة، وهمست وقد أسدلت أجفانها: "حسنا، سوف اجيء بها، فهل هذا كل شيء؟. . هل يمكنني الآن ان اذهب؟". فقال: "إنك لفتاة طيبة. .

ولكن لماذا العجلة ؟..، ثمّ إننا ينبغي أن نزداد تعارفا بعضنا بالبعض .. فما رأيك في رحلة إلى البحيرة ذات يوم؟". ثم استدار إلى صديقيه قائلا: " اي لهو اعتدنا أن نتمتع به! .. إنها لاينبغي ان تظهر بهذا المظهر، اليس كذلك؟".

ولكن "**مارجوت**" كانت قد انتصبت واقفة وهي تفرغ كاسها ، فقال "**أوتو**" : " صباح الغد، في ذات المكان.. وسوف نذهب فنقضي اليوم كلّه عند البحيرة .. فهل انت موافقة ؟".

فاجابت "**مارجوت**" بمرح: " موافقة!".. ثم صافحتهم جميعا ، وانصرفت.

*****

وعادت إلى البيت . وإذ القى "**ألبينوس**" صحيفته ونهض ليلقاها ترنّحت وتظاهرت بانّها توشك ان يغمى عليها . وكان تمثيلا محضا، ولكن "**ألبينوس**" خدع به، فذعر اشد ذعر .. وأراحها على السّرير ، وجاء لها ببعض الماء ، وراح يمسح على شعرها وهو يردّد: " ماذا جرى؟ أخبريني!".

فقالت "**مارجوت**" متأوّهة: " لابّد انّك ستتركني".

وبهت.. وقفز إلى ذهنه- على الفور- أسوأ افتراض،وهو أنها خانته، فقال لنفسه في التوّ: " حسنا ساقتلها!".

.. ولكنه قال بصوت مرتفع وفي هدوء تام: " ماذا حدث يا "**مارجوت**" ؟".. فهمست قائلة : " لقد خدعتك !".

وقال في نفسه: " يجب ان تموت!".. بينما واصلت هي كلامها قائلة: " لقد خدعتك بصورة فظيعة يا "**ألبير**".. فاوّل كلّ شيء لم يكن ابي فنّانا، وإنما كان عاملا يصلح الأقفال . وهو الآن بوّاب .. وأمّي تنظّف درجات السّلم، واخي عامل بسيط .. وقد كانت طفولتي تعسة ، تعسة .. كانوا يجلدونني ويعذبونني!".

وشعر "**ألبينوس**" براحة لذيذة، ثمّ بفيض من الشفقة..

وقالت هي : " كلا، لاتقبلني.. يجب ان تعرف كلّ شيء .. فقد هربت من البيت ،

واشتغلت نموذجا للفنّانين ، وقد استغلّتني امرأة عجوز بشعة .. ثم وقعت في حبّ رجل، كان متزوجا مثلك، ولم ترد زوجته أن تطلقه ، فلم أتوان عن تركه، لأنّني لم احتمل ان أكون عشيقته فحسب، رغم أنّني كنت مجنونة بحبّه .. ثم لاحقني كهل صاحب مصرف. وعرض علي كلّ ثروته، ولكنّني رفضته طبعا، فمات كسير القلب .. ثم شغلت تلك الوظيفة في دار السّينما " .

وغمغم "ألبينوس" قائلا: " اوه، يا ابنتي الصغيرة المسكينة المظلومة !:. وكان في الواقع قد كفّ منذ زمن بعيد عن اعتقاده أنه حبّها الاول.

ومضت ، وهي تبتسم خلال دموعها - وكان ذلك صعبا ، لأنّه لم تكن ثمّة دموع تبتسم خلالها- قائلة: " ما أشد سروري لأنّك لاتحتقرني ، ولكن دعني الآن اقل لك أخطر ما في الأمر.. فقد عرف أخي اين أعيش.. قابلته اليوم، وطلب منّي نقودا ، وحاول أن يستغلني، لأنه يعتقد أنك لاتعلم شيئا.. أعني عن ماضي حياتي ،. ولذلك فإنني حين رايته ، استشعرت العار في أن يكون لي مثل هذا الأخ، وإذ تذكرت أن حبيبي الجميل الذي يثق بي لافكرة لديه عن اهلي.. خجلت جدا منهم.. استنكرت من نفسي انني لم أقل لك الحقيقة كذلك.. "

ولم يدعها "ألبينوس" تتم كلامها، وإنما أخذها بين ذراعيه، وراح يهدهدها ويؤرجحها يمينا ويسارا ، وكان خليقا ان يغني لها تلك الأغنيات التي يستدرجون بها النوم إلى عيون الاطفال ، لو أنه كان يعرف واحدة منها.. وقال لها وهو يضحك ضحكة ناعمة: " ماذا نفعل؟ لسوف أخاف ان أتركك تخرجين وحدك الآن ، فهل نخطر الشرطة؟؛.

فقالت بتأكيد عجيب :" كلا.. ليس هذا حلا مناسبا! " .

الفصل الحادي عشر

وفي اليوم التّالي ، صحبها "ألبينوس"- لأوّل مرّة- حين خرجت ، وقد طلبت كثيرا من الأثواب الجميلة ولوازم السّباحة ، وارطالا من "الكريم" لتعاون الشّمس على ان تكسبها اللون البرنزي ، وكان "سولفي" - الشّاطئ المطل على البحر الأدرياتيكي- هو الذي اختاره "ألبينوس" لرحلتهما الأولى معا، إذ كان منتجعا (بلاج) مشمسا يخطف الأبصار.. وبينما كانا يستقلان العربة شاهدت أخاها يقف على الجانب الآخر من الطّريق، ولكنّها لم تنبه "ألبينوس" إليه .. وكان ظهور "ألبينوس" مع "مارجوت" يملاه بشعور ممض بعدم، الارتياح، إذ إنه لم يستطع- في الواقع- ان يستسيغ وضعه الجديد .

وعندما عادا- بعد ان ابتاعت "مارجوت" لوازمها - كان "أوتو" قد اختفى ،وكانت هي تعتقد انّه شديد الأذى فعلا، وتتوقع ان يتصرف برعونة وطيش..

وقبل يومين من رحيلهما ، جلس "ألبينوس" في مقعد غير مريح، يكتب خطابا يتعلّق باعماله، بينما راحت "مارجوت" تضع بعض الأشياء في الحقيبة الجديدة السوداء الجميلة، في الغرفة المجاورة .. وكان يسمع خشخشة الورق الشفاف، واغنية خفيفة راحت تدندن بها لنفسها في خفوت وفمها مغلق.. فقال في نفسه:" ما اغرب كل هذا.. فلو كان قد قيل لي في ليلة رأس السّنة ان حياتي ستتغير هكذا تغيرا تاما في بضعة اشهر.."

وهنا أسقطت "مارجوت" شيئا ما في الغرفة المجاورة، فتوقفت عن الدندنة لحظة، ثم ما لبثت ان استانفت. وواصل "ألبينوس" كلامه مع نفسه قائلا:" منذ ستة اشهر كنت زوجا مثاليّا في عالم خال من "مارجوت" .. ولكن سريعا ما دارت عجلة القدر!.. غيري من الرجال يمكنهم الجمع بين الحياة العائلية السّعيدة، وبضع خيانات صغيرة، اما أنا فسرعان ما تحطّم بالنّسبة لي كل شيء.. فلماذا؟.. ها انذا اجلس هنا، ويُخيّل لي انني افكر في وضوح وجلاء، في حين ان الزلزال في أوج عنفوانه .. والله يعلم كيف ستنتهي الأمور.." .

*****

وفجاة، رنّ جرس الباب .. وخرج "**ألبينوس**" ، و"**مارجوت**" والطباخة في وقت واحد، من ثلاث غرف مختلفة، وهمست "**مارجوت**" قائلة: "كن حذرا جدًا يا "**ألبير**"، فإنني متأكّدة من انّه هو. فقال في همس: "اذهبي إلى غرفتك ، وساعرف كيف اتصرف معه".

وفتح الباب.. وإذا القادم عاملة من متجر القبعات.. بيد انها لم تكد تنصرف ، حتّى رن الجرس مرّة أخرى..

ففتح الباب ثانية. ورأى "**ألبينوس**" امامه شابًا ذا وجه ينمّ عن المشاكسة والفظاظة ، وإن حمل بعض الشّبه من "**مارجوت**".

هاتان العينان السوداوان ، وهذا الشعر الناعم، وهذا الأنف المستقيم ذو الثنية الخفيفة عند الطرف.. وكان يرتدي سترة بدا أنه كان يدّخرها للمناسبات، وقد دس نهاية ربطة عنقه بين أزرار قميصه.. وإذ سأله "**ألبينوس**" قائلا:" ماذا تريد؟"، سعل وقال بصوت ذي خشونة غريبة:؛ ينبغي ان اتكلم معك بشان اختي.. انا شقيق "**مارجوت**"ا".

وسأله "**ألبينوس**" :" ولماذا معي انا بالذّات؟" .. وكان جوابه أن تساءل: " هل انت الهر..؟ فقال "**ألبينوس**" "**شيفر ميللر**".. وارتاح إذ تبين أن الفتى لم يكن يعرف شخصيّته .

وقال "**أوتو**" :" حسنا يا هر"**شيفر ميللر**" ، لقد تصادف أن رأيتك مع اختي.. ولذلك حسبت انّه قد يهمّك انّني .. انّنا.." فقاطعه "**ألبينوس**" قائلا:" بالتأكيد.. ولكن لماذا تقف بالباب؟ تفضل بالدخول!".

ودخل الشّاب، وسعل مرة أخرى، ثمّ قال:" إن ما أريد قوله هو هذا يا هر "**شيفر ميللر**" : أختي صغيرة، وعديمة الخبرة، ومنذ ان تركت البيت ، لم تنم امي ليلة واحدة..

إنها لم تتعد السّادسة عشرة كما تعلم، ولاتصدقها إذا قالت لك إنها فوق هذا السنّ.. واسمح لي أن أقول لك إننا قوم محافظون، وأبي جندي قديم.. فها أنتذا ترى

انه وضع في غاية السوء، ولاأدري اي تعويض يمكن ان.. "

وكانت ثقة "**أوتو**" بنفسه قد ازدادت عند هذا الحد، حتى لقد بدا يصدق ما كان يزعمه ، فاسترسل ، وقد ازداد ثورة وهياجا يقول: " لااريد منك إلا ان تتصوّر -يا "**هر شيفر ميللر**"- ان لك اختا محبوبة بريئة، اشتراها شخص ما.. "

فقاطعه "**ألبينوس**" قائلا: " اسمع يا صاحبي .. يبدو ان ثمّة خطأ.. فقد قالت لي خطيبتي إن عائلتها قد سرّت بالتخلّص منها! " . فاختلجت عينا "**أوتو**" ، وقال: "اوه، كلا.. إنك لن تقنعني بأنّك ستتزوجها ،فحين يريد رجل ان يتزوّج من فتاة محترمة ، يتحدّث إلى اسرتها في ذلك..فارجو منك أن تكون أكثر مبالاة ،واقل عجرفة، يا هر "**شيفر ميللر**" .

ونظر "**ألبينوس**" إلى "**أوتو**" في فضول ، وقال في نفسه إن الحيوان الصغير يتكلّم كلاما معقولا من وجهة ما. فإنّ من حقّه ان يعتبر نفسه مسؤولا عن سعادة "**مارجوت**" ، كما كان من حق "**بول**" أن يرعى سعادة أخته، وإن كان - بالتّأكيد- حديث اليوم هو الهزل في صورة الجد، إذا قورن بذلك الحديث القاسي الذي جرى قبل شهرين واستشعر السّرور إذ ادرك ان بوسعه الآن- على الأقل- ان يقف موقفا افضل أمام هذا الفتى ، سواء أكان اخا أو غير اخ، إذ كان يعرف انه نصّاب افّاق.. ومن ثمّ فقد قال له في حدّة وفي برود شديد: "خير لك ان تسكت ، فانا اعرف بالضّبط حقيقة الأمور.. وليس هذا من شانك ، فاذهب الآن من فضلك!"

فسكت ، وراح يدير قبّعته في يده محملقا إلى الأرض..

ثم ما لبث أن جرّب وترا آخر ، فقال : " قد تضطر لان تدفع ثمن ذلك غاليا قبل أن تفطن يا هر"**شيفر ميللر**" ، فإنّ اختي الصغيرة ليست كما تظنّ . لقد وصفتها لك بانها بريئة ولكن هذا لم يكن إلا من قبيل العطف الأخوي.. فيا لك من رجل يسهل ان يقاد من انفه يا هر "**شيفر ميللر**" !

.. ياله من شيء مضحك ان اسمعك تدعوها خطيبتك ، فهذا يحملني على أن اقهقه. والآن هل يمكنني ان اقول لك شيئا او شيئين؟.. فاجاب "**ألبينوس**" محتدّا: "

لالزوم، فقد قالت لي هي كلّ شيء بنفسها، وإنها لطفلة سيئة الحظ، تخلّى اهلها عن حمايتها .. فاذهب من فضلك في الحال!" .

وقام وفتح الباب ، فقال "**أوتـو**" بغلظة: " سوف تندم على هذا" . فأجابه قائلا: " اذهب وإلا طردتك طردا" . ووضع بذلك اللمسة الاخيرة الرّائعة في لوحة النّصر، فقد انسحب "**أوتـو**" ببطء.. وإذ كان موهوبا بذلك النّوع من الحماس السطحي جدّا لجماعته البورجوازية، فقد راح "**ألبـينوس**" يصور لنفسه مقدار البؤس والقبح اللذين لابد أن تكون عليهما حياة هذا الفتى.. وخُيّل إليه انه يشبه "**مارجوت**" حين تعبس وتتجهّم ، فأخرج في خفة – قبل أن يغلق الباب– ورقة من ذات العشرة ماركات ودسّها في يد "**أوتو**" ، ثم اغلق الباب.

وفتح "**أوتـو**" يده وهو على السّلم ونظر إلى الورقة، ثم وقف يفكر هنيهة، وما لبث ان عاد ورن الجرس ، فقال "**ألبينوس**" : " ماذا ؟.. هل عاد مرة أخرى؟" .. ووجد "**أوتو**" يمد يدّه بالنّقود قائلا وهو يزمجر في غضب :" لااريد عطيتك ، والافضل ان تهبها للمتعطلين .. فسوف تجد الكثيرين منهم في كل مكان" . فقال "**ألبينوس**" ، وقد شعر بارتباك بالغ." ولكن.. خذها من فضلك!" .

وهز "**أوتو**" كتفيه قائلا: " لست اقبل الفتات المتساقط من موائد الأغنياء المتخمين .. إن للرّجل الفقير كبرياءه، وإنني..." فغمغم "**ألبينوس**" : " حسنا.. إنما كنت اعني فقط.."

ولم يجـد "**أوتـو**" بدا من ان يستبقي الورقة– وهو يدمدم وتحوّل فنزل السّلم ، وقد أرضى الشرف الاجتماعي ، وصار من حقّه أن يرضي الحاجات الإنسانيّة.. وقال في نفسه: " إنه ليس بمبلغ كبير ، ولكنه افضل من لاشيء، على اي حال.. لقد كان خائفا مني، ذلك المجنون المتلعثم، ذو العينين الجاحظتين!" .

الفصل الثاني عشر

منذ اللحظة التي قرأت فيها "**إليزابيث**" خطاب "**مارجوت**" القصير، تحولت حياتها إلى مثل تلك الرؤى الفظيعة المروّعة التي يراها الإنسان في أحلامه وهو في عنفوان الحمّى.. وكانت تشعر أوّل الأمر كأنما زوجها قد مات ، وأن النّاس إنما يحاولون أن يخدعوها وأن يوحوا إليها أنّه هجرها .. وراحت تذكر كيف أنّها– في ذلك المساء الذي أصبح يبدو لها بعيدا جدّا– قد طبعت قبلة على جبينه قبل أن يذهب ، فقال لها : " الأفضل أن تذهبي–على أيّة حال– إلى "**لامبرت**" فليس ينبغي أن تظلّ تحكّ جلدها هكذا!!.. "

كانت تلك هي كلماته الأخيرة في هذه الحياة!.. كلمات بسيطة عائليّة ، تتعلّق بطفح جلدي خفيف انتشر على عنق "**إيرما**"، ثم ذهب إلى الأبد!.. ولقد قضى مرهم الزّنك على هذا الطّفح في أيام قليلة، ولكنّ. لم يكن ثمّة مرهم في الدّنيا يمكنه أن يشفيها هي من ذكرى جبينه الكبير النّاصع البياض ، والطّريقة التي ربت بها جيوبه وهو خارج من الغرفة!

ولقد بكت في الأيام الأولى ، حتّى انها– هي ذاتها – تولّتها الدّهشة من قدرة عينيها على ذرف الدّموع.. فهل يدري العلماء كم من الماء المالح يمكن أن يفيض من عيني الإنسان .. إن ذلك ليذكرها بما اعتادوه– ذات صيف– على الشّاطئ الإيطاليّ ، إذ كانوا يغسلون جسد الطّفلة في دلو مملوء بماء البحر.. وإنها لقمينة بأن تملأ دلوا أكبر من هذا بسيل من دموعها ، وأن تغرق فيه ماردا جبارا!

وقد كان يبدو لها هجره "**إيرما**"– بصورة ما– أكثر فظاعة من هجره إياها ، وهي زوجته... أتراه سيعمل على سرقة ابنته؟.. فهل من الأحكم إذن أن ترسلها إلى الريف وحدها مع مربيتها ؟.. لقد قال لها "**بول**"إن هذا أحكم وأغراها بأن تذهب معها كذلك. ولكنّها لم تفعل .. فقد كانت تشعر بأنّها لن تستطيع أن تصفح عن زوجها .. لا لأنه أهانها بما فعل – فقد كانت كبرياؤها أعظم من أن تفكر على هذا النّحو – وإنما

لانه اهان نفسه وحقرها.. ومع ذلك فقد ظلت تنتظر، وهي تامل يوما ـ بعد آخر- ان يفتح الباب كهزيم الرّعد في ظلمة الليل، وان يدخل زوجها شاحب الوجه، كانه "**لعازر**" خارجا من القبر، وعيناه الزرقاوان متورّمتان دامعتان ، وثيابه ممزقة مهلهلة ، وذراعاه مبسوطتان !

وكانت تجلس معظم النّهار في إحدى الغرف او في الرّدهة - او في اي مكان تقودها إليه غمامة افكارها السّوداء وتروح وتتمعّن في هذه او تلك من صور حياتها الزوجية الذاهبة.. وكم خيل إليها انه كان- على الدّوام- مخلصا، وقد تذكّرت الآن وفهمت ، كما يفعل الشخص الذي يعرف لغة اجنبيّة حين يتذكر كتابا اشتراه ذات مرة بهذه اللغة قبل ان يتعلمها.. تذكرت تلك البقعة الحمراء- رمز القبلات القرمزية- التي رأتها ذات مرّة لاصقة بمنديل زوجها!

وفعل "**بول**" كل ما في وسعه ليصرفها عن افكارها ، فلم يشر قط إلى زوجها.. وعدل من اجلها عن بعض عاداته المحبوبة ، كقضاء صباح الأحد في الحمّامات التركيّة!..

كان ياتيها على الدّوام بالمجلات والروايات ، ويروح يكلّمها عن طفولتهما ، وعن ابويهما اللذين ماتا من زمن طويل، وذلك الشقيق ذي الشّعر الأشقر الذي قتل في "**السوم**".. ذلك الموسيقي الحالم.

وذات يوم من ايام الصيف القائظة ، ذهبوا يتنزّهون في إحدى الحدائق ، وراحوا يرقبون قردا صغيرا ، هرب من صاحبه وتسلّق شجرة دردار عالية.. وكان وجهه الصّغير الأسود- في قمّة كتلة من الزّغب الرمادي - يلوح بين الأوراق الخضراء . ثمّ ما لبث أن قفز إلى غصن اعلى، فتمايل الغصن وخشخشت أوراقه .. وعبثا حاول صاحب القرد أن يغريه بالنّزول ، وهو يصفّر له بصوت رخيم، ويلوح له بإصبع كبيرة من الموز الأصفر ، ويرسل إليه بريقا من مرآة في يده .

وعندئذ تمتمت "**إليزابيث**" قائلة :" إنه لن يعود .. لافائدة .. إنه لن يعود ابدا!"..
ثم انفجرت باكية.

الفصل الثالث عشر

لاشيء غير الزّرقة العميقة ، كان يحيط بـ"**مارجوت**" وهي مستلقية على الرمال البلاتينيّة ، وجسمها مشرب بالحمرة العسلية، وحزام رفيع من المطاط الأبيض يخفّف من سواد لباس البحر الذي ترتديه، وكأنها لوحة رائعة على شاطئ البحر .. وبجانبها رقد "**ألبينوس**" ، وقد بدت عليه الغبطة التي لانهاية لها، والافتتان بأجفانها المسدلة- وعليها مثل لمعة الزيت- وفمها المخضب لتوّه بالدّهان الأحمر، وشعرها الفاحم المبلّل وقد تهدّل فوق جبينها المستدير ، بينما تلالأت حبّات رمل في أذنيها الصّغيرتين .. حتى إذا تاملتها العين من قرب، بدا لها نور ينبعث بالوان قوس قزح من ذراعيها الورديتي البياض.. وكان ذلك الشيء الأسود الذي في حجم بصمة الإصبع، واللاصق ببدنها - لباس السّباحة- صغيرا جدا حتى كأنّها لم تكن تلبس شيئا..

وتناول "**ألبينوس**" حفنة من الرّمل المبلّل، وجعلها تتسرب من قبضته - كأنها ساعة رملية - فوق بطنها الأملس.. ففتحت عينيها وحدّقت هنيهة في الوهج الأزرق الفضي وابتسمت .. ثم أغمضت عينيها مرة أخرى.. وما لبثت أن جلست منتصبة، وطوت ذراعيها حول ركبتيها ، وظلّت هكذا بلا حراك.. وأصبح بوسع "**ألبينوس**" أن يرى ظهرها عاريا حتى الخصر، وحبّات الرّمل تلمع فوقه، فأزالها بلطف ، وإذا لحمها حريري حار.. وما لبثت "**مارجوت**" أن صاحت قائلة: " ياللسّماء!.. يالزرقة البحر اليوم! " .

كان البحر أزرق حقا ، أزرق أرجوانيا من بعيد، وأزرق ياقوتيّا من قريب وأزرق ماسيا حيث يمتزج الضوء بالموج .. وكان الزبد يقفز ثم يجري ، ثمّ لايلبث أن يبطئ ، ثم يرتد تاركا خلفه مرآة صقيلة على الرّمل الرطب، الذي لاتلبث الموجة التّالية أن تغمره مرة أخرى.. وكان ثمة رجل كثيف الشّعر- في رداء برتقالي - يقف على حافة الماءوهو يمسح نظارته.. وطفل صغير يتصايح في مرح، وقد تدفق الزبد في المدينة ذات الجدران التي بناها من الرّمال .. وكانت المظلات الزاهية الألوان ، والخيام المخططة ، تحكي بلغة الألوان ما كانت تحكيه صيحات المستحمّين للآذان.. وأقبلت كرة كبيرة زاهية اللون-

من مكان ما- تطفر فوق الرّمال صاخبة فامسكنها "**مارجوت**"..، وقفزت بها، ثم ردّتها مرة أخرى.

ورآها "**ألبينوس**" في إطار الشّاطئ المرح، بيد انه كان ذاهلا عن الشّاطئ، وقد ركز كل وعيه في "**مارجوت**"، حتى بدت له- بعودها الأهيف، وبشرتها التي لوّحتها الشّمس، ورأسها الفاحم الشعر، والسوار يلمع في أحد ذراعيها - كأنها كلمة مكتوبة بالألوان الرائعة على رأس الفصل الأول من حياته الجديدة..

واقتربت منه وهو يرقد متمدّدا، وعلى كتفيه القرنفليتين المسلختين منشفة، فراح يتأمّل حركة قدميها الصغيرتين.. ومالت عليه بضحكة "برلينيّة"!، ولطمته لطمة شديدة على بطنه المنتفخ تحت لباس البحر.. ثم انطلقت صائحة في قلب الموج، وراحت تهز ردفيها وتطوح ذراعيها، وهي تخوض الماء الذي بلغ ركبتيها.. ثمّ القت بنفسها محاولة أن تسبح- وهي تزحف وتبقبق - حتى غاصت إلى خصرها في الزّبد.. واندفع "**ألبينوس**" وراءها والماء يتطاير من حوله، فاستدارت إليه، وهي تضحك، وتنحي الشّعر المبلّل عن عينيها والرّذاذ ينتشر عند قدميها.. فراح يحاول أن يدفعها تحت الماء، وقد أمسكها من رسغها، وهي تضرب بقدميها وتصرخ.. وكانت امرأة انجليزية تتأرجح في مقعد من مقاعد الشاطئ تحت مظلة بنفسجية، وهي تقرأ مجلّة "بانش" فاستدارت إلى زوجها - وهو رجل أحمر الوجه، يضع على رأسه قبعة بيضاء وقد جلس على الرمل وقالت له:" انظر إلى ذلك الألمانيّ الذي يمرح مع ابنته.. فلا تكن بليدا يا "**وليم**"، وخذ الأولاد ليسبحوا ويرتعوا!".

الفصل الرابع عشر

وبعد هنيهة، ذهبا – في لباس الحمام المزركش يمشيان في طريق صخري تغطي الحشائش والأعشاب نصفه ، إلى "فيلاً" صغيرة فاخرة تتيه بلونها النّاصع البياض، كأنها قطعة السّكر بين أشجار السرو الظّليلة .

وكان ثمّة جعران كبير بديع الشّكل يدرج فوق الحصباء فحاولت "**مارجوت**" ان تمسكه، وانثنت ومدّت اصابعها في حذر، ولكنّه– باطرافه الحادّة– لم يلبث أن قفز فجأة ناشرا جناحيه الأزرقين الشبيهين بالمروحة ، ثمّ اختفى سريعا كما ظهر.

وفي الحجرة الرّطبة ذات الأرضية المرصوفة بالقرميد الأحمر والضّوء يتخلل خشب الشبابيك ويتراقص في العين، ويستلقي في خطوط متالقة عند القدم– وقفت "**مارجوت**" ونضّت عنها لباسها الأسود ، كالثعبان حين يخلع جلده .. ولم يعد على بدنها سوى جورب طويل. وراحت تجيء وتذهب في الحجرة ، محدثة جلبة ، وهي تقضم خوخة في يدها ، وأشرطة من اشعة الشّمس تروح وتجيء على جسمها .

وفي الامسيات ، كان الرّقص يدور في "الكازينو" وكان البحر يبدو أكثر شحوبا من سماء الليل، وأضواء سفينة عابرة تتلألأ في منظر بهيج ، وفراشة طائشة ترفرف حول مصباح وردي الظّلال.. وكان "**ألبينوس**" يراقص "**مارجوت**" ، وراسها البديع التّنسيق لايكاد يبلغ كتفه.

وكانا بعد وصولهما بقليل، قد اكتسبا معارف كثيرين.. كان "**ألبينوس**" يشعر بالغيرة تاكل قلبه وتستذلّه ، حين كان يرى "**مارجوت**" تلتصق جدّا باي شخص غيره يراقصها ، لاسيما وقد كان يعلم انها لم تكن ترتدي شيئا تحت ثوبها الرقيق.. وكانت ساقاها قد اكتسبتا لونا ورديا رائعا، ومن ثمّ لم تكن تلبس أي جورب..

وكانت تختفي عن نظره أحيانا، فيروح ويغدو قلقا مضطربا ، وهو ينفض سيجارته ، وقد يلج غرفة يلعب فيها بعضهم الورق، ثم يخرج إلى الشّرفة ، ثمّ يعود ثانية، وقد توطّد اقتناعه – وهو يشعر بالضيق الخانق– بانها تخونه .. بيد أنها كانت تظهر فجأة ،

وتجلس بجانبه في ثوبها الجميل البراق، وتحتسي جرعة كبيرة من النبيذ.. ولم يكن يبوح لها- إذ ذاك - بشكوكه وهواجسه ، وإنما كان يدفع ركبتيها العاريتين تحت المائدة فترتطمان وهي تستلقي إلى الخلف في مقعدها ضاحكة ضحكة هستيريّة ، وهي تروي له شيئا - كان يعتقد انه ليس مضحكا جدّا- قاله لها رفيقها الأخير في الرقص.

والحق ان "**مارجوت**" كانت تبذل كل ما في وسعها لتظل مخلصة كلّ الإخلاص له.. وإن كانت - رغم رقّة غزله- تعلم على الدّوام أنه من جانبها حبّ ينقصه شيء ما، بينما كانت تستشعر في اقل لمسة من عشيقها الاول ، كل اللذة العارمة التي تتوق إليها.. إلا انه حدث لسوء الحظ ان شابا نمساويا - كان ابرع راقص في "**سولفي**" ، وابدع لاعب للبنج بونج - اوتي شبها بذلك العشيق ، وكان ثمة شيء ما في اصابعه القوية، وعينيه الصارمتين الساخرتين يذكرها باشياء كانت تفضل أن تنساها ..، وذات ليلة حارة اتفق أنها بين رقصتين انساقت معه إلى ركن مظلم في حديقة الكازينو، وكان عبير شجرة تين يعبق الجو ، وقد رفرف على المكان ذلك المزيج الساحر من ضوء القمر ، وانغام الموسيقى البعيدة ، التي تفعل فعلها في النفوس .. وعندئذ شعرت بشفتيه تدغدغان عنقها وخدها ، ويديه البارعتين تتلمسان طريقهما إلى ساقيها ، فغمغمت قائلة في همس " كلا.. كلا.. ينبغي ألا تفعل ذلك!" .. والقت براسها إلى الخلف ، ثم قبلته هي بدورها في نشوة وتلذذ ، فضمها ضما شديدا حتى لقد شعرت بما بقي لها من قوة قليلة ينهار ويتهاوى .. إلا انها ما لبثت ان افلتت منه واندفعت إلى الشرفة ذات الضوء الساطع.

ولم يتكرر هذا المنظر بعد ذلك ابدا .. فقد أحبت "**مارجوت**" اشد الحب تلك الحياة التي كان يمكن لـ"**ألبينوس**" ان يمنحها إياها .. تلك الحياة التي تسطع فيها اضواء فيلم من أفلام الدرجة الاولى ذات الورود المرتجفة وأشجار النّخيل المتمايلة - لان دنيا الأفلام دائما تهب عليها الرّياح- وكانت تخاف أن ترى كل شيء وقد اختطف منها اختطافا ، فلم تجرؤ مرة واحدة على ان تجازف أية مجازفة، بل إنها بالتّأكيد فقدت وقتا ما صفتها الغالبة، وهي الثّقة بالنّفس .. وإن كانت هذه الثقة قد عاودتها بمجرد أن عادا

في الخريف إلى "برلين" .. فما إن ألقت نظرة على غرفة الفندق الفاخر الذي أقاما به حتى قالت في جفاء : " بالتّأكيد إنها لجميلة جدا، ولكنني أرجو ان تفهم يا "ألبير" أننا لن نستمر هكذا إلى الأبد ا" .. فسارع "ألبينوس"- الذي كان يرتدي سترة السهرة- يؤكد لها انه يتخذ الترتيبات بالفعل لاستئجار مسكن جديد .. فقالت في نفسها في حنق شديد : "أيعتقدني بلهاء؟، ثم رفعت صوتها قائلة: " أرى أنك لاتفهم يا "ألبير" .. ثمّ ندت عنها آهة عميقة، وغطت وجهها بيديها قائلة، وهي تراقبه خلال اصابعها : " أنت تخجل منّي! " .

وحاول ان يطوقها بذراعيه في مرح، ولكنها صاحت، وهي تدفعه دفعة موجعة بمرفقها: " لاتلمسني! .. إنني اعلم جيدا أنك تخاف أن يراني أحد معك في الطريق.. فإذا كنت تخجل مني، ففي وسعك أن تتركني وتذهب إلى زوجتك .. إنك حر تماما! " .. فتوسّل في عجز قائلا: "لاتقولي ذلك يا حبيبتي ! " .. وألقت بنفسها على الأريكة، وتصنعت أنها تنفجر باكية ، فرفع ركبتي سرواله، وركع أمامها، وراح يحاول أن يمسّ كتفها وهي تدفعه بها في كل مرّة تقترب منها أصابعه .

وسألها في رقة قائلا: " ما الذي تريدينه؟.. ما الذي تريدينه يا "مارجوت"؟ .

وقالت في نشيج : " أريد أن اعيش معك علانية .. في بيتك الخاص.. وأن أرى النّاس! " . فقال وهو ينتصب وينفض ركبتيه: " حسنا جدا.. لك ما تريدين" .

وقالت "مارجوت" في نفسها ، وهي تبكي بكاء جميلا: " وفي بحر سنة ستتزوّجني.. ما لم أكن - عندئذ - في "هوليود" .. ففي هذه الحالة يمكنك ان تذهب إلى الشّيطان! " . وقال لها "ألبينوس" : " إن لم تتوقفي عن البكاء .. فسوف أبكي أنا الآخر! " .

فاعتدلت "مارجوت"، وابتسمت خلال دموعها .،. ولم تكن الدّموع تزيدها إلا فتنة وجمالا .. وكان وجهها مستعرا، وعيناها تبرقان ، ودمعة كبيرة تتراقص على جانب أنفها.. ولم يكن "ألبينوس" قد رأى - من قبل- دموعا بهذا الحجم، ولابهذا التألّق.

الفصل الخامس عشر

وكما عوّد "**ألبينوس**" نفسه على ألا يتحدّث معها أبدا عن الفنّ– الذي لم تكن تفهم فيه شيئا ، ولا كان يعنيها منه شيء– فقد بات عليه أن يتعلّم أن يخفي عنها الآلام التي كان يعانيها ، خلال الأيام الأولى من حياتهما معا في المسكن القديم، الذي قضى فيه عشر سنوات مع "**إليزابيث**" .. كان كلّ ما يحيط به يذكّره بزوجته ،لاسيما هداياه إليها وهداياها إليه.. وكان يقرأ في عيني "**فريدا**" اشمئزازا مهينا . وقبل أن ينقضي أسبوع ، غادرت البيت بعد أن استمعت بازدراء إلى تعنيف قارس للمرة الثانية أو الثالثة من "**مارجوت**" !

وكأنما كانت غرفة المائدة وغرفة الأطفال تنظران إلى "**ألبينوس**" نظرة عتاب مؤلم بريء!.. وكان الأمر أكثر مضضا بالنسبة لغرفة النوم.. لأن "**مارجوت**" نقلت إليها كل شيء من غرفة الأطفال التي خصصتها للبنج بونج .. وخُيّل لـ"**ألبينوس**" في الليلة الأولى– في غرفة النّوم– أنه يشمّ الرائحة الخفيفة للكولونيا التي كانت تستعملها زوجته، وقد أضناه ذلك وبلبله ، حتى لقد ضحكت "**مارجوت**" من تحفظه المفاجئ !

وكانت مكالمة التّليفون الأولى عذابا له.. فقد سأله صديق قديم عمّا إذا كانوا قد قضوا وقتا طيبا في "**إيطاليا**"،

وسأل عن صحّة "**إليزابيث**"، وعمّا إذا كان يمكن ان تذهب مع زوجته إلى حفلة موسيقيّة في صباح الأحد .. فبذل "**ألبينوس**" جهدا كي يقول: " الواقع أننّا نعيش منفصلين في الوقت الحاضر". فقالت "**مارجوت**" في نفسها ساخرة: " في الوقت الحاضرا" .. وكانت تستدير أمام المرآة لترى ظهرها الذي تحوّل من اللون الورديّ إلى اللون الذهبي.

وسرعان ما انتشرت أخبار التغيير الذي طرأ على حياته . بيد انه كان يرجو ألاّ يعرف أحد أن عشيقته تعيش معه، فكان يحتاط لذلك– حين راحا يقيمان الحفلات –بأن

تخرج "**مارجوت**" في النهاية مع المدعوين الآخرين، ثم تعود بعد عشر دقائق!

وكان يشعر بقلق مقبض وهو يلحظ كيف توقف النّاس بالتّدريج عن السؤال عن زوجته ، وكيف انقطع بعضهم عن زيارته، وكيف لم يبق منهم غير نفر قليل- وهم الذين اعتادوا الاقتراض منه- ظلّوا يبدون له ودا وإخلاصا ، في حين حاولت الجماعة البوهيمية من أصدقائه أن تبدو وكأنما لم يحدث شيء.. وأخيرا كان ثمّة بعض أصدقاء- أغلبهم من زملاء المدرسة- يبدون استعدادا لزيارته كشأنهم من قبل، ولكنّهم لم يكونوا أبدا يجيئون بزوجاتهم معهم.. ويبدو أن هاتيك الزّوجات قد أصبن جميعا بالصّداع في وقت واحد!!

بيد أنه اعتاد بالتّدريج وجود "**مارجوت**" في تلك الحجرات التي كانت يوما ما مليئة بالذّكريات .،. وهي لم تفعل إلا أنها غيرت من وضع بعض الأشياء الصغيرة، ومن ثمّ فسرعان ما فقدت هذه الأشياء روحها ، وتلاشت الذكرى المحيطة بها.. ومع الوقت أصبح كل شيء في البيت في غير موضعه ، ومن ثم ففي شهرين اثنين ماتت حياته الماضية في هذه الحجرات الاثنتي عشرة موتا تاما.. إذ لم تعد تمتّ بأيّة صلة إلى تلك الحجرات الرائعة الجمال التي عاش فيها مع زوجته.

*****

وفي الهزيع الأخير من ذات ليلة ، كان يدلك بالصّابون ظهر "**مارجوت**" – بعد حفلة راقصة ، وهي تتلذّذ بالوقوف في الحمام الممتلئ فوق إسفنجتها الضّخمة ، والفقاقيع تتصاعد من حولها ، كأنّها كاس شراب – إذا بها تسأله فجأة عما إذا لم يكن يرى أن في إمكانها أن تغدو نجمة سينمائية.. فضحك ، بينما كان انتباهه كله مركّزا في أشياء أخرى جميلة، وقال : " طبعا.. لم لا ؟"

وبعد أيام قلائل عادت إلى الموضوع ، وقد اختارت لذلك- في هذه المرة- لحظة كان "**البينوس**" فيها أكثر انتباها.. وسرّه اهتمامها بالسينما . وبدأ يشرح لها نظريته العزيزة عن مزايا السّينما الصّامتة بالنّسبة للسينما الناطقة، قائلا: " إن الصوت سيقتل السّينما

على الفورا".

فقاطعته قائلة:" كيف يصوّرون فيلما لك؟".

وعرض عليها ان ياخذها إلى الاستديو، حيث يمكن ان يريها كل شيء ويشرح لها العمل بالتّفصيل .. وسارت الأمور بعد ذلك بسرعة عظيمة ، بيد ان "**ألبينوس**" لم يلبث أن قال لنفسه ذات صباح: "رويدك، ماذا انت فاعل!".

وكان في الليلة الماضية قد وعد بتمويل فيلم اراد مخرج متوسط ان يتولاه ، بشرط ان يعطي "**مارجوت**" الدور النسائي الثاني ، وهو دور الحبيبة المهجورة..

وراح يحدث نفسه قائلا:" إنه لغباء منّي .. فلسوف يكون المكان ممتلئا بالممثلين الشبان الذين يفيضون جاذبية .. وسأجعل من نفسي أضحوكة لو انّني صحبتها في كلّ مكان" .. بيد أنه عاد يواسي نفسه قائلا:" إنها لتحتاج إلى شيء يشغلها وتجد فيه مسرتها.. حتى إذا انتهت من عملها في وقت مبكّر ، سنقضي كل ليلة في نوادي الرقص".

وتم توقيع العقد ، وبدات التّمرينات .. ولقد عادت في اليومين الأولين غاضبة جدا، ومستاءة جدّا ، لأنّهم اجبروها على أن تكرّر ذات الحركة مئات المرّات المتوالية، ولأن المخرج صرخ فيها، والمصابيح أعمتها، .. ولم يكن يعزّيها إلا شيء واحد، وهو ان الممثلة الشهيرة جدّا– وهي السّيدة الأولى "**دوريانا كارنينا**"– أبدت غاية التلطف معها ، واطرت تمثيلها ، وتنبّات لها بانها ستفعل الأعاجيب!.. وهنا قال "**ألبينوس**" في نفسه:" هذه علامة سيّئة!".

واصرّت "**مارجوت**" على الا يحضر "**ألبينوس**" اثناء العمل، قائلة إن ذلك يجعلها شديدة الإحساس بنفسها ، فضلا عن انّه لن يجد في الفيلم مفاجاة ، إذا هو راى كل شيء مقدّما ، وهي تحب أن تفاجئ الناس.. بيد انه كان يجد متعة كبيرة في ان يختلس ومضات من مواقفها الدرامية أمام العدسة.. إلا أن الحاجز الذي كان يقف خلفه فضحه ذات مرّة –بصوت الصّريف الذي صدر عنه – فرمته "**مارجوت**" بوسادة حمراء، وهو يقسم لها إنه لم ير شيئا.

واعتاد ان يأخذها إلى الاستديو في سيّارة ، ثمّ يعود بها بعد ذلك إلى البيت .. وقد قيل له ذات يوم إن التّمرين سيتأخّر ساعتين، فراح يتمشّى في الطّرقات، وقادته قدماه- دون ان يدري- إلى الحي الذي يقطنه "**بول**" .. وعندئذ شعر فجأة برغبة عارمة في ان يرى ابنته الصّغيرة الشاحبة.. وكان ذلك في حوالي الوقت الذي ترجع فيه عادة من المدرسة، حتى إذا تحوّل عند المنحنى ، خُيّل إليه انه رآها على البعد مع مربيتها ، ولكنه شعر فجأة بالذعر وابتعد مسرعا !

وفي ذلك اليوم بالذات ، خرجت إليه "**مارجوت**" متوردة الخدين ضاحكة : فقد مثلت تمثيلا رائعا ، ولن يلبث تصوير الفيلم ان ينتهي. فقال لها "**ألبينوس**" :"سأقول لك شيئا.. إنّني سأدعو "**دوريانا**" للعشاء، وستكون الوليمة كبيرة أدعو إليها بعض الشخصيات الهامّة.. وقد اتصل بي بالأمس تليفونيا فنان شهير في الرسم الكاريكاتوريّ- وهو يرسم رسوما هزليّة كما تعلمين -وقد عاد أخيرا من "نيويورك" ،وهو نابغة في فنّه ،وسادعوه كذلك!" .

فقالت "**مارجوت**" : " كلّ ما أريده أن أجلس بجانبك" .

وبادر مجيبا :" حسنا .. ولكن تذكري يا حبيبتي انني لاأريدهم جميعا ان يعلموا أنك تعيشين معي!" .. فقالت "**مارجوت**" ،وقد اكفهرّ وجهها فجأة :"أوه ، إنّهم جميعا يعرفون ذلك، أيها المغفل!" .

فقال:" ولكن هذا يضعك انت- لاأنا- في موقف حرج .. يجب أن تتأكدي من ذلك.. إن هذا لايهمني طبعا، ولكنني أرجوك- من أجل خاطرك انت- ان تفعلي كما فعلت في المرّة السّابقة فقالت:" ولكن هذه حماقة .. وفضلا عن ذلك ، فهنالك طريقة يمكننا بها ان نتجنب هذه المضايقات" . فسألها قائلا:" كيف نتجنّبها؟"

وعضّت شفتيها قائلة:" ما حيلتي إذا كنت لاتفهم!" .

وقالت في نفسها:" متى يبدأ يتكلم عن الطّلاق؟"

فقال لها "**ألبينوس**" متوسّلا :" كوني معقولة.. إنني لأفعل كل ما تطلبينه ، وأنت تعلمين ذلك حق العلم يا "**بوسي**" !" .. وكان غرامه بأسماء التدليل قد ازداد تدريجا!.

الفصل السادس عشر

كان كلّ شيء كما ينبغي ، وقد أعدت على طبق من المعدن- في البهو- بطاقات كتبت عليها أسماء المدعوين - اثنين اثنين- في تنسيق ينم عن ذكاء، حتى يعلم كلّ مدعوّ على الفور زميلته في المادبة: فالدكتور "**لامبرت**" يزامل "**سونيا هيرش**" و"**أكسيل ريكس**" يرافق "**مارجوت بيترز**"، و"**بوريس فون ايفانوف**" يصاحب "**أولجا والدهيم**"،وهكذا.. وتولى إرشاد الضيوف إلى مقاعدهم- في وقار- خادم مهيب الطّلعة ، له وجه "لورد" إنجليزي.. أو هكذا- على أي حال- كانت تظن "**مارجوت**" ، وقد اعتادت عيناها أن تتريثا عليه لحظة، في غير قسوة..

وأخذ جرس الباب يدوي كل بضع دقائق.. واكتمل بالفعل عقد خمسة ضيوف غير "**مارجوت**" في غرفة الاستقبال : فثمّة "**ايفانوف**" - أو "**فون ايفانوف**"، كما كان يعتقد أن على الناس أن ينادوه- وكان مستلقيا، بأسنانه الرديئة ونظّارته .. يتلوه" **بوم**" - وهو مؤلف بدين أحمر الوجه، كثير الثّرثرة،ذو ميول اشتراكيّة متطرفة ، ودخل محترم- وقد اصطحب زوجته، وكانت امرأة عجوزا، بيد أنها احتفظت بمظهر فخم.. وكانت في شبابها المضطرب، قد سبحت في حوض زجاجي مغلق!

وحمى وطيس الحديث.. وكان بين الحاضرين "**أولجا والدهيم**"، وهي مغنية بضّة الذراعين، ممتلئة الصدر، ذات شعر متموّج بلون مربى البرتقال ، وصوت بديع النبرات ، وكانت تقصّ- كشأنها دائما- قصصا بديعة عن قططها الفارسيّة الست .. وبينما كان "**ألبينوس**" يقف ضاحكا، نظر من خلال الشّعر الأبيض الذي يكسو رأس "**لامبرت**"- وهو إخصائي بارع في الحنجرة ، وعازف كمان مرح- وراح يتأمل "**مارجوت**" ، ويقول في نفسه إن ثوبها الأسود الهفهاف- المحلى فوق الصدر بزهر "**الداليا**" المخملي - يبدو رائعا عليها.. يالتلك الحبيبة الغالية! وكانت على شفتيها المتألقتين بسمة خفيفة، كأنها تفصح عما يختلج في صدرها من عدم الثقة بنفسها وسط أولئك القوم، وفي عينيها ذلك التّعبير الذي يجول في عيني المها، والذي معناه - كما كان يعلم- أنها تنصت

إلى أشياء لاتفهمها : وكان الحديث عندئذ يدور حول موسيقى "**هيندميث**" .

وفجاة لاحظ أن وجهها قد تضرج بالحمرة الشّديدة، وقد انتصبت فجأة على قدميها، فقال في نفسه: " ما أحمقها، لماذا تقف؟" .. وكان قد دخل- في هذه اللحظة- عدد آخر من الضّيوف، هم: " **دوريانا كارنينا**" ، و"**أكسيل ريكس**" ،، وشاعران من صغار الشّعراء .. وتقدّمت "**دوريانا**" إلى "**مارجوت**" وقبّلتها وهي تطوقها ، في حين كانت عينا هذه تبرقان بوميض عجيب، فقال "**ألبينوس**" مرّة أخرى في نفسه: " ما أحمقها ، إذ تبدي الاستكانة هكذا أمام تلك الممثّلة من الدرجة الثّانية!" .. وكانت "**دوريانا**" مشهورة بكتفيها الرائعتين، وبسمتها التي تشبه بسمة "مونا ليزا" ، وصوتها الأجشّ الرنّان .

وتقدم "**ألبينوس**" من "**ريكس**"- الذي لم يكن يعلم من هو مضيفه - فراح يفرك يديه كما لو كان يغسلهما بالصابون ، وقال له: " يسرّني أن أراك أخيرا .. بيد أنني كنت أتصورك في مخيلتي بصورة مختلفة كل الاختلاف ..، كنت أتصورك قصيرا ، بدينا، ذا نظارة سميكة الإطار.. وإن كان اسمك يذكّرني دائما بالفأس(١) .. سيداتي وسادتي .. هذا هو الرجل الذي يجعل قارتين تضحكان، فلنامل أن يكون في عودته إلى "**ألمانيا**" كل الخير:"وأخذ "**ريكس**"ينحني انحناءات صغيرة وعيناه تبرقان ، وهو يفرك يديه طيلة الوقت .. وكان يرتدي حلة رائعة ، في دنيا تسودها ثياب السهرة، الألمانية القبيحة التفصيل!

وقال له "**ألبينوس**" : " تفضّل بالجلوس!" . بينما سالته "**دوريانا**" بصوتها العميق البديع: " الم أقابل أختك ذات مرّة؟" فاجاب في وقار : "أختي في السماء!" . وإذ ذاك قالت "**دوريانا**" :"أوه.. إنني آسفة " ، فأضاف قائلا: " إنها لم تولد أبدا!" .

وجلس على مقعد بجانب "**مارجوت**"- التي اتّجهت إليها عينا "**ألبينوس**"- وهو يضحك مسرورا ، بينما راحت "**مارجوت**" تميل ناحية جارتها "**سونيا هيرش**"- ذات الوجه الوضيء الذي يشبه وجه طفل، وكتفاها منحنيان بعض الشيء- وهي تتكلم

---

(١) كلمة "أكسيل" بالإلمانية - وهي الإسم الاول للفنان - تقابل كلمة الفاس في اللغة العربية.

بسرعة غريبة، وعيناها مخضلتان، وجفناها يختلجان.. وراح "**ألبينوس**" ينظر إلى أذنها الصغيرة المحمرة وإلى عرق نافر في عنقها ، وإلى الظل الخفيف بين نهديها.. وهي تسكب في سرعة محمومة بسيل من الهراء المحض، وقد وضعت يدها على خدها المتورد.. وكانت تثرثر قائلة: إن الرجال من الخدم أقل إقبالا على السّرقة.. وإن لم يكن من الممكن – طبعا– رفع صورة كبيرة كهذه.. وقد كنت في وقت ما أعبد الصور الكبيرة.. ذات الرجال يمتطون صهوات الجياد، ولكن حين يرى المرء هذا القدر الكبير من الصّور.."

وقال "**ألبينوس**" في نغمة ناعمة: "**فراولين بيترز**".. هذا هو الرّجل الذي جعل قارّتين.." فجفلت "**مارجوت**" واستدارت قائلة: "أواه.. حقّا؟.. كيف حالك؟".

وإذا ذاك انحنى "**ريكس**"، وقال في تؤدة ، مستديرا إلى "**ألبينوس**": "لقد اتّفق لي أن قرأت وأنا في السفينة مقالك البارع عن تاريخ حياة "**سيباستيانو ديل بيومبو**".. وإن كنت – مع الآسف–، لم تشر إلى قصائده ذات الأربعة عشر بيتا". فأجاب "**ألبينوس**" قائلا: أوه .. ولكنّها قليلة جدًا".. فقال "**ريكس**": "بالضّبط .. وهذا هو البديع في الأمر!".

وهنا اندفعت "**مارجوت**" ، بخطوات– أو بالأحرى قفزات – خفيفة نحو ضيفة جديدة ، طويلة الأطراف ، هزيلة العود ، كانت تبدو كأنها النّسر المنتوف، وقد أخذت عنها "**مارجوت**" دروسا في الإلقاء .. وعندئذ انتقلت "**سونيا هيرش**" إلى مكان "**مارجوت**"، واستدارت نحو "**ريكس**" قائلة له: "ما رأيك في أعمال "**كامنج**".. أعني مسلسلته الأخيرة ،، وهي "المشنقة والمصانع". كما تعلم؟".. فقال "**ريكس**" "إنها شنيعة!".

*****

وهنا فتح باب غرفة المائدة ، فتلفّت الرّجال حولهم باحثين عن زوجاتهم ، ووقف "**ريكس**" منعزلا .. وراح مضيفه –الذي كان قد تأبط ذراع "**دوريانا**" – يجيل بصره

باحثا عن "**مارجوت**"، فلم يلبث أن رآها في زحمة المدعوين وهم يتقاطرون إلى غرفة المائدة فقال لنفسه في قلق: " إنها ليست على ما يرام الليلة! ". وقاد السيدة التي كانت معه إلى "**ريكس**"..

وجلس "**دوريانا**"، و"**ريكس**" و"**مارجوت**"، و"**ألبينوس**" و"**سونيا هيرش**"، و"**بوم**" – على التّوالي – إلى المائدة.. وازدردت "**مارجوت**" كاسها الثالثة من الشّراب في جرعة واحدة، وجلست منتصبة جدا، وقد تالق البريق في عينيها وهي تنظر امامها راسا.. ولم يكن "**ريكس**"، يعيرها اهتماما – لا هي ولا"**دوريانا**"التي كان اسمها يضايقه – وإنّما راح يتناقش عبر المائدة مع المؤلف "**بوم**"، في معنى التعبير الفني.. ومضى يقول: " إن الكاتب إذا تكلم عن "**الهند**"– مثلا– وأنا لم أرها أبدا، وراح يصف الراقصات، والفقراء، والثعابين، وصيد النّمور، وجوز الهند، وسحر الشرق الغامض.. فما قيمة هذه الأشياء التي يصفها؟.. لاشيء. فبدلا من ان يجعلني اتصور "**الهند**"، لايفعل إلا انه يصيبني بوجع في اسناني.. اما ذلك الذي يكتب مثلا: خلعت قبل الدخول حذائي المبلل كي يجف، حتى إذا كان الصباح، الفيته وقد نمت فيه غابة كثيفة زرقاء.."

وإذ رفعت "**دوريانا**" حاجبيها، قال لها: " إنها الفطريات يا سيدتي! ".. ثم استرسل قائلا: " عندئذ تغدو "**الهند**" حيّة امام ناظري في الحال.. اما سوى ذلك فنفاية لاقيمة لها! ". وهنا قالت "**دوريانا**": "إن أولئك الذين يسمونهم رجال اليوجا يأتون امورا عجيبة.. ويبدو أن في إمكانهم أن يتنفسوا عن طريق.."

ولكن "**بوم**"– الذي كان قد كتب أخيرا رواية من خمسمائة صفحة، تجري حوادثها في سيلان، حيث قضى أسبوعين مشمسين– ما لبث ان تدخل صائحا في حماس: " ولكن عفوك ياسيدي الطّيب، فإنك ينبغي أن تزخرف الصورة، وترسم كل تفصيلاتها، حتى يمكن لكل قارئ أن يفهمها.. فليس الكتاب هو المهم في ذاته، وإنما الأهمية تتمثّل في المشكلة التي يعالجها، ويحلها، فإذا انا تصديت لوصف المناطق الاستوائية،

فينبغي ان اتناول موضوعي من اهم جوانبه، وذلك هو: ما تلقاه تلك البقاع من عسف الاستعمار الأبيض وجوره واستغلاله.. لانك حين تفكر في الملايين والملايين.."، فقال "ريكس": " أنا لاافكّر في ذلك".

وفجاة ، ضحكت "**مارجوت**"– التي كانت تنظر امامها– ضحكة ساخرة، لم يكن لها اي شأن بالحديث.. فالتفت "**ألبينوس**" إلى عشيقته الصغيرة– وكان يتحدث عن معرض الفن الذي أقيم اخيرا– ولاحظ انها تسرف في الشّراب كثيرا .. بل إنها– حين نظر إليها – تناولت رشفة من كاسه هو .. فقال في نفسه:" يالها من طفلة!؛ ولمس ركبتها تحت المائدة ، فاطلقت ضحكة ساخرة مرة أخرى . وألقت قرنفلة عبر المائدة إلى "**لامبرت**" الكهل!

وقال "**ألبينوس**" ، مشتركا في وطيس النقاش :" لاأدري أيها السادة ما رأيكم في "**آدو كونراد**" .. إنه ليبدو لي من ذلك النوع من المؤلفين ذوي الرأي الرائع والاسلوب الإلهي – الذي قد يسرك يا هر "**ريكس**"– إن لم يكن من أعظم الكتاب لانه– وهنا اتّفق معك يا هر "**بوم**"– لايستحي من المشاكل الاجتماعية المخزية، بل اسمحوا لي أن أقول الأثيمة ، التي تشوب عصرنا هذا الذي يحتدم بالغليان الاجتماعي ،.. وقد عرفته حق المعرفة في أيام تلمذتي ، حين كنا معا في "**هيد لبورج**" ، ثم اعتدنا بعد ذلك أن نلتقي من حين لآخر.. وانا اعتبر افضل كتبه هو "الخدعة الزّائلة"، وقد قرا الفصل الأول منه في الواقع هنا، على هذه المائدة..اعني على مائدة تشبهها ،و.. ".

وبعد العشاء استرخوا يدخّنون ويتناولون الأشربة الخفيفة ،في حين راحت "**مارجوت**" تنتقل من مكان إلى آخر..

وكان واحد من الشّاعرين الصغيرين يتبعها كالكلب الأشعث، وقد تحدّته ان تحرق يده بنار سيجارتها ، وشرعت تنفذ ذلك بالفعل..

وبالرّغم من أن الشاب تصبب عرقا ، فقد ظل مع ذلك يبتسم كانه البطل الصغير .. أما "**ريكس**" ، فإنه– وقد استحال عليه أن يقهر "**بوم**" في غرفة المكتب– جاء فجلس مع

"ألبينوس" ، وراح يصف له بعض مناظر "برلين" ، كأنها مدينة بعيدة بهيجة .. وقد كان بارعا في ذلك ، حتّى لقد وعده "ألبينوس" بأن يرى بصحبته ذلك الزقاق ، وذلك الجسر، وذلك الجدار ذا اللون العجيب، وما إلى ذلك من المعالم التي كان يصفها .

وقال "ألبينوس" : " لكم أنا آسف لأننا لن نستطيع العمل معا في فكرتي السينمائية .. إنني لواثق بأنك كنت خليقا بأن تصنع العجائب ، ولكنني – بصراحة– لاأستطيع تمويل المشروع ، في الوقت الحاضر على الأقل" .

وأخيرا دهمت الضيوف تلك الموجة التي تبدأ بهمهمة خافتة ، ثم لاتفتأ ترتفع وترتفع في دوامة التحيات وكلمات الوداع وهرجه، حتى تكتسحهم جميعا خارج المنزل .. وتركوا "ألبينوس" وحيدا . وكان جو الحجرات أزرق اللون مثقلا بدخان السّجائر ، وقد سكب أحد الضّيوف شيئا ما على المائدة التّركية الطّراز، فأصبحت لزجة كلها .. وكان الخادم الوقور يترنح بعض الشيء، فقال "ألبينوس" في نفسه:" لو أنّه ثمل مرّة أخرى فسأفصله من العمل!" .

وفتح الخادم النّافذة، فتدفقت منها إلى الداخل برودة الليل الحالك .. وقال "ألبينوس" في نفسه وهو يخلع رداء السهرة: " لم تكن حفلة ناجحة .. من وجهة ما ! " .

الفصل السابع عشر

قال "**أكسيل ريكس**" ، لـ"**مارجوت**"حين بلغا منحنى الطريق: "يحكى أن رجلا أضاع زر قميصه الماسي في البحر الأزرق الواسع، ثم بعد ذلك بعشرين سنة– وفي ذات اليوم، وأظنّه كان يوم جمعة– كان يأكل سمكة كبيرة .. ولكنه لم يجد الماسة في داخلها .. وهذه هي حالي أنا!" .

فأوسعت "**مارجوت**" الخطى وراحت تجري بثوبها المصنوع من جلد الفقمة، والمحبوك حبكا شديدا على جسمها .. فأمسكها "**ريكس**"، من مرفقها وأجبرها على الوقوف ، قائلا: " لم أكن أتوقّع أبدا أن أجري وراءك مرة أخرى، فكيف جئت إلى هنا؟.. إنّني لم أستطع أن أصدق عيني .. انظري إليّ فلست أعتقد أنك ازددت جمالا، ولكنّني أحبّك على أي حال!" .

وبكت "**مارجوت**" فجأة ، ثم تحولت عائدة ، فجذبها من ذراعها ، ولكنها استدارت بأسرع من ذي قبل ، وراحا يدوران حول نقطة واحدة، فقال لها: " خبريني بحق السماء، أين تذهبين؟.. إلى مسكني أم مسكنك..؟

ماذا دهاك؟" . فدفعته وأسرعت تجري ، فتبعها مرددا في خبل : "ماذا بالله دهاك" ؟.

وأوسعت الخطو، فأمسكها ثانية ، وقال لها :" تعالي معي أيتها البلهاء .. انظري ، إن عندي لك شيئا هنا!" .

وأخرج حافظة نقوده ، فلطمته فورا على وجهه ، فقال في هدوء: "إن الخاتم الذي حول سبابتك قاس جدا!" .

ومضى يلاحقها – وهو يتحسّس في عجلة حافظته– فأسرعت "**مارجوت**" إلى مدخل البيت وفتحت قفل الباب. وحاول "**ريكس**" أن يضع شيئا في يدها ، ولكنّه رفع عينيه فجأة.

وإذ رأى الباب– الذي كانا قد خرجا منه منذ هنيهة– صاح: " أوه.. هذه هي اللعبة الصّغيرة إذن.. أليس كذلك؟!. ففتحت "**مارجوت**" الباب دون أن تتلفت حواليها.

وقال لها في خشونة: "ها هي ذى.. خذيها!"، فلما لم تأخذ ما قدمه إليها دفعه إلى ياقتها المصنوعة من الفرو.. وصفقت في وجهه الباب، فلو لم يكن من النوع ذي الهواء المضغوط، لكان لاصطفاقه صوت مزعج. ووقف "ريكس" برهة، وقد عضّ على شفته السّفلى، ثم انصرف.

وتلمست "**مارجوت**" طريقها في الظّلام على السّلم.. إلا انها ما صعدت بضع درجات، حتى شعرت فجأة بالإغماء ينتابها، فجلست هنالك وبكت كما لم تبك من قبل، حتى في تلك المرة التي هجرها فيها.. وشعرت بشيء ما يتثنى في عنقها فامسكته وإذا به قطعة ورق مجعّدة.. فضغطت مفتاح النور.. ولم يكن ما في يدها نقودا، بل رسما -بالقلم الرّصاص- لظهر فتاة عارية الكتفين والساقين، تجلس على فراش، ووجهها إلى الحائط.. وفي اسفل الورقة تاريخ مكتوب اولا بالقلم الرصاص. ثم معاد عليه بالحبر.. تاريخ اليوم والشّهر والسّنة، التي هجرها فيها.. وكان هذا هو السبب في أنه سالها الا تتلفت حواليها، يوم اعتزم الرّحيل، فقد كان يرسمها!.. أحقا كان ذلك منذ سنتين فقط؟

وانطفأ النور مرة اخرى، واتكات "**مارجوت**" على الجدار تبكي من جديد، وصوت المصعد يهدر في اذنيها.. تبكي لأنّه هجرها في تلك المرة، ولأنه اخفى عنها اسمه وشهرته، ولأنّها كان بوسعها ان تسعد معه طيلة هذا الوقت!..

لو انه بقي، لاستطاعت - إذ ذاك- ان تتفادى الرجلين اليابانيين، والرجل العجوز، و"**ألبينوس**".. كذلك كانت تبكي لانه حدث - عند العشاء - ان لمس "**ريكس**" ركبتها اليمنى، ولمس "**ألبينوس**" ركبتها اليسرى، فاحسّت كانّما النعيم عن يمينها، والجحيم عن يسارها!

ومسحت انفها بكمها، وتلمّست الجدار في الظلام حتى عثرت على زر النّور فضغطته مرة اخرى.. وهدات نفسها في النور قليلا.. وراحت تتامل الرّسم مرة أخرى، ثمّ قالت في نفسها، إنه - مهما يكن الأمر - ذو معان كثيرة بالنسبة إليها، فمن الخطر أن تحتفظ به، ومن ثم مزّقته إلى قطع صغيرة، والقت به من خلال السّياج إلى بئر

المصعد.. ثم أخرجت المرآة وراحت تنشر البودرة على وجهها بحركة خفيفة دائرية ، وهي بينذاك تعض شفتها السفلى ، ثم اغلقت حقيبتها إغلاقا محكما ، واسرعت تصعد درجات السّلم .

وسالها "**ألبينوس**" قائلا:" لماذا تاخرت هكذا؟" .. وكان يلبس منامته، فراحت تقول له– وهي تلهث– إنها وجدت عناء في التخلص من "**فون إيفانوف**" . الذي ظلّ يلح لكي يقلّها في عربته إلى منزلها فقال "**ألبينوس**" مغمغما:" كم تتألق عينا جميلتي، وكم هي منهوكة ودافئة!.. لقد كانت جميلتي تشرب .."، فقاطعته بصوت ناعم:" كلا.. دعني الليلة وحدي!" .

وقال لها متوسّلا:" أرجوك يا أرنبتي .. لقد كنت في انتظارك" . فقالت :" انتظر برهة وجيزة كذلك.. ولكن ثمة شيئا أريد ان أعرفه أولا: ألم تفعل شيئا بشأن الطلاق بعد؟" . فجفل وكرر كلمتها قائلا: "الطلاق؟" .

وقالت :" لايمكنني احيانا أن افهمك يا "ألبير" .. يجب – بعد كل شيء– أن نضع الأشياء في موضعها الصحيح اليس كذلك ؟.. أو تراك تقصد ان تتركني بعد فترة وتعود إلى زوجتك؟" .. فردد كلمتها قائلا:" تتركني ؟" .

ولكنها قالت:" كفاك ترديدا لكلماتي ايها الأحمق.. كلا، لن تقربني حتّى تعطيني جوابا مقنعا !" . فاجابها قائلا:" حسنا جدا.. سأكلم المحامي يوم الاثنين " . فقالت :" حقا؟.. هل تعدني؟" .

الفصل الثامن عشر

كـان "أكسيل ريكس"، فرحا بعودته إلى أرض وطنه الجميلة، فقد اصطدم بالمتاعب في الفترة الأخيرة، وأغلقت دونه- بطريقة ما- أبواب الحظ، وتركته في الوحل، كعربة مكسورة.. كان ثمة- مثلا- ذلك الشجار مع رئيس التحرير ، الذي لم تعجبه هزليته الأخيرة، لا لأن فكرتها معادة، وإنما لما كان بينهما من نزاع مستمر ، كانت من عوامله امرأة غنية ، وصفقة مالية كبيرة .. وكانت ثمة محادثة من جانب واحد مع بعض السلطات عن أجانب غير مرغوب فيهم.. ولم يكن الناس عطوفين في معاملته .

ولكنه قال في نفسه إنه قد صفح عنهم جميعا.. وقد كانت مضحكة تلك الطريقة التي عامله الناس بها، إذ كانوا يبدون الإعجاب بعمله، ثم يحاولون- في اللحظة التالية- أن يلطموا وجهه .. وقد لطموه فعلا مرة أو مرتين !

بيد أن أسوأ ما في الأمر، كان مركزه المالي ، إذ كانت الشهرة - وإن لم تصل إلى درجة عالمية ، كما قال بالأمس ذلك الأحمق- قد جاءته بقدر كبير من المال في فترة ما.. حتى إذا عاد أخيرا إلى "برلين"، مهيض الجناح محطم النفس بصدد مهنته كرسام كاريكاتوري، كان الناس هنالك كما هم دائما ، يشغفون بالسخرية من الحماة.. ومن ثمّ كان بوسعه أن يحصل من هذا الباب على القدر الذي كان يحصل عليه من قبل من المال ، أو في القليل على بعضه.. لولا أنه كان مولعا بالقمار.

ولا عجب- وقد غرس في نفسه الولع بالخداع منذ شبابه الباكر- إن كانت لعبته المفضّلة هي البوكرا.. وقد كان يلعبه في أي مكان يجد به من يشاركه اللّعب، وكان يلعبه في أحلامه مع الشخصيات التّاريخية ، أو مع ابن عم بعيد له . مات منذ مدة ، وإن كان في حياته الحقيقيّة لا يتذكّره ابدا، او مع أناس كانوا في الحياة الحقيقية كذلك يرفضون رفضا باتا أن يكونوا معه في غرفة واحدة.. وكان في ذلك الحلم يأخذ الخمس ورقات الموزعة عليه، مضمومة إلى بعضها ، ويرفعها إلى قرب عينيه ، فيلمح والفرحة ملء جوانحه" الجوكر" يطل عليه من الورقة الأولى ، ثم يضغط بإبهامه في حذر على الركن الأعلى للورقة التالية ، ثم التي تليها وهكذا فيتّضح له أن معه خمسة من

"**الجوكر**"، فيهتف في نفسه قائلا: "رائع!" دون أن يعجب لتكرّر الجوكر خمس مرات. ثم يراهن رهانه الأول، فيتصدى له "**هنري الثامن**"- وليس معه سوى أربع ملكات- ويضاعف الرهان.. وعندئذ يصحو من نومه، ووجه الجوكر مرتسم في مخيلته..

*****

وفي ذلك اليوم استيقظ من نومه فأحسّ بالصباح قارسا معتما.. وتقلب على فراشه، فلاحت له الستار الشبكية – المسدلة على النافذة – قذرة.. وخطر له أن أصحاب الفندق كانوا خليقين بأن يعطوه غرفة أفضل من هذه نظير نقوده التي قال في نفسه إنهم لن يروها..

وفجأة – في انبثاق لذيذ- تذكر ذلك اللقاء الغريب بالأمس.. وكان- كقاعدة عامة- يتذكر شؤونه الغراميّة غير متأثر بأية عاطفة خاصّة.. بيد أن "**مارجوت**" كانت استثناء من هذه القاعدة، فكثيرا ما حدث -خلال هذين العامين الماضيين- أن ألفى نفسه يفكر فيها، وكثيرا ما كان يتطلّع – بخبل كبير الشّبه بالماليخوليا- إلى ذلك الرّسم السّريع الذي رسمه لها بالقلم الرصاص.. وهو أمر غريب من "**أكسيل ريكس**"، الذي كان أقل ما يقال فيه أنه ماجن ساخر!

كان قد غادر "**ألمانيا**" لأول مرة، في شبابه، متعجّلا جدّا لتجنب الحرب، فترك أمه المسكينة وحيدة، شبه فاقدة العقل.. وقدّر لها- في اليوم التّالي لرحيله إلى "**مونتفيديو**"- أن تقع من أعلى السّلم، فأصيبت إصابة قاتلة.. وفي طفولته صب كمية من البترول على عدد من الفئران الحيّة وأشعل فيها النيران، وراح يتمتع برؤيتها وهي تندفع – بضع ثوان- كشهب مشتعلة.. ومن الأفضل عدم الخوض في الأمور التي كان يفعلها بالقطط.. ولكنه- في السنوات التي صار فيها أكثر نضجا، والتي نمت فيها قريحته الفنية – تعود أن يحاول إشباع فضوله بطرق أكثر خبثا.. ولم يكن فضوله من ذلك النّوع العلميّ.. كلاّ، عفوا، بل كان من ذلك النوع البارد الذي لايلقي بالا إلا للأمور التافهة التي تقع في هامش الحياة، ليستغلها في فنه.. كان يسره أن يرى الحياة وقد بدت خرقاء تدعو للهزء والسخرية حتى تصلح لأن تقع تحت رحمة الرسم الكاريكاتوري!.. وكان لا

يأبه بالفكاهات المصنوعة صنعا ، وإنما يحب الصور الهازلة التي تخطر من تلقاء نفسها مصادفة بين الحين والآخر ، فلا تحتاج لغير لمسة صغيرة منه كي تندفع العجلة في منحدرها . . كان يحب أن يهزأ بالنّاس ، وكان أقلّ ارتباك يتضمنه الموضوع، يسره أعظم السرور . . بيد أن هذا الرّجل الخطر ، كان في ذات الوقت- وقلمه في يده -فنانا بارعا حقا، . .

في قصة له نرى رسّاما عظيما كان يقف ذات يوم على "سقالة" ، ثم هم بالتراجع ، ليتأمل - عن بعد- الرسم الذي أنجزه . . وكانت الخطوة التالية لابد أن تهوي به . . وإذ كانت صيحة التحذير - في هذه الحالة- قد تؤدي إلى موته ، فإن تلميذه كان من حضور البديهة بحيث أسرع فألقى محتويات دلو على اللوحة الرّائعة . . هذه صورة مضحكة جدا ، ولكنّها تكون أكثر إضحاكا- في نظر "ريكس"- لو أن الأستاذ الذاهل تقهقر وسقط ، بينما تلقى المتفرجون ما أفرغه التلميذ من محتويات الدلو على أيديهم . . ففنّ الكاريكاتير إذن- كما يفهمه "ريكس"- لايهزأ بالطّبيعة فقط، وإنّما يقوم على المفارقة بين القسوة من ناحية، وسلامة النيّة من الناحية الأخرى . . ولو أن "ريكس" رأى في حياته الحقيقية شحاذا أعمى يضرب بعصاته راضيا بحاله، ثمّ همّ بالجلوس على مقعد حديث الطّلاء ، لما مد أصبعا لتحذيره ، وإنما لاستمدّ من ذلك المنظر موضوعا لرسمه الجديد!

وأصبح كل ما يبغيه في الوقت الرّاهن ، أن يتأكّد- قبل كل شيء- مما إذا كانت "مارجوت" تعيش حقا مع "ألبينوس" ، فنظر إلى ساعته ، وإذا النّهار قد انتصف . . ونظر في حافظة نقوده ، فإذا هي خالية . . وارتدى ملابسه ، وأخذ طريقه على قدميه إلى المنزل الذي كان به في الليلة الماضية . . وكان الثلج يتساقط هشا، مستمرا.

*****

وشاءت المصادفة أن يكون "ألبينوس" هو الذي فتح له الباب بنفسه. وقد التبس عليه الأمر فلم يستطع أن يميز الشبح الذي وقف أمامه مكسوا بالبرد . . فلما

رفع "ريكس" وجهه – بعد أن مسح حذاءه في الممسحة- استقبله "ألبينوس" بترحاب عظيم .. فقد أسره الرجل في الليلة الماضية لا بفكاهته الحاضرة واسلوبه المرسل فحسب، وإنما كذلك بمظهره الممتاز.. إذ كان- بخديه الشاحبين الغائرين، وشفتيه الغليظتين ، وشعره الداكن المنفوش- مثالا للقبح الفاتن!.. وسر "ألبينوس" ان يتذكر أن "مارجوت" قالت وهما يتحدّثان عن الوليمة: " إن لصديقك الفنّان هذا وجها كئيبا.. إنه رجل لاامنحه قبلة باي ثمن !!.. كذلك كان ما قالته عنه "دوريانا" طريفا.

واعتذر "ريكس" عن زيارته في وقت غير مناسب، فضحك "ألبينوس" متلطفا.. وقال "ريكس": " الحق انك واحد من أولئك القلائل – في "برلين"- الذين أود أن اعرفهم معرفة وثيقة.. إن اكتساب الأصدقاء في امريكا أسهل مما يحدث هنا، وقد اعتدت هناك أن اتصرف طليقا من التّقاليد، فاعف عنّي إذا كنت قد صدمتك بتصرفي!.. ولكن ما أجمل هذه الدّمية الأنيقة التي تعلو أريكتك.. وبالمناسبة، هل اتفرج على لوحاتك عن قرب؟.. هذه التي هناك تبدو رائعة" .

وراح "ألبينوس" يطوف به الحجرات ، وكانت كل منها تحوي بعض اللوحات البديعة، التي يبدو عليها اثر خفيف للتزييف ، فراح "ريكس" يتطلع إليها بسرور ، متسائلا- في دهشة- عما إذا كانت صورة "لورنزو لوتو" مع "يوحنا" ذي الرداء البنفسجي والعذراء الباكية، هي الصورة الأصلية.. وكان في بعض مغامرات حياته قد اشتغل بتزييف الصور ، وانتج مجموعة منها في غاية الرّوعة .. وقد تخصّص يومذاك في صور القرن السابع عشر.. وقد لمح- في الليلة الماضية – إحدى هذه اللوحات القديمة اثناء وجوده في بيت "ألبينوس" ، فراح الآن يتأمّلها – مرة اخرى – بسرور عظيم.. كانت من ابدع اعمال "بوجين"، وتمثل آلة "ماندولين" الموسيقية فوق رقعة شطرنج، ونبيذا ياقوتيا في كاس ، وقرنفلة بيضاء.

وقال "ألبينوس" : الا تبدو حديثة؟.. إنها تتسم بالسّريالية في الواقع" . فقال "ريكس" وهو يرفع معصمه ويتأمّل الصّورة: " تماما" .. وكانت حديثة فعلا ، فقد رسمها هو منذ ثماني سنوات فقط!

ثمّ سارا في الردهة .. وبينما كانا يتأملان لوحة جميلة تمثل فراشة وزهورا ، ظهرت "**مـارجـوت**" فجاة من الحمّام في ثوب رائع أصفر اللون .. وجرت تريد أن تختفي.. تاركة احد خفيها في الطّريق.. فقال "**ألبـينوس**" وهو يضحك في خجل :" فلندخل هنا! " .. وتبعه "**ريكـس**" إلى غرفة المكتب، وهو يقول باسما:" إن لم أكن مخطئا ، فهذه هي "**فراولين بيترز**" .. هل هي قريبتك؟

وفكّر "**ألبـينوس**" بسرعة قائلا في نفسه:" ما فائدة الإنكار ؟.. من المستحيل خداع شخص ذكي كهذا.. ثم، اليس الأمر كله بديعا ، يكتنفه جوّ من البوهيمية العابثة؟" .

وما لبث ان قال بصوت مرتفع:" إنها عشيقتي الصغيرة!" .

ودعـا "**ريكـس**" للبقاء على الغداء ، فلم يتوان هذا عن القبول .. وحين ظهرت "**مـارجـوت**" على المائدة ، كانت ذابلة، ولكنها هادئة . فإن الانفعال المهتاج الذي لم تكن قادرة على كبحه – في الليلة الماضية– إلا بجهد ، تحوّل إلى شيء يشبه الطّمانينة كثيرا.. وكانت تشعر– وهي جالسة بين هذين الرجلين اللذين يقتسمان حياتها– كما لو انها كانت الممثلة الأولى في فيلم درامي عاطفي غامض ، فحاولت أن تتصرف على هذا الاعتبار فكانت تبتسم ساهمة، مرخية أهدابها ، واضعة يدها في لطف على ذراع"**ألبـينوس**" – وهي تطلب إليه ان يناولها الفاكهة– ملقية بنظرة خاطفة في غير مبالاة إلى عشيقها السّابق.

وفجأة قالت في نفسها ، وقد جرت رجفة لذيذة طويلةفي سلسلة ظهرها:" كلاّ..، لن ادعه يفلت مرّة اخرى.. لاخوف من ذلك!" .

وتكلّم "**ريكس**" كثيرا.. ومن بين اشياء كثيرة مسلية، ذكر لهما قصة مضحكة عن "**لوهنجـرين**" الفلكي السكران الذي فاته كوكب "الدجاجة" وراح ينتظر عبثا مرور الكوكب التّالي !.. وضحك "**ألبينوس**" من قلبه ، وإن كان "**ريكس**" يعلم انه لم يدرك إلا نصف المزحة ، وأن نصفها الآخر هو الذي جعل "**مارجوت**" تعض شفتيها .. ولم يكن ينظر إليها إلا قليلا وهو يتحدث ، حتّى إذا صوّب إليها عينيه، كانت ترخي أهدابها على

الفور ، ناظرة إلى المكان الذي استقرّت عليه عيناه من ثوبها ، فتمرّ بيدها عليه دون وعي!

وما لبث "**ألبينوس**" ان قال وهو يغمز بعينيه :" وسريعا ما سنرى شخصا ما على شاشة السّينما ا". فتجهمت "**مارجوت**" وضربت يده بخفّة ، بينما سالها "**أكسيل ريكس**"،:" هل انت ممثّلة؟ ..اوه، حقا؟..، وهل لي ان اسال في اي فيلم تظهرين؟".

فاجابته دون ان تنظر إليه، وقد شعرت بزهو عظيم.. فإنه إذا كان فنانا مشهورا ، فهي نجمة سينمائية، ومن ثم فقد أصبحا في مستوى واحد!

*****

وخرج "**ريكس**" بعد الغداء مباشرة .. وفكّر هنيهة فيما يفعل بعد ذلك، ثم ذهب إلى ناد للقمار .. وفي اليوم التالي زار "**ألبينوس**" ، واصطحبه إلى معرض للصور الحديثة.. وفي اليوم الذي يليه ، تناول الغداء في منزل "**ألبينوس**"، وقد سال – على غير توقع- عن "**مارجوت**"، ولكنّها لم تكن بالمنزل ، ومن ثمّ كان عليه ان يحتمل محادثة طويلة مع "**ألبينوس**" ، الذي كان قد بدا يحبّه حبا عظيما .. وكاد "**ريكس**" يرزح تحت الضّيق الشديد، لولا أن القدر أشفق عليه- أخيرا- فساق فرصة لإسعاد قلبه: مباراة "**الهوكي**" على الجليد في قصر الألعاب. فما إن عادت "**مارجوت**" ، حتى اقترح ان يذهبوا جميعا لمشاهدة المباراة .

وإذا كان ثلاثتهم ياخذون طريقهم إلى مقصورتهم، لمح "**ألبينوس**" كتفي "**بول**"وضفيرة "**إيرما**" الشقراء.. وكان لابد من ان يحدث شيء من هذا في يوم أو آخر.. إلا انه بوغت أشدّ مباغتة- برغم أنه كان على الدوام يتوقعه- حتى لقد انحرف بقوة، فدفع "**مارجوت**" دفعة عنيفة وهو يفعل ذلك ، فقالت له ببذاءة:" انظر يا هذا ماذا انت فاعل!". فقال لها "**ألبينوس**" :" استريحي واطلبي بعض القهوة .. لدي .. محادثة تليفونية لابد منها.. لقد نسيت ذلك تماما!".

وهبت "**مارجوت**" واقفة مرّة اخرى، وهي تقول:" أرجوك .. لاتذهب!". فاصرّ

قائلا: " إن الأمر عاجل".

وراح يحني كتفيه محاولا ان ينكمش قدر الإمكان ، حتى لاتلمحه ابنته ، ثمّ قال لـ"**مارجوت**" : " إذا تاخرت ، فلا تنزعجي!.. معذرة يا "**ريكس**".

وعـادت "**مارجوت**" تقول، مرددة بتؤدة شديدة: " ارجوك ان تبقى! ". ولكنه لم يلاحظ نظرتها الغريبة، ولم ينتبه إليها وقد احتقن خداها وارتعشت شفتاها.. واسرع إلى باب الخروج وقد اصبح ظهره مقوسا تماما.

وانقضت لحظة سكوت ، ثم ندت عن "**ريكس**" زفرة عظيمة، وقال بالفرنسيّة وهو ينفخ دخان سيجارته : " اخيرا.. وحدنا! ". وكانا يجلسان جنبا إلى جنب في مقصورتهما، إلى منضدة صغيرة ذات مفرش ناصع البياض.. وفي اسفل – خلف الحاجز مباشرة – كانت تمتد ساحة الثلج ..

وكانت الفرقة تؤدي العابا بهلوانيّة عنيفة ، والثلج يسطع ببرق ازرق زيتيّ، والجو حار وبارد في ذات الوقت.

وقـالـت "**مـارجـوت**" فجاة: " هل تفهم الآن؟" .. ولم تكن هي نفسها تفهم سرّ تساؤلها ، وهمّ "**ريكس**" ان يجيب، لولا ان عاصفة هتاف دوت في هذه اللحظة داخل الدار العظيمة فضغط على اصابعها الصغيرة تحت المائدة.. وعندئذ شعرت بدموع تطفر من عينيها ، ولكنها لم تسحب يدها !

وفي هذه اللحظة اقبلت فتاة في ثياب بيضاء محبوكة عليها، وجونلة قصيرة فضية اللون ذات حاشية مخمليّة تنزلق فوق الثلج على اطراف قبقابي الانزلاق، وصنعت بقوة الاندفاع قوسا جميلا، ثم قفزت واستدارت ، ثمّ انطلقت منزلقة مرّة اخرى بسرعة البرق الخاطف ، وهي تدور وترقص ، ضاربة الثّلج ضربات حادة..

وعادت "**مارجوت**" تقول : " لقد خدعتني! " .. فاجابها قائلا: " نعم ، ولكنني عدت إليك ، اليس كذلك؟.. لاتبكي ياطفلتي..هل انت معه منذ وقت طويل؟" . وحاولت ان تتكلم ولكن الضجيج الهائل ملأ الدار ثانية ، ثمّ خلت رقعة الثلج مرة أخرى ، فاسندت "**مارجوت**" مرفقيها إلى المنضدة ، وضغطت بكفيها على جانبي راسها .

وعاد اللاعبون – بين الهتاف والتصفيق والضّجيج ينزلقون على مهل فوق صفحة الثّلج :سّويديّون في المقدّمة، ثمّ الألمان.. وكان حارس مرمى الزّائرين– بصدريّته النّاصعة، والوسائد الجلدية الضخمة التي تكسو ساقيه إلى أعلى الفخذين – ينزلق ببطء نحو مرماه .

وقالت "مارجوت" : " إنّه سيحملها على ان تطلقه.. فهل ترى اية لحظة حرجة اخترتها لتجيء فيها؟" .

– هراء.. اتعتقدين حقا انه سيتزوجك؟

– لو انك افسدت الامور فلن يفعل..

– كلا يا "مارجوت" .. إنه لن يتزوجك!

– وأنا اقول لك إنه سيفعل ذلك!

واستمرت شفاههما تتحرك، ولكن الضجيج الذي كان يدوي حولهما خنق عراكهما الخفيف. وكانت الجموع تهدر بالهياج، والعصيّ البارعة تتبع الكرة على الثّلج وتضربها، وتقتنصها ، وتمررها ، وتفقدها ، وتتصادم معا في تلاطم سريع .. وحارس المرمى– وهو يتّجه بخفة إلى هنا وهناك وهو في موقعه – يضم رجليه إحداهما إلى الأخرى، وقد كونت وسادتيهما درعا واحدا.

وعادت "مارجوت" تقول: " إنّه لأمر فظيع انك عدت، فانت متسوّل بالنسبه إليه!.. يا إلهي الرحيم.. إنّني أعلم الآن انك ستفسد كل شيء ! " .

– هراء، هراء.. سنكون حريصين جدا.

– إنني اكاد اجن.. اخرجني من هذه الضوضاء!..

فلننصرف ، فانا متاكّدة انه لن يعود الآن ، ولو عاد، فسوف يكون هذا درسا طيبا له!

– تعالي إلى مسكني.. يجب ان تاتي ، ولاتكوني حمقاء.. فإننا سنسرع ، وستنصرفين بعد ساعة واحدة.

– اسكت ! لن اقدم على أيّة مخاطرة .. لقد عملت منذ اشهر كي اصل به إلى هذه الغاية، وقد أصبح الآن في يدي .. فهل تنتظر مني حقا أن القي بكل شيء الآن ؟

وقال "ريكس"بلهجة اقتناع : " إنه لن يتزوجك! " .

فصاحت قائلة: " هل تأخذني إلى المنزل أم لا؟ ".

وبرقت في ذهنها فكرة، فقالت في نفسها: " سأتركه يقبلني في العربة ". ولكنّه قال: " انتظري قليلا.. كيف عرفت انني مفلس؟. فأجابته قائلة: " يمكنني ان أرى ذلك في عينيك "، ثم سدت أذنيها، وقد بلغ الآن الضجيج قمّته، فقد أحرز الألمان هدفا.. وكان حارس المرمى السويدي منكبا على وجهه فوق الثّلج، والعصيّ- التي طارت من يده تدور وتدور وهي تنزلق على الثلج كأنها مجداف مفقود.

وقال "**ريكس**": " إن ما أريد ان أقوله إن التهرب من الواقع إضاعة للوقت، فهو سيحدث عاجلا أو آجلا، فتعالي معي!.. إن ثمة منظرا بديعا في نافذتي حين يرخي الليل سدوله". فأجابته قائلة: " لو قلت كلمة أخرى، فسأذهب إلى المنزل وحدي! ".

*****

وعندما كانا يشقّان طريقهما خلف المقاصير، جفلت "**مارجوت**" وعبست، فقد كان ثمّة رجل وجيه ضخم الجسم، ذو نظارات سميكة الإطار، ينظر إليها في تقزّز واشمئزاز.. وبجانبه صبية تتابع المباراة خلال منظار مقرب.

وقالت "**مارجوت**" لمرافقها بسرعة: " انظر خلفك!..

هل ترى ذلك الرجل البدين الذي معه الطفلة؟ إنه شقيق زوجته، وهذه هي ابنته.. وقد فهمت الآن لماذا أسرع بالخروج.. فيا لأسفي إذ لم ألاحظهما من قبل!..

لقد كان شقيق زوجته وقحا جدا معي ذات مرة، حتى لأود لو جلده شخص ما بالسياط!". فقال "**ريكس**" وهو يهبط الدّرجات النّاعمة الضيقة بجانبها: " ومع ذلك؛ تكلمينني عن أجراس الزّواج؟.. إنه لن يتزوج أبدا!.. والآن اسمعي يا حبيبتي، إن عندي اقتراحا جديدا أقدمه، وهو الاقتراح الأخير فيما أظنّ".

وسألته "**مارجوت**" قائلة بارتياب: " وما هو؟ ". فأجاب قائلا: " سآخذك إلى المنزل بالفعل.. ولكن عليك أن تدفعي أجر المركبة يا عزيزتي! ".

الفصل التاسع عشر

راح "بول" يحدّج "مارجوت" بنظره، وقد غدت طيّات الشحم المتراكمة فوق ياقته، بلون البنجر.. وما كان- رغم دماثة خلقه - ليتردد في أن يفعل بها ما ارادت هي أن تفعله به..

وتساءل في نفسه عمن يكون الشّخص الذي كان يرافقها.

كما تساءل أين "ألبينوس" .. فقد ساوره شعور مؤكد بانه لابد ان يكون في مكان ما من دار العرض. وأفزعته فجاة فكرة أن الطفلة قد تراه، ومن ثم فقد ارتاح جدا حين انطلقت الصّفارة معلنة انتهاء المباراة ، وأمكنه ان ينجو بنفسه مع "إيرما" .. على أنها بدت- حين بلغا البيت- متعبة ، ولم تكن تجيب على اسئلة امّها عن المباراة إلا بهزّة من راسها ، وبتلك الابتسامة الواهنة الغامضة التي كانت من أجمل صفاتها.

وقال "بول" :" ما أروع الطّريقة التي كان اللاعبون ينزلقون بها على الثلج. فرمقته "إليزابيث" بنظرة طويلة، ثم تحوّلت إلى ابنتها قائلة: "حان وقت النوم.. حان وقت النّوم!" . فقالت "إيرما" متوسّلة وهي تغالب النّعاس:" أواه. كلا!" .

فقالت امّها :" يا لله .. لقد قاربنا منتصف الليل.. ولم يسبق لك ان تاخرت هكذا أبدا"

وإذ نامت الطفلة، قالت "إليزابيث" لشقيقها:

" قل لي يا "بول" ، إنني اشعر بان شيئا ما قد حدث..

فقد كنت قلقة جدا وانتم في الخارج.. صارحني يا "بول" ، ماذا حدث؟" . فقال وقد احمر وجهه احمرارا شديدا :" ولكن ليس لدي ما اقوله !" .

وقالت تتلمس تبريرا لشعورها :" الم تقابل احدا؟

احقّا لم تقابل احدا؟" .. فارتبك ارتباكا تاما أمام ذلك الإحساس المرهف، الذي تضاعف عند "إليزابيث" منذ انفصالها عن زوجها، وغمغم قائلا:" ما الذي وضع مثل هذه الفكرة في ذهنك؟" فهمست، وهي تخفض راسها في بطء قائلة:" إنني أخشى ذلك دائما" .

وفي الصّباح التالي ، دخلت المربية حجرة "**إليزابيث**" وميزان الحرارة "الترمومتر في يدها. وأيقظتها قائلة: "إن "**إيرما**" مريضة يا سيدتي .. لقد بلغت حرارتها الواحدة بعد المائة(١) .. فردّدت "**إليزابيث**" كلمتها قائلة:؛ الواحدة بعد المائة؟" . وخطر لها فجأة "هذا – إذن – هو السبب في انني كنت متضايقة بالأمس " .

ونهضت من فراشها ، وهرعت إلى غرفة "**إيرما**" ، فإذا بها مستلقية على ظهرها ، تحدق في السّقف بعينين متالقتين.

وما لبثت ان تمتمت قائلة: " صيّاد وزورق ! " ، وهي تشير إلى السقف الذي كان ضوء مصباح الفراش يلقي عليه ظلالا تؤلّف فيما بينها بعض المناظر.. وكان الوقت باكرا وباردا .. وسألتها "**إليزابيث**" ، وهي ما تزال تعالج لبس ثوبها : " هل حلقك يوجعك يا حبيبتي ؟" . وانحنت منزعجة على وجه الطّفلة الصغيرة المدبب، وغمغمت وهي تزيح الشعر الجميل عن جبين "**إيرما**" قائلة: " يا إلهي .. ما أدفأ جبينها ! " .

واستمرّت "**إيرما**" تقول بصوت خافت، وهي ما تزال ناظرة إلى أعلى : " بوصة ، اثنتان ، ثلاث ، أربع" . .

فقالت "**إليزابيث**" : " الأفضل ان نستدعي الدكتور! " .

فقالت المربية: " لاداعي لذلك يا سيّدتي .. ولسوف أعطيها بعض الشاي الساخن بالليمون ،وقرص أسبرين .. إن الناس جميعا مصابون بالسخونة في هذه الأيام" .

وقرعت "**إليزابيث**" باب غرفة "**بول**" .. وكان يحلق ذقنه، فاسرع– والصابون ما زال على وجنتيه– إلى غرفة "**إيرما**" .. وكان "**بول**" يجرح نفسه كثيرا حين يحلق ذقنه،فبدت بقعة حمراء متالقة خلال رغوة الصابون على ذقنة .. حين انحنى على "**إيرما**" ، كانت تقول: " فراولة ، وقشدة" ..

*****

ووصل الدكتور في المساء ، فجلس على حافة فراش الطّفلة ، وبدا– وعيناه مثبتتان في ركن من أركان الغرفة– يعد نبضها ، وهي تحدّق في الشّعر الأبيض النابت في تجويف

---

(١) هذه الحرارة تقابل ٢ ,٣٨ درجة مئوية.

أذنه الكبيرة المعقّدة، وفي العرق المتعرج على وجنته المتورّدة..

وما لبث الدكتور ان قال: "حسنا!"، وهو ينظر إلى **"إيرما"** من فوق إطار نظارته . ثم طلب إليها ان تجلس .

وجذبت **"إليزابيث"** قميص الطّفلة إلى أعلى ، فبدا جسمها شديد البياض، نحيفا، وقد برزت عظام الكتفين .

ووضع الدكتور سمّاعته على ظهرها ، وإذ كانت تتنفس تنفسا بطيئا ، طلب إليها ان تزيد من تنفّسها ، ثم قال مرّة اخرى : "حسنا!". وأخذ ينقر على مختلف أجزاء صدرها ، يتحسسها باصابعه المثلجة .. وانتصب الطبيب أخيرا ، وربت رأس **"إيرما"** ، ثم غسل يديه، وانزل أطراف كميه ، وقادته **"إليزابيث"** إلى غرفة المكتب، حيث جلس وأخرج قلمه ، وكتب ورقة الدّواء . ثم قال :" نعم.. إن الإنفلونزا منتشرة جدا في هذه الأيام.. وقد ألغيت أمس حفلة، لأن المغنية ومرافقتها ، مصابتان كلتاهما بها" .

وفي الصّباح التّالي هبطت حرارة **"إيرما"** بدرجة ملحوظة ..

بيد أن **"بول"** كان من جانبه متوّعكا جدّا، وكانت أنفاسه تتهدج ، وأنفه ينخر، ولكنه رفض رفضا باتا أن يرقد في فراشه، بل لقد ذهب إلى مكتبه كالعادة.. وكذلك أخذت المربية تعطس.

وفي مساء ذلك اليوم- حين سحبت **"إليزابيث"** ميزان الحرارة الزجاجيّ من إبط ابنتها- سرّها أن رأت الزئبق لايكاد يبلغ خط الحمى الاحمر.. وحجبت **"إيرما"** عينيها عن الضوء الذي كان يبهر بصرها، ثم ادارت وجهها إلى الحائط، وقد ران الظّلام على الحجرة مرة اخرى ، وسرعان ما نعست .. إلا انها استيقظت في منتصف الليل على اثر حلم مزعج .. وكانت عطشانة ، فمدّت يدها إلى كوب الليمون اللزج الذي كان على المنضدة المجاورة للسرير ، وافرغته ، ثم اعادته برفق، وهي تمصّ شفتيها في دعة .وكانت الحجرة تبدو مظلمة أكثر من المعتاد ، وفي الغرفة المجاورة كانت المربّية تغطّ بصوت مرتفع، فراحت **"إيرما"** تنصت إليها، ثم راحت تنتظر الضجة المألوفة التي يحدثها القطار الكهربائي وهو يخرج من تحت الأرض قريبا جدا من المنزل .. ولكنّه لم يأت ،

فلعلّ الوقت كان متاخرا جدا، وقد توقّفت القطارات عن السير .. ونامت "إيرمــا" بعينين مفتوحتين .. وفجاة سمعت صفيرا مالوفا ذا أربع نغمات يتصاعد من الشّارع .. هو بالضبط صفير ابيها الذي كان يعزفه حين يعود إلى المنزل ، كي ينبّههم إلى انه سيكون معهم بعد لحظة، وان عليهم ان يعدوا العشاء..

وكــانت "إيرمــا" تعلم تماما انه ليس أباها، وإنما هو رجل اعتاد- في الأسبوعين الأخيرين – أن يزور السّيدة التي تقطن الطابق الرابع.. وقد قالت لها ابنة البواب الصغيرة ذلك، واخرجت لسانها حين قالت "إيرمــا" - بحق-إنه من الحماقة ان ياتي متاخرا هكذا.. وكانت تعلم كذلك انه ليس من الجائز لها ان تتكلم عن أبيها الذي يعيش مع صديقته الصغيرة .. وهو أمر عرفت به من حديث سيدتين كانتا تنزلان السّلم أمامها!

وتكرر الصّفير تحت النافذة ، فقالت "إيرما" في نفسها:

" من يدري؟ لعلّه أبي بعد كلّ شيء .. ولن يسمح له أحد بالدخول .. ولعلهم قالوا لي متعمدين انه رجل غريب! ".

وأزاحت الغطاء عنها ، وذهبت على اطراف أصابعها إلى النافذة.. وقد ارتطمت وهي تفعل ذلك بمقعد فسقط عنه شيء ناعم- هو دميتها التي كانت على صورة الفيل- محدثا صوتا وصريرا .. إلا ان المربية استمرت تغط!

وفتحت "إيرمــا" النّافذة ، فاندفع منها إلى الدّاخل تّيار هواء بارد كالثّلج .. وفي ظلام الشّارع ، رأت شخصا واقفا ينظر إلى اعلى المنزل .. وقد حدّقت فيه وقتا طويلا ولكنّه – واأسفاه!ـ لم يكن اباها..

وقد اطال الوقوف هنالك ، ثم استدار أخيرا ومشى ببطء، فشعرت "إيرمــا" بالأسى يملأ قلبها. وكان البرد قد جمّدها حتى لقد قاست عناء في سبيل إغلاق النّافذة . ولم يعد في إمكانها أن تشعر بالدفء مرة أخرى حين عادت إلى فراشها .. وأخيرا نعست ، وحلمت أنها تلعب الهوكي مع أبيها .. وأنّه ضحك وانزلق ثم سقط على فخذيه ، ووقعت منه قبّعته العالية.. وأنها سقطت هي كذلك .. وكان الثّلج قارسا تحتها ولكنها لم تستطع أن تقف مرة أخرى، وقد طاحت عصا الهوكي- التي كانت معها بعيدا-

وانزلقت كأنها دودة تزحف!..

*****

وفي الصّباح التّالي ارتفعت حرارتها إلى أربع درجات بعد المائة، وصار وجهها داكنا، واشتكت من ألم في جنبها .. فاستدعوا الطبيب حالا.. وقد بلغ نبضها مائة وعشرين، وكان موضع الألم من الصدرصامتا تحت نقرات أصابع الطّبيب، وقد أظهرت السماعة لغطا في الرئة، فأمر بوضع "لزاق على صدرها، وإعطائها دواء ملطّفا..

وأحسّت "**إليزابيث**" -فجأة- بأنّها ستفقد عقلها، وبأنه ليس من حق القدر- بعد كل الذي حدث- أن يعذبها هكذا.. وبمجهود عظيم جرت قدميها جرّا كي تودّع الطّبيب، الذي ألقى نظرة- قبل أن يذهب- على المربية، فإذا بها محمومة جدا، ولكنها لقوة بنيتها لم تكن في حال تدعو للانزعاج عليها.

وصحب "**بول**" الدكتور إلى البهو، وسأله هامسا- وقد حبس البرد صوته- عمّا إذا كان ثمّة خطر. فأجابه الدكتور قائلا ببطء: " سأعود اليوم مرّة أخرى ".

وقال "**لامبرت**"- الشيخ- في نفسه وهو ينزل السّلم. "دائما ذات الأمر، وذات الأسئلة، وذات النّظرات المتوسلة!".. ونظر في مفكرته، واندس خلف عجلة القيادة في سيارته، وهو يصفق الباب، وبعد خمس دقائق، كان يدخل منزلا آخر.. منزل "**ألبينوس**" الذي استقبله وهو يرتدي سترته الحريريّة المطرزة- التي كان يرتديها أثناء العمل في غرفة مكتبه - وقال له في انزعاج: " إنّها تشعر بأنها ليست على ما يرام منذ الأمس.. وهي تشكو ألما في جسمها كلّه".

فسأله "**لامبرت**" عن حرارتها، وهو حائر فيما إذا كان ينبغي أن يقول لهذا العاشق الولهان أن ابنته مصابة بالالتهاب الرّئوي.. وأجابه "**ألبينوس**" وهو منزعج: " كلاّ، وهذا هو الإشكال.. فإن حرارتها ليست مرتفعة، وقد قيل لي إن الإنفلونزا إذا لم تصحبها حرارة تكون خطرة".

وقال "**لامبرت**" في نفسه: " لماذا أقول له؟ لقد هجر عائلته دون وازع من ضمير..

فليقولوا له بأنفسهم إن ارادوا .. أما أنا ، فلماذا أتدخل؟" . ثم التفت إلى "**ألبينوس**" وزفر قائلا: " حسنا .. فلنلق نظرة على مريضتنا الفاتنة! " .

وكانت "**مارجوت**" راقدة على الأريكة ، متوردة الوجة، مرتدية قميصا من الحرير الموشّى "بالدّانتلا" .. وقد جلس "**ريكس**" بجانبها ، طاويا ساقيه إحداهما فوق الأخرى، وهو يرسم رأسها البديع على ظهر علبة سجائر. فقال "**لامبرت**" في نفسه: " إنها لمخلوق بديع بلا شك .. إلا أن ثمّة شيئا ثعبانيا يكتنفها " .

وانسحب "**ريكس**" إلى الغرفة المجاورة ، وهو يصفر بفمه.. وراح "**ألبينوس**" يتسكع قريبا جدا ، بينما اقبل "**لامبرت**" يفحص المريضة .. وكان ما بها برد خفيف .. هذا كل شيء . فقال لها: يحسن ان تلازمي البيت يومين أو ثلاثة.. وبهذه المناسبة ماأخبار الفيلم؟ هل انتهيتم منه؟"

فأجابت "**مارجوت**" وهي تلتف بدثارها في وهن قائلة: " نعم ، الحمد لله.. وفي الشهر المقبل سيكون ثمّة عرض خاص له .. وينبغي ان تكون صحّتي قد تحسنت في ذلك الوقت، على اي حال" .. وهنا قال "**لامبرت**" في نفسه دون مناسبة : " وفضلا عن ذلك ، فإن هذه اللبؤة الصغيرة ستقضي على "**ألبينوس**"" .

وما إن خرج الدّكتور ، حتى عاد "**ريكس**" إلى جانب "**مارجوت**" واستمر يرسمها في تلكؤ ، وهو يصفّر خلال أسنانه طول الوقت .. ووقف "**ألبينوس**" بضع لحظات بالقرب منه، يتتبّع الحركة المنتظمة ليده البيضاء الناتئة العظام ، ثم ذهب إلى غرفة مكتبه ليكمل مقالا يكتبه عن معرض اختلفت فيه الآراء وكثر عنه الحديث ، وعندئذ قال "**ريكس**" وهو يقهقه ضاحكا: " إنّه لشيء بديع ، أن اكون صديق العائلة! " .

فالتفتت "**مارجوت**" إليه وقالت غاضبة: " نعم، حقا أحبك يا قبيح الصورة، ولكن ما من شيء يمكن عمله أنت نفسك تعرف ذلك! " .

فاقفل علبة السّجائر ، وألقى بها فراحت تدور حول نفسها حتى استقرت على المائدة، وقال لها: " اسمعي ياعزيزتي .. إنك ستأتين عندي ذات يوم.. هذا واضح.

ولاشك أن زياراتي هنا بهيجة وسارة، إلا أنني سئمت هذه المهزلة ، فقالت:" أول كل شيء، أرجو ألا تصيح هكذا.. إنك لن ترتاح ما لم نرتكب أمرا طائشا وخيم العاقبة.. فهو خليق بأن يقتلني أو يطردني لاتفه ريبة أو إثارة .. وعندئذ لن نجد نحن الاثنين مليما واحدا!!" .

وضحك ساخرا وهو يقول:" يقتلك؟.. إن هذا كثير بالنسبة إليه" . فقالت له :" أرجو أن تنتظر قليلا .. ألا تفهم ؟.. لو أنه تزوجني ، لصرت أقل اضطرابا وأكثر حرية في التصرف كما أشاء.. فالزوجة لايمكن التخلص منها بهذه السهولة.. وفضلا عن ذلك، فهنالك الفيلم..

إن عندي كل أنواع المشاريع" . فضحك "**ريكس**"– مرّة أخرى– قائلا: "الفيلم؟" .. فقالت:" نعم، وسوف ترى.. فإنني متأكدة من أنه سيكون عظيما .. يجب أن تصبر ، فإن الصبر يعذبني مثلك يا حبيبي" .

وجلس على حافة أريكتها ، ومر بيده على ذراعها،

فقالت مرتجفة!" كلا كلا" .. وأغمضت عينيها نصف إغماضة، فقال لها :" قبلة واحدة صغيرة فقط!" .

وأجابت في صوت متهافت:" صغيرة جدا!" .

فانحنى عليها. ولكن، اصطفق باب خارج الغرفة –فجأة– وسمعا "**ألبينوس**" يقترب، وخطواته تدب على السجادة، ثم على الأرض ، ثم على السجادة، ثم على الأرض مرة أخرى.. وهم "**ريكس**" بأن يتراجع ، إلا أنه أبصر– في ذات اللحظة – زرا في سترته قد علق بالدانتلا التي على كتف **مارجوت**" .. وحاولت أن تخلّصه بخفة، بينما راح "**ريكس**" يشدّه، ولكن "الدانتلا" أبت أن تترك الزّر.. وزمجرت "**مارجوت**" في فزع وهي تنهش العقدة بأظافرها الحادّة اللامعة.. وفي هذه اللحظة دخل "**ألبينوس**" الغرفة!

وقال "**ريكس**" ببرود" كلا، إنني لاأقبل "**فراولين بيترز**" ، وإنما كنت أساعدها على اتخاذ وضع مريح في جلستها ، كما ترى!" .. وكانت "**مارجوت**" ماتزال

تعالج "الدانتلا" دون أن ترفع أهدابها، وقد أصبح الموقف مضحكا للغاية، فاستمتع به "**ريكس**" كلّ الاستمتاع.. على ان "**ألبينوس**" أخرج- في هدوء- مطواة ضخمة ذات عشر شفرات، فابرز منها مبردا صغيرا راح يحاول تخليص الزر به حتى كسر ظفره.. ومن ثمّ ازداد الموقف حرجا وإضحاكا .. وقال "**ريكس**" : " بحق السماء ، لاتخزها بمبردك!" . فقال "**ألبينوس**" : " ارفعا ايديكما!" .. ولكن "**مارجوت**" صاحت قائلة : " لاتقطع الدانتلا، بل اقطع الزر!" .. فصرخ "**ريكس**" قائلا : " قف.. إنه زري" وبدا في هذه اللحظة أن كلا من الرجلين يسقط على ام رأسها ... ثم شد "**ريكس**" زره شدة اخيرة ، ففتق شيئا ما ، ولم يلبث ان أصبح الزر طليقا.. وعندئذ قال له "**ألبينوس**" بلهجة غامضة: " تعال إلى مكتبي ! " . فقال "**ريكس**" في نفسه : " فلأكن ذكيا" .. وتذكر - في هذه اللحظة- حيلة بارعة أعانته ذات مرّة على خداع غريم له.

*****

وقال "**ألبينوس**" وهو متجهّم جدا: " اجلس من فضلك فإن ما أريد قوله لك في غايةالأهمية.. إنه بصدد ذلك المعرض الذي أقامه "**وايت رافين**" . فقد فكرت فيما إذا كان يعنيك أن تساعدني.. أنت ترى انني انهي مقالا فيه حيطة ودهاء، وتعلم أن كثيرين من العارضين يتلقون معاملة خشنة على يدي!" .. فقال "**ريكس**" في نفسه ساخرا: " ألهذا تبدو مكروبا؟.. أهو توجع العقل المتعلّم ، ومخاض الإلهام ؟.. بديع إذن، بديع!"

ومضى "**ألبينوس**" قائلا: " إن ما أودّ منك ان تفعله ، هو أن توضح مقالي هذا ببعض الرسوم الكاريكاتورية، التي توضح نقدي .. وأنا اقدح الألوان واتجاه الخطوط معا، كما فعلت مرة مع "**بارسيلو**" . فقال "**ريكس**" : " إنني على استعداد ، ولكن لي- أنا الآخر- طلبا صغيرا.. ولعلك تعرف ما أعني. فإنني انتظر سداد بعض اتعابي، بيد أنني محتاج للنّقود الآن.. فهل تدفع لي مقدما مبلغا .. مبلغا زهيدا ؟.. كخمسمائة مارك ، مثلا" .

وقال "**ألبينوس**" :" طبعا ، بل اكثر من ذلك إذا أردت.. وعلى أيّة حال ، يجب أن تحدّد أتعابا عن الرسّوم التي اتفقنا عليها". فسأله "**ريكس**" :" هل هذا "كتالوج"؟..

هل لي أن ألقي نظرة عليه؟". تناول كتيبا ، وما لبث أن قال باشمئزاز واضح وهو يقلبه :" فتيات ..فتيات.. فتيات شوارع، فتيات ساقطات ، فتيات مصابات بداء الفيل!"،

فقال "**ألبينوس**" وهو يرمقه خفية :" لماذا بالله ؟ هل تضيق بالفتيات إلى هذا الحدّ؟".. وإذ شرح له "**ريكس**" حقيقة رأيه في الفتيات بصراحة، قال "**ألبينوس**" إنها ليست إلا مسألة ذوق فيما اعتقد.. وأنا بالطّبع لاألومك، فإنني أعتقد أن هذا أمر شائع جدا بين الرّجال ذوي المزاج الفني.. وقد يسبب لي ذلك اشمئزازا إذا ابتلي به تاجر مثلا.. أما بالنسبة لرسام ، فإن الأمر يختلف كل الاختلاف .. وهو في الواقع أمر لذيذ ، ورومانتيكي .. أخذناه عن "**روما**" .. ثم أضاف قائلا:" بيد أنني أؤكد لك أنك بذلك تفقد الشيء الكثير".

وإذ ذاك قال "**ريكس**" :" كلا. أشكرك ، فليست المرأة عندي سوى مخلوق ثديي أليف، أو هي أحيانا جليس ظريف!".. فضحك "**ألبينوس**" قائلا:" حسنا.. فمادمت صريحا هكذا بصدد هذا الموضوع، دعني بدوري أعترف لك بأن تلك الممثلة "**كارنينا**" قالت بمجرد أن رأتك أنها متأكّدة بأنك لاتهتم بالجنس اللطيف".. فقال "**ريكس**" في نفسه:" أوه ،، هل قالت ذلك؟".

الفصل العشرون

ومرت أيام قليلة ، كانت "**مارجوت**" خلالها تسعل. ولما كانت شديدة الخوف على نفسها ، فقد حرصت على البقاء بالمنزل .. وإذ لم يكن ثمة ما تفعله – لاسيّما ان القراءة لم تكن من فضائلها – راحت تسلّي نفسها بالطريقة التي علّمها إيّاها "**ريكس**" .. وهي أن تستلقي مسترخية على خليط جميل من الوسادات ، وتنتقي من دليل التّليفون أرقاما، كيفما اتفق – لأشخاص وحوانيت وشركات أعمال– وتروح تتحدّث إلى أولئك الذين لا تعرفهم على الإطلاق.. وقد طلبت بهذه الطريقة إرسال زهور زنبق وجهاز راديو وأشياء أخرى إلى عناوين اختارتها اعتباطا.. وسخرت من مواطنين أفاضل ، ناصحة زوجاتهم بان يكن أقل سذاجة .. وراحت تدير كل رقم– من أرقام معينة– عشر مرات متوالية، ومن ثم ألهبت نار الغيظ والقنوط في صدور السّادة"**تروم**" ، و"**بوم**" و"**كاسبير**" .. وقد تلقّت عددا من عبارات الغرام الرائعة ، وعددا أكبر من الشتائم واللعنات..

وفيما هي كذلك ، دخل "**ألبينوس**" ووقف يراقبها وعلى فمه ابتسامة هيام مدلهة.. وكانت تطلب تابوتا لمن تدعى "**فراو كيرشهوف**" .. وكان الكيمونو الياباني الذي ترتديه محلولا ، وقدماها الصّغيرتان تتأرجحان في سرور خبيث ، وعيناها الواسعتان – وهي تنصت – تتحركان في حدقتيهما ذات اليمين وذات اليسار .. و"**ألبينوس**" واقف في سكون ، على قيد خطوات منها ، يكاد يذوب من فرط الشّغف بها ، وهو خائف ان يقترب منها فيفسد متعتها ..

وما لبثت أن طلبت البروفيسور "**جريم**" ، وراحت تحكي له قصة حياتها ، وتتوسل إليه أن يقابلها عند منتصف الليل.. بينما كان البروفيسور – في الطّرف الآخر من الخط– يجادل نفسه في اهتمام خطير، متسائلا في حيرة مؤلمة عمّا إذا كانت هذه الدعوة لعبة ساخرة ، او هي من نتائج شهرته كأستاذ في علم الأسماك وطبائعها!

وبسبب عبث "**مارجوت**" في التّليفون ، لم يكن غريبا ان ظل "**بول**" يحاول نصف

ساعة ان يتصل بـ"**ألبينوس**" ، ولكن دون جدوى.. وهو ما يفتا يدير الرقم ثم يديره ، فلايجيبه في كل مرة إلا ذلك الأزيز الذي لايرحم. واضطر- اخيرا- إلى ان ينهض، وقد شعر بدوار ينتابه، فارتمى في مكانه مرّة اخرى.. وكان الأرق قد لازمه في الليلتين الماضيتين، فهو مريض ،وهو غارق في لجة من الكمد.. ولكن واجبه -مهما يكن الأمر- ان يتّصل بـ"**ألبينوس**" وقد قرّر ان يتّصل به ، إلا ان ذلك الأزيز المتّصل جعله يعتقد ان القدر قد صمّم على ان يحبط عزمه، ولكنه كان عنيدا : فإذا كان قد اخفق في إنجاز الأمر بهذه الطّريقة، فليجرّب طريقة اخرى..

وذهب على أطراف أصابعه إلى غرفة "**إيرما**" .. وكانت مظلمة ، وساكنة ، برغم وجود عدة أشخاص بها.. ولمحت عينه مؤخر رأس اخته، ومشطها الخلفي، والشّال الصّوف الذي يحيط بكتفيها.. فاستدار فجاة في حزم، وخرج إلى البهو، فتناول معطفه في عجلة- وهو يزفر ويكتم نشيجه - وانطلق لياتي بـ"**ألبينوس**". فلما وصل ، قال لسائق السّيارة: "انتظر" ، ثم نزل على الطوار امام المنزل المالوف..

وكان يدفع الباب الخارجي ، حين كان "**ريكس**" يهم بصعود السلم، وقد دخلا معا، في ذات اللحظة ، ونظر كل منهما للآخر ، ثم قال "**بول**" متجهما :" هل انت في الطريق إلى مسكن الهر "**ألبينوس**"؟.. فابتسم "**ريكس**" وهز راسه، فقال له "**بول**" :" إذن دعني اقل لك إنه لن يمكنه استقبال اي زائر الآن، فانا شقيق زوجته ، وعندي اخبار له في غاية السوءا" . وإذ ذاك قال "**ريكس**" في رفق :" هل تود أن تعهد إلي برسالتك؟" .

وكان "**بول**" يعاني من ضيق التنفس ، فتوقف على السلم، وبراس منكّس - كانه الثور - نظر إلى "**ريكس**" الذي كان يحدق في وجهه اللاهث المخضل بالدّموع.. فقال "**بول**"اخيرا ، وهو يتنفس بصعوبة : "انصحك بان تؤجّل زيارتك .. فإن طفلة زوج أختي تموتا" .. واستمر يصعد السّلم و"**ريكس**" يتبعه ببطء .. وإذ سمع خطواته الوقحة خلفه ، احس بالدم يندفع إلى راسه، ولكنه كان يخشى ان تشتد عليه نوبة

الربو، فكبح انفعاله.. حتى إذا بلغا باب الشقة ، استدار مرّة أخرى إلى "**ريكس**"وقـال له:"إنني لاأعرف من انت ولا ماذا انت ، ولكنني لا افهم سبب إصرارك" .

واجـاب "**ريكس**"في تودد قائلا:" او..إن اسمي "**أكسيل ريكس**"،.. وانا هنـا في بيتي!" . ثم مد اصبعه الطويل الابيض ، وضغط الجرس الكهربائي . فقال "**بـول**" فـي نفسه:" هل اضربه؟" .. ثم قال:" ولكـن ما جدوى ذلك الآن ؟ كل ما يهـمني ان أؤدي المهـمة باسرع ما يكون" .

*****

وفتح الباب لهما خادم قصير اشيب الشعر– وكان "اللورد" قد طرد من الخدمة– فقال "**ريكـس**" وهو يزفر :" قل لسيدك إن هذا السيّد.." . ولكن "**بـول**"بادره قائلا:"اخرس انت!" ، وراح – وهو واقف وسط البهو– يصيح باعلى صوته: "**ألبير**" .. **ألبير**"!" .

وإذ وقعت عينا "**ألبينوس**" على وجه شقيق زوجته المتجهم ، اندفع نحوه في ارتباك، وزلقت قدمه فتمالك نفسه، ثم وقف لايريم حراكا. فقال "**بـول**" وهو يضـرب الأرض بعصاه :" إن "**إيرما**" مريضة في حالة خطرة.. فالأفضل ان تاتي فورا!" .

وساد السّكون هنيـهة ، وقد وقف "**ريكس**" يرقبـهما في فضول شره.. وفجاة دوّى صوت "**مارجوت**" المجلجل– من داخل غرفة الجلوس– قائلة:" "**ألبير**" .. اريد ان اتحدث إليك!" . فـقـال "**ألبـينوس**" متلعثـما:" هانـذا آت حالا" .. واسرع إلى غرفة الجلوس.. وكانـت "**مارجوت**" واقفة وذراعاها معقودتان على صدرها.. فقال لها :" ابنتي الصغيرة مريضة في خطر.. وانا ذاهب لأراها حالا" .

فصاحت "**مارجوت**" في غضب قائلة:" إنهم يكذبون عليك..

إنها مكيدة يغرونك بها لتعود إليهم!" .

فقال متوسّلا :" ارجوك يا "**مارجوت**" .. من اجل الله!" .

فامسكت يده قائلة:" وما رأيك في أن اذهب انا معك؟" .

فتوسل إليها مرة أخرى قائلا: "كفى بالله يا "**مارجوت**" !.. يجب أن تفهمي .. أين معطفي؟.. إنه ينتظرني".

فقالت: "إنهم يعبثون بك.. لن أدعك تذهب!".. وعاد يقول متلعثما، وقد فتح عينيه إلى أقصى اتساعهما: "إنهم ينتظرونني".. فقالت: "اذهب إذا جرؤت!".

وكان "**بول**" واقفا في مكانه السابق من البهو، ينقر الأرض بعصاه ..، وجاء "**ريكس**" بصندوق صغير مطعم بالميناء، وقدم لـ"**بول**" بعض الحلوى، ولكن الأصوات كانت تتصاعد ثائرة من غرفة الجلوس، فأزاح "**بول**" الحلوى بمرفقه وسكبها على الأرض.. وضحك، "**ريكس**"، بينما استمر هدير الأصوات .. فزمجر "**بول**" قائلا: "لافائدة!"، ثم اندفع إلى الخارج ونزل السّلم مسرعا.

وإذ عاد إلى داره سالته المربية في همس: "وبعد ؟".

فقال: كلا، إنه لن ياتي".. وغطّى عينيه بيده لحظة وسعل، ثم دخل على اطراف اصابعه إلى غرفة "**إيرما**" ولم يكن ثمة شيء قد تغير في الغرفة، وقد راحت "**إيرما**" تطوّح راسها يمنة ويسرة في بطء- وبحركة رتيبة- فوق الوسادة، وعيناها نصف المفتوحتين مظلمتان..

ومن لحظة لأخرى كانت تنتابها نوبة فواق.. وراحت "**إليزابيث**" تمرّ بيدها على الفراش تحتها، وكأنها تمهده بحركة آلية لاوعي فيها .. وفي هذه اللحظة، سقطت ملعقة من على المائدة. فظل صوتها يطن في آذان الجالسين وقتا طويلا. وتقدمت ممرضة المستشفى إلى الطفلة المسجاة ،وراحت تعد نبضها، ثم طرفت بعينيها، وأعادت اليد الصّغيرة في حذر، كما لو كانت تخاف أن تؤذيها !

وهمست "**إليزابيث**" قائلة: "ربما تكون عطشانة!".

فهزت الممرضة رأسها .. وسعل شخص ما في الغرفة سعلة خافتة، فحركت "**إيرما**" رأسها، ورفعت ركبتها الواهنة تحت الغطاء، ثم أعادتها مرة أخرى ببطء شديد.. وارتفع صرير الباب، ثم دخلت الممرضة وهمست بشيء ما في أذن "**بول**" فهز راسه، وخرجت .. ثم ارتفع صرير الباب مرة اخرى، ولكن "**إليزابيث**" لم تحول رأسها..

ووقف الرجل الذي دخل، على بعد خطوتين من الفراش.. ولمح في غير وضوح شعر زوجته الأشقر، ولكنّه رأى -بجلاء آلمه- وجه "**إيرما**"، بفتحتي أنفها الصّغيرتين السوداويين، والبياض الضارب إلى الصفرة يكسو جبينها المستدير.. وظلّ جامدا في وقفته وقتا طويلا، وهو فاغر فاه.. وشخص ما- هو ابن عمّ بعيد له - يمسكه من تحت إبطه.. ثم وجد نفسه جالسا في غرفة مكتب "**بول**".. وكانت تجلسُ على الاريكة التي في الركن سيّدتان، لم يستطع ان يتذكر اسميهما، وقد راحتا تتحدثّان في همس.. وتولّاه شعور غريب بانه لو تذكر اسميهما، لعاد كلّ شيء على ما يرام مرّة اخرى.. وكانت مربية "**إيرما**" تبكي وهي منكفئة على مقعد طويل.. وثمّة رجل فاضل كبير السن- ذو جبهة واسعة صلعاء - يقف وهو يدخّن عند النافذة، ومن حين لآخر يغير وضع قدميه.. وعلى المائدة طبق زجاجي كبير ممتلئ بالبرتقال.

وتمتم "**ألبينوس**"، وهو يرفع حاجبيه، قائلا دون أن يوجه كلامه إلى شخص معين: "لماذا لم يرسلوا إليّ من قبل؟".. وتجهّم وجهه، وهز رأسه، وراح يضغط مفاصل أصابعه، ثم ساد السّكون.. وكان المنبه "يطقطق على رف غرفة المائدة.. وخرج "**لامبرت**" من غرفة "**إيرما**"، فسأله "**ألبينوس**" في صوت متحشرج قائلا "ماذا يا دكتور".. ولكن "**لامبرت**" استدار إلى الرجل الفاضل الكبير السن، الذي هزّ كتفيه هزا خفيفا وتبعه إلى غرفة المريضة.

ومضى وقت طويل.. وكان الظلام في النوافذ حالكا،وما من أحد قد اهتم بإسدال السّتائر، وأخذ "**ألبينوس**" برتقالة وراح يقشرها ببطء.. وكان الثّلج يتساقط في الخارج، ولم تكن تتصاعد من الشارع سوى أصوات مكتومة خافتة.. ومن وقت لآخر كانت تنبعث همهمة من جهاز التّدفئة..

وما لبث أن تصاعد من الطريق صوت رجل يرسل صفيرا ذا أربع نغمات.. ثمّ غرق كل شيء في السكون مرة اخرى.. وراح "**ألبينوس**" ياكل البرتقالة في بطء.. وكانت مرّة جدا..

وفجاة جاء "**بول**"، ودون ان ينظر إلى اي شخص تفوّه بكلمة واحدة قصيرة، فتبعه "**ألبينوس**"..

وفي حجرة "**إيرما**" ، رأى ظهر زوجته، وهي منحنية- بلا حراك- فوق الفراش، ممسكة كوبا في يدها .. ثم وضعت ممرضة المستشفى ذراعها حول كتفيها وقادتها إلى الظّلام .. فتقدم "**ألبينوس**" نحو الفراش ، وفي لحظة ابصر لمحة غائمة من الوجه الصّغير الميت، والشفة الرقيقة الشاحبة والأسنان الأماميّةالمكشوفة، وسنة من أسنان اللبن المفقودة .. ثمّ اظلم كل شيء ، أمام عينيه ، فاستدار وسار في حذر شديد- محاولا الا يصطدم باي شخص أو اي شيء - وخرج.. وكان الباب الخارجي مغلقا، بيد أنه لم تلبث ان نزلت سيدة مخضبة الوجه بالأصباغ، فتحته وأدخلت رجلا يغطيه الثلج.. ونظر"**ألبينوس**" في ساعته فإذا الوقت قد جاوز منتصف الليل.. فهل حقا قضى هنالك خمس ساعات؟

ومشى على الطوار الأبيض الناعم الذي كان يئز تحت قدميه، وهو لايصدق ما حدث، فقد كان يتصور "**إيرما**" على الدوام- في مخيلته- جالسة في حيوية مدهشة على ركبتي "**بول**" ، أو واقفة تداعب كرة خفيفة وتضربها في الحائط بيديها..

والآن ها هي العربات تنعق وكأنما لم يحدث شيء، والثلج يتالق كأنه في ليلة عيد الميلاد وقد انسكب عليه ضوء المصابيح .. وكانت السماء مظلمة، إلا انها على البعد- خلف سقوف القصور العظيمة- كان ظلامها يختلط بحمرة ملتهبة قانية .. وفجاة تذكر اسمي السيدتين اللتين كانتا تجلسان على الأريكة : إنهما "**بلانش**" و"**روزا فون ناخت**" .

وأخيرا وصل إلى البيت .. وكانت "**مارجوت**" مستلقية على ظهرها وهي تدخّن في تلذذ ، وتذكر "**ألبينوس**"- في غموض - أنه تشاجر معها شجارا بشعا، ولكن هذا لم يعد ذا أهمية .. وظلت تتابع حركاته في سكون ،وهو يذهب ويجيء في الغرفة، ويجفف وجهه الذي بلّله الثلج .. كل ما أصبحت تشعر به هو الرضا والارتياح الناعم.. وقد غادرها "**ريكس**" منذ هنيهة، راضيا مرتاحا كذلك!

الفصل الواحد والعشرون

لعلّها كانت المرة الأولى- في غضون السّنة التي قضاها "ألبينوس" مع "مارجوت" - التي تبيّنت له فيها تلك الطبقة الموحلة من الخسّة والدناءة التي رانت على حياته ..وبدا له- في وضوح براق- ان القدر يدفعه دفعا لأن يعود إلى وعيه ويسترد ما اضاعه من رشده، وقد جلجل في أذنيه نداءه الداوي، فاصبح يدرك- في هذه اللحظة- اية فرصة نادرة اتاحها له القدر ليرفع حياته إلى مستواها السابق.. وأيقن - في صفاء الحزن الذي راح يصهره- أنه لو عاد إلى زوجته في هذه الظروف، فإن الصلح -الذي كان يبدو في الظروف العادية مستحيلا- سياتي بطبيعة الحال من نفسه..

واستهوته بعض ذكريات تلك الليلة، وسلبته سكينة نفسه.. تذكر كيف نظر إليه "بـــــول" فجاة- في ضراعة دامعة- ثم ضغط على ذراعه وهو يستدير ضغطا خفيفا. .وتذكر كيف أبصر في المرآة لمحة خاطفة من عيني زوجته ، وفيهما تعبير يمزق القلب.. تعبير ملؤه العذاب والضنى ، ولكنه ما زال ينطوي - مع ذلك- على استعداد للبشاشة، والابتسام . .ولقد فكر وتمعّن في كل شيء يتاثر عميق..

أجل، لو أنه ذهب إلى جنازة ابنته الصغيرة ، فسيبقى مع زوجته إلى الأبد !

وطلب "بول" تليفونيا، فانبأته الخادم بمكان الدفن وميعاده.

*****

وفي الصّباح التّالي ، نهض من نومه مبكرا.. وكانت "مارجوت" لاتزال نائمة ، فأمر الخادم بأن يأتيه بحلته السوداء وقبعته العالية.. وبعد ان احتسى بعض القهوة في عجلة، ذهب إلى الغرفة- التي كانت فيما سبق غرفة "إيرما" ، فاصبحت تشغلها طاولة طويلة عليها شبكة خضراء- وأمسك بكرة صغيرة من "السليلود"، ثم تركهاتقفز على المنضدة.. وفي هذه اللحظة ، لم يتراءى لعينيه خيال ابنته، وإنما تمثل طيف فتاة لطيفة ، خفيفة، لعوب، تضحك وقد انحنت على المنضدة ورفعت إحدى قدميها، وهي تضرب

كرة البنج بونغ!.. صورة "**مارجوت**" في اول زيارة لها لهذا المسكن!

وحان الوقت.. لسوف يكون بعد لحظات قليلة متابطا ذراع "**إليزابيث**" ، امام قبر مفتوح.. والقى بالكرة الصغيرة على المنضدة ، وهرول مسرعا إلى غرفة النّوم كي يرى "**مارجوت**" نائمة لآخر مرة.. ووقف بجانب الفراش يمتع عينيه بمرأى ذلك الوجه الصبياني، ذى الشفتين الناعمتين اللتين بلون القرنفل، والخدين النضيرين اللذين يحكيان الورد.. وفي هذه اللحظة تذكر ليلتهما الأولى معا، وسرت في بدنه قشعريرة من الجزع إذ تمثل حياته المقبلة بجانب زوجته الشّاحبة الذابلة.. لكم بدت له هذه الحياة كأنها كهف من تلكم الكهوف الطويلة المظلمة الموحلة، التي لاتقع العين فيها إلا على صندوق مغلق بالمسامير فوق عربة أطفال فارغة!

وحول عينيه – في مشقة– عن الصبيّة النّائمة ، وعض إبهامه في كمد ، ثم سار إلى النّافذة ، وكانت مخضّله بذوب الثلوج.. والعربات تنطلق في الطّريق الموحل مثيرة الرذاذ حولها .. وعند المنحنى ، كان ثمة رجل رث الثياب يبيع زهور البنفسج.. وطيف رقعة شاسعة لامعة من السماء ذات الغيوم المسرعة، ينعكس على لوح زجاجي ، تكب على تنظيفه فتاة عارية الذّراعين.. وفجاة، سالته "**مارجوت**" في صوت منكسر يقطعه التثاؤب قائلة: " لماذا أنت مستيقظ مبكرا جدا هكذا؟ أين أنت ذاهب؟" . فقال دون أن يستدير: "لست ذاهبا إلى اي مكان!"

الفصل الثاني والعشرون

قالت له، بعد اسبوعين: " لاتكن حزينا هكذا يا حبيبي.. إنني اعلم ان الأمر كلّه محزن جدًا، ولكنّهم كانوا قد اصبحوا اقرب إلى الغرباء بالنسبة إليك، وأنت نفسك تحس بذلك، وقد أوغروا- بطبيعة الحال- صدر الطفلة ضدك.. صدقني إنني أدرك ما يعتمل في أعماق نفسك.. ولو أنني أستطيع إنجاب طفل، لفضلت أن يكون ولدا!".

فقال "ألبينوس" ، وهو يربت شعرها: أنت نفسك .. طفلة!" . وواصلت كلامها قائلة: " اليوم، دون الأيام جميعا، يجب ان نكون فرحين.. فاليوم بداية مستقبلي ، ولسوف أكون مشهورة" . فقال:

" أجل.

لقد نسيت.. متى ذلك ؟ احقا اليوم؟" .

وكان "ريكس" يتسكع في الداخل ، إذ كان - في المدة الأخيرة- يلازمهم كل يوم، وقد كشف له "ألبينوس" مكنون قلبه في مناسبات عديدة ، وأفضى إليه بما لم يكن يستطيع ان يقوله لـ"مارجوت" . وكان "ريكس" ينصت إليه في تردد ، ويعلق على حديثه بعبارات نابضة، مرهفة، ويبدي له من اللطف والعطف ما جعله يشعر بأن فترة تعارفهما القصيرة لايمكن ان تكون مقياسا لإحساسه الباطن، ذلك الإحساس الروحي الذي سرعان ما نما ونضج واكتمل.

وكان مما قاله"ريكس" وهو يحدثه: " إن المرء لايمكن ان يبني حياته على وعثاء كارثة حلت به.. فهذا إثم في حق الحياة.. وقد كان لي - في يوم من الأيام- صديق مثّال، كان تقديره للجمال لاحدّ له ، ثم إذا به فجاة يتزوج- مع الأسف - فتاة حدباء، قبيحة الشكل طاعنة في السّن.. ولست ادري بالضبط ماذا حدث، إلا أنهما ذات يوم- بعد زواجهما بقليل - حملا حقيبتين صغيرتين ، لكل منهما واحدة، وذهبا على أقدامهما إلى أقرب مستشفى للمجاذيب!

ولذلك فإنني أعتقد أن الفنان يجب ألا يسلس قياده إلا لشيء واحد.. هو إحساسه

بالجمال ، فهو لن يخدعه أبدا" .

وقال في مناسبة أخرى: إن الموت فيما يبدو ليس إلا عادة سيئة، تعجز الطّبيعة في الوقت الحاضر عن التغلب عليها.. كان لي ذات مرّة صديق عزيز ، وكان شابا جميلا ممتلئا بالحياة، له وجه ملاك، وعضلات نمر.. وقد جرح نفسه وهو يفتح علبة من علب الخوخ المحفوظ- ذلك النوع الكبير الناعم الذي يذوب في الفم- فمات بعد أيام قليلة نتيجة تسمم في الدم.. فيا له من أمر فظيع، أليس كذلك؟.. ومع ذلك فقد اعتبر حادثته تلك عملا من أعمال الفن- وإن كان هذا غريبا بلا شك- لأن صورة حياته ما كانت لتكتمل هكذا لو أنه عاش حتى تقدمت به السن وصار كهلا محطما .. وهكذا، فكثيرا ما يكون الموت مزحة من مزح الحياة!" .

*****

وكان "ريكس"- في مثل هذه المناسبات- يستطيع أن يتكلّم إلى ما لانهاية، دون أن يتولاه الكلل ، مختلقا القصص عن أصدقاء من نسج الخيال، وعارضا على المستمع إليه أفكارا غير عميقة ، بيد أنها ملفوفة في غلاف براق. فقد كانت ثقافته خليطا مهوّشا ، لكن عقله كان ذكيا لمّاحا، وولعه بالسخرية من أصدقائه كان يبلغ حد العبقرية والنبوغ.

ولعل الشيء الوحيد الصادق فيه هو اقتناعه الفطري بأن كل ما ابتدع في ميدان الفن أو الفكر أو العلم إنما هو خدعة ذكية ، بدرجة تزيد أو تنقص ،فقد كان بوسعه دائما أن يجد شيئا سريعا يقوله ، ويتفق مع مزاج المستمع إليه أو اتجاه تفكيره- مهما يكن موضوع الحديث- وإن كان بوسعه – في ذات الوقت- أن يكون وقحا متغطرسا إذا أساء هذا المستمع إليه. وكان- حتى حين يتكلم في جدية تامة عن كتاب أو صورة- يشعر في شيء من اللذة الماكرة بانه شريك في مؤامرة ، مع دجال شريف.. هو مؤلف الكتاب أو راسم الصورة.

لذلك راح يرقب- في تلذّذ – آلام "ألبينوس" ، الذي كان يعتقد أنه أبله، ساذج العاطفة ، وإن كان يتمتع بمعرفة راسخة في فن الرسم، وكان يقول في نفسه- في توقع

جذل– إن ذلك الرجل المسكين يحسب أنه قد لمس أعمق اغوار الألم البشري ، في حين انه لم يبلغ سوى الفصل الأول من كوميديا صاخبة ، احتفظ هو– "**ريكس**" – فيها بمقعد في المقصورة الخاصة لمدير المسرح، ولم يكن مدير المسرح في هذه الكوميديا هو الله ، ولم يكن هو الشيطان ، فقد كان الأول وقورا لايحب المهازل ، وكان الثاني قد اتخمته آثام الآخرين حتى ضاق بنفسه وبالآخرين ، فكان كئيبا كالمطر المتساقط عند الفجر في ساحة السّجن، حيث ينفذون حكم الإعدام في احمق مسكين قتل جدّته .. وإنما كان مدير المسرح– الذي يتمثله "**ريكس**"– هو "**بروتس**" سحري في قصة خيالية، يتذبذب كانه شبح مشعوذ على ستارة متالقة .. او هذا–على اي حال– ما كان يتخيله "**ريكس**" في اللّحظات النّادرة التي يفكّر خلالها تفكيرا فلسفيا .

كان ياخذ الحياة باستهانة واستخفاف، وكان الشعور الإنساني الوحيد الذي راوده هو شغفه الشديد بـ"**مارجوت**" .. ذلك الشغف الذي كان يحاول ان يرده في نفسه إلى تكوين جسدها، وشذى بشرتها ، وملمس شفتيها ، وحرارة الشهوة النابعة منها. إلا ان هذا كلّه لم يكن هو علة هيامه بها، وإنّما كانت العلة الحقيقية لتلك العاطفة– التي يتبادلانها – إنها كانت تقوم على تجانس عميق بين روحيهما، برغم ان "**مارجوت**" كانت فتاة برلينية سوقية، بينما كان هو فنّانا عالميا!

وحين جاء "**ريكس**"، في ذلك اليوم بالذات ، قال لها – وهو يعاونها في ارتداء معطفها– إنه استاجر حجرة يلتقيان فيها بعيدا عن الرقباء. فرشقته بنظرة غاضبة، لأن "**ألبينوس**" كان واقفا يربت جيوبه على بعد عشر خطوات فقط منها..

فاطلق "**ريكس**" ضحكة مكبوتة، واسترسل قائلا– دون ان يخفض صوته – :انه سينتظرها هناك كل يوم في ساعة معينة.. وقال لـ"**ألبينوس**" في تلطّف ، وهما ينزلان السلم: " إنني ادعو "**مارجوت**" إلى موعد ، ولكنها لاتريد ان تاتي!" .. فابتسم "**ألبينوس**" – وهو يقرص خدّ "**مارجوت**" في هيام– قائلا: " دعها فقط تحاول". ثم اضاف وهو يلبس قفازه: " سنرى الآن كم انت بارعة في التّمثيل ، يا عزيزتي" .

وقال "**ريكس**" : " غدا الساعة الخامسة يا "**مارجوت**" .. ما رأيك؟" . فقال "**ألبينوس**" : " غدا ستنتقي الطفلة لنفسها سيارة خاصة، ولذلك فلن يمكنها ان تاتي إليك" .. فأجاب "**ريكس**" قائلا: " إن لديها في الصباح متسعا من الوقت لتختار .. فهل ميعاد الساعة الخامسة مناسب لك يا "**مارجوت**" ؟

..أم نقول السادسة؟" . وهنا ثارت "**مارجوت**" فجاة وقالت وهي تجز على أسنانها: " ياله من مزاح سخيف!" .. فضحك الرجلان وتبادلا نظرات جذلة.

وكان البواب يتحدث مع عامل البريد في الخارج، فنظر إليهم في استغراب وهم يمرون، حتى إذا ابتعدوا بحيث لا يسمعونه قال: "لايمكن تصديق ذلك.. لقد ماتت ابنة هذا السيد منذ أسبوعين!" . فتساءل عامل البريد: " ومن هو السيد الآخر؟؛ . فأجاب البواب قائلا: "لاتسالني .. إنه عاشق إضافي فيما أعتقد. والحق أنني خجل من أن يرى السكان الآخرون هذا كله.. ومع ذلك فهو رجل غني وكريم، وأنا أقول في نفسي دائما إنه إذا كان لابد ان يتخذ له عشيقة، فكان ينبغي أن يختار واحدة أكبر من هذه حجما وأكثر امتلاءا" .. فقال عامل البريد وهو مستغرق في التفكير: " الحب أعمى" .

الفصل الثالث والعشرون

كان الفيلم" معدّا للعرض في قاعة صغيرة ، ليشاهده عشرون من الممثلين والضيوف.. واحست "مارجوت" برجفة من السعادة تسري في ظهرها، ولمحت غير بعيد ، مخرج"الأفلام" الذي شعرت في مكتبه ذات مرة أنّها موضع سخرية واستهزاء ، وقد تقدم نحو "ألبينوس" ، فقدمه هذا إليها.. وكانت تعلو جفن عينه اليمنى "زبيبة" صفراء كبيرة.. وغاظ "مارجوت" أنه لم يتذكرها ، فقالت في خبث، لقد جرى حديث بيننا منذ سنتين مضتا"، فأجاب بابتسامة مؤدبة قائلا:" حقا .. إنني لأتذكر ذلك تماما" .. وما كان –في الحقيقة – يتذكّرها البتة!

وما إن اطفئت الأنوار ، حتى بدا "ريكس" – وكان يجلس بين "مارجوت" و"ألبينوس" ، يبحث بيده في الظلام عن يدها. فلما عثر عليها، راح يضغطها.. وأمامهما كانت "دوريانا كارنينا" في ثوبها الفرو الفاخر– برغم حرارة الجو– تجلس بين مخرج الفيلم والمخرج الآخر ذي الزبيبة ، الذي كانت تحاول جهدها أن تبدي له غاية التلطف والظّرف.

وبدأ العرض فظهر على الشاشة عنوان الفيلم ، ثم أسماء الممثلين، تتراقص في رجفة خجولة. وكانت آلة العرض ترسل طنينا خافتا مطردا، كأنها آلة تنظيف بعيدة ، ولم يكن ثمة موسيقى .. ثم ظهرت "مارجوت" على الشاشة في أول منظر، وكانت تقرأ كتابا، ثم أطبقته ، واتجهت – وهي تتخلع في مشيتها– إلى النافذة، حيث كان خطيبها يمر بعربته . وانتاب "مارجوت" الجزع ، حتى لقد سحبت يدها من يد "ريكس" .. فمن هي تلك المخلوقة الشوهاء الصفراء كالموتى؟

.. كانت الفتاة التي على الشاشة فظة غليظة ، قبيحة الصورة، ذات فم منتفخ ، ملتو بشكل عجيب ، أسود اللون .. وكان الحاجبان في غير موضعهما ، والثّوب متغضن بصورة منفرة .. وكانت تحدّق أمامها في شراسة، ثم اتّكأت ببطنها على حافة النافذة، مولية ردفيها نحو المتفرجين .. ودفعت "مارجوت" يد "ريكس" المتلصصة ، وهي تبغي

ان تعض شخصا ما ، أو ان تلقي بنفسها على الأرض وتروح تركل الهواء بقدميها !..
لم تكن هذه الخلقة الشائهة- التي بدت على الشاشة - تمتّ إليها بأية صلة.. كانت فظيعة ، فظيعة!..

كانت في الحقيقة تشبه أمها، زوجة البوّاب، في صورة زفافها!

وقالت لنفسها في تعاسة :" لعلها ستتحسن بعد ذلك!" .

ومال عليها "ألبينوس" ، وقد كاد يعانق "ريكس" وهو يفعل ذلك، وهمس في رقة قائلا:" بديعة، رائعة!.. لم أكن اظن.." .

كان حقا مفتونا، فقد تذكر- بطريقة ما- سينما "آرجوس" الصغيرة، حيث التقيا اول مرة ، وقد مس مشاعره ان يرى "مارجوت" وهي تمثل .. ومع أن تمثيلها كان شنيعا، إلا أنها- في حماستها الصبيانية البهيجة- كانت تبدو كتلميذة تلقي قصيدة من الشعر في عيد ميلاد.

وكان "ريكس" مسرورا كذلك، فلم يكن لديه شك أبدا في ان "مارجوت" ستفشل على الشاشة، كما انه كان موقنا من انها ستنتقم لنفسها من "ألبينوس" من أجل هذا الفشل!.. كانت - بحكم رد الفعل - خليقة بان توافيه غدا، في الساعة الخامسة تماما. فكل شيء إذن ، كان يسير على ما يرام . وراحت يده تتلصص مرة أخرى، بيد أن "مارجوت" ما لبثت فجاة ان قرصته قرصة موجعة!

وبعد غيبة قصيرة ، ظهرت مرة اخرى على الشاشة : وكانت تتلصص خلسة أمام واجهات البيوت، وهي تتحسس الجدران بيدها وتتطلع من فوق كتفها .. ومع أن حركاتها كانت غريبة بما فيه الكفاية، إلا انها لم تثر اية دهشة لدى المارة في الطريق.. وما لبثت أن دلفت إلى مقهى هنالك، حيث اوحت إليها روح طيبة بانها قد تجد حبيبها في صحبة امراة رقيعة..

هـــي "دوريانا كـــارنينا" . فدخلت وقد بدا ظهرها مكتنزا غليظا .. وهنا قالت "مارجوت" في نفسها :" دقيقة أخرى ثم انفجر صارخة!" .

بيد أن صورتها - لحسن الحظ- اختفت من الشّاشة حينذاك ، وظهرت مائدة صغيرة

في المقهى، وعليها زجاجة في دلو مملوء بالثلج وقد بدا البطل يقدم سيجارة لـ"**دوريانا**" ثم يشعلها لها- وهي إشارة ترمز لدى كل المخرجين إلى الحب الجديد- فطوّحت "**دوريانا**" راسها إلى الخلف ، ونفثت الدخان ، وهي تبتسم بجانب واحد من فمها .. وهنا بدأ شخص ما في القاعة يصفّق ، فتبعه الآخرون.. ثم ظهرت "**مارجوت**" ، فانقطع التّصفيق.. وفتحت "**مارجوت**" فمها- وكأنها لم تفتحه يوما في الحياة الحقيقية- ثم عادت إلى الشّارع مرة اخرى، براس منكس، وذراعين متراخيتين.

وهنا استدارت "**دوريانا**" - "**دوريانا**" الحقيقية التي كانت تجلس امامها- وقد تألّقت عيناها في الظلام الخافت بعاطفة متلطفة، وقالت بصوتها الأجش: " برافو، برافو. أيتها الفتاة الصّغيرة" . فودّت "**مارجوت**" لو خمشت وجهها بأظافرها وقد أصبحت تفزع من كل مرة تظهر فيها على الشاشة، حتى لقد احست بانه توشك ان تفقد رشدها ، ولم تعد تقوى على قرص "**ريكس**" أو دفع يده المتشبثة الملحة. وما لبث ان شعر بانفاسها الحارة في اذنه وهي تزفر قائلة في استرخاء: " حسبك من فضلك، وإلا سانتقل من مقعدي ! " .

*****

وعادت العشيقة المهجورة – في الفيلم- مرة أخرى .

وكانت كل لحظة من لحظات ظهورها عذابا لـ"**مارجوت**" ، وقد شعرت بنفسها كأنما هي روح في الجحيم والشياطين يعرضون أمامها شريطا مصوّرا على الأرض، وقد ذكرتها هذه الحركات الفظة السّمجة الحادة- التي كانت تعتري وجهها المنتفخ- بصورة امها حين كانت تحاول ان تبدو مؤدبة نحو مستاجر من أصحاب النفوذ.

وهمس "**ألبينوس**" وهو يميل ناحيتها مرّة اخرى قائلا: " هذا منظر ناجح جدا! " .

ولكن "**ريكس**" بدأ يتضايق من جلوسه في الظلام ، يشاهد فيلما رديئا ، ورجلا ضخما يميل فوقه ، فاغمض عينيه وراح يتخيّل الصور الكاريكاتورية الصّغيرة التي اعتاد ان يرسمها اخيرا لـ"**ألبينوس**" ، ويفكّر في المشكلة المقلقة- برغم بساطتها- مشكلة

الكيفية التي يمكنه بها ان يقتنص مبلغا آخر منه!

وكانت "الدّراما" تقترب من نهايتها، والبطل -بعد أن هجرته المرأة الرقيعة- يمشي تحت مطر سينمائي بارع ، ذاهبا إلى صيدلية ليشتري لنفسه جرعة من السّم.

إلا انه تذكّر أمه العجوز، فاتجه- بدلا من ذلك- إلى المزرعةالتي يقيم بها أهله.. وهناك، بين الدجاج والحيوانات كانت حبيبته الأولى تلعب مع طفلهما غير الشّرعي- وإن كان لم يعد غير شرعي الآن، إذا حكمنا بالطريقة التي تطلع بها ابوه إليه من فوق السياج - وكان هذا أفضل منظر مثلته "مارجوت" . ولكن فجاة- وبينما كان الطفل يحبو نحوها- رفعت ثوبها إلى أسفل بظهر يدها- على غير قصد - كما لو كانت تمسح يدها، فنظر الطفل شزرا إليها .. وهنا رنتّ ضحكة في القاعة ، فلم تحتمل "مارجوت" أكثر من ذلك، وانفجرت باكية بصوت خافت!

وبمجرد أن أضيئت الأنوار ، غادرت مقعدها وانطلقت تهرول مسرعة نحو باب الخروج.. وأسرع "ألبينوس" خلفها، وهو ينظر إليها فزعا ، متوقعا الشر.. أما "ريكس" ، فقد وقف باسطا قوامه ، فلمست "دوريانا" ذراعه- وكانت تقف بجانب الرجل ذي الزّبيبة وهو يتثاءب- وقالت وهي تغمز بعينها :" إنه لفشل .. فيا للصبيّة الصغيرة المسكينة !" .. فقال لها "ريكس"في تساؤل متطلع :" وهل انت راضية عن تمثيلك ؟". فقالت "دوريانا" ضاحكة:" هذا سر أقوله لك : إن الممثّلة الحقيقية لايمكن أن ترضى قط عن تمثيلها !" .

وقال "ريكس" في هدوء :" .. ولاالجمهور أحيانا" .. ثم أردف قائلا: "بهذه المناسبة، قولي لي يا عزيزتي كيف اهتديت إلى اسمك المسرحي ؟.. إنّني افكر في ذلك!" . فقالت :" هذه قصة طويلة.. ولو انك أتيت لتناول الشّاي معي ذات يوم، فربما قلت لك المزيد عن ذلك.. إن الفتى الذي اقترح هذا الاسم قد انتحر!" .

فقال:" اوه، لاعجب .. ولكن الذي أردت أن أعرفه .. قولي لي ، هل قرأت لـ"تولستوي" ؟" .

فردّدت متسائلة:" "دولزتوي" ؟.. كلا، لم افعل.. لماذا؟" .

الفصل الرابع والعشرون

كان ثمّة منظر عاصف- في البيت- وبكاء ، وعويل وتشنجات هستيرية ، وقد راحت "**مارجوت**" تلقي بنفسها فوق الأريكة ، وفوق السّرير، وفوق الأرض، وعيناها تبرقان في هياج وغضب ، بينما تدلى احد جوربيها إلى اسفل ، وغرق العالم كله في الدموع.. وكان "**ألبينوس**" - وهو يحاول ان يسرّي عنها- يستعمل بلا وعي ذات الكلمات التي استعملها ذات مرة ليسري عن "**إيرما**" حين اصابها كدم، بيد ان هذه الكلمات اصبحت - بعد ان ماتت "**إيرما**" - كلمات جوفاء!".

وصبت "**مارجوت**" جام غضبها - اول الامر- على "**ألبينوس**" ، ثمّ راحت بعد ذلك تشتم "**دوريانا**" بالفاظ شنيعة ، ثم هاجمت المخرج .. وفي عنفوان سخطها ، رمت "**جروسمان**"- الرجل العجوز ذا الزبيبة - بإهانة ، خلال ذلك ، برغم انه لم يكن ذا شان بالامر كله .. وقال "**ألبينوس**" اخيرا:" حسنا ..سافعل كل ما في إمكاني من اجلك، ولكني لاارى انه كان فشلا ، في الحقيقة ، بل لقد كان تمثيلك- في كثير من المناظر- بديعا جداً. .ففي ذلك المنظر الأول مثلا- كما تعلمين - حين .." . ولكنها صرخت وهي ترميه ببرتقالة:" امسك لسانك!".

وعاد يقول :" ولكن ، انصتي لي يا حبيبتي. إنّني مستعدّ لأن افعل اي شيء كي اجعل حبيبتي سعيدة.. والآن فلناخذ منديلا نظيفا ونجفف دموعنا ، ولسوف اقول لك ما سافعله .. فالفيلم ملك لي،وقد دفعت ثمن هذا الهراء اقصد الهراء الذي صنعه "**شوارتز**" منه .. وسارفض السّماح بعرضه في اي مكان، وساحتفظ به تذكارا لنفسي".

وقالت باكية:" كلاّ، بل احرقه ". فقال:" حسنا جدا ، ساحرقه ..ويمكنني ان اؤكّد لك أن "**دوريانا**" لن يسرها ذلك.. والآن ،هل نحن راضون؟"،، بيد انها استمرّت تبكي ، ولكن في خفوت ، فقال لها: "هيا.هيا.

كفّي عن البكاء ياحبيبتي .. وغدا ستذهبين وتختارين لنفسك شيئا ما.. هل اقول

لك ما هو؟.. إنه شيء كبير على اربع عجلات .. انسيت ذلك؟.. ستشيرين إلى السّيارة التي تعجبك ، وربما .." وهنا ابتسم ورفع حاجبيه وهو يضغط في مكر على كلمة ربما ثمّ اردف قائلا:" وربما أشتريها لك ، ثم ننطلق بها اميالا واميالا..ولسوف ترين الربيع في الجنوب .. اليس ذلك بديعا يا "**مارجوت**"؟".

فقالت عابسة:" ليس هذا هو المهم"،.. فقال :" المهمّ ان تكوني سعيدة ، وستكونين سعيدة .. حتى إذا عدنا في الخريف ، ستتلقّين مزيدا من الدّروس في التّمثيل السينمائي، وسابحث عن مخرج بارع حقا .. "**جروسمان**" مثلا؟". فغمغمت قائلة في رعشة:" كلا ليس هذا".

فقال:" حسنا.. فليكن شخصا آخر إذن.. والآن، كوني طفلة عاقلة، وجففي دموعك، وهيا نخرج للعشاء .. ارجوك يا صغيرتي".

وقالت وهي ترسل زفرة عميقة:" لن اكون سعيدة حتى تحصل على الطلاق، فإنني اخاف أن تهجرني الآن وقد رايتني في ذلك الفيلم الفظيع.. أوه ، لو ان رجلا آخر في مكانك للطم وجوههم إذ جعلوني ابدو هكذا بشعة شنيعة !

.. كلا، لن اجعلك تقبلني، حتى تقول لي هل فعلت شيئا بخصوص الطلاق، أو تراك اهملت الأمر كله؟". فراح "**ألبينوس**" يدمدم:" حسنا.. كلا.. انت ترين.. الأمر هكذا.. اوه يا "**مارجوت**" ، إننا اقصد ان اقول إنها..هي على الخصوص.. باختصار.. موت البنت جعل الامر اكثر صعوبة بالنسبة لي". فصرخت "**مارجوت**" وقد وقفت على قدميها :" ما هذا الذي تقول؟.. اهي لاتعرف بعد انك تريدها ان تطلّقك؟".

وقال "**ألبينوس**" متلعثما :" كلاّ، لا اعني ذلك، فهي طبعا تشعر .. اقصد... ان اقول إنها تعلم.. وبالاحرى..".

وكانت "**مارجوت**" في هذه الأثناء تبسط جسدها شيئا فشيئا إلى أعلى ، كأنها الحية عندما تنساب.. وقال "**ألبينوس**" اخيرا ، وكانت أول مرة في حياته يكذب فيها عن "**إليزابيث**" :" الحقيقة انها لن تطلقني!". فصاحت "**مارجوت**" :" هل الأمر هكذا؟؛.. وكانت في تلك الأثناء تقترب منه، حتّى قال في نفسه:" إنها ستضربني"

بيد ان "مارجوت" التصقت به.. وفي بطء وضعت ذراعيها حول عنقه ، وقالت وهي تريح خدها على صدره:

"لايمكنني أن أظل هكذا عشيقتك فقط . لا يمكنني أبدا .. فأرجوك أن تفعل شيئا.. قل لنفسك غدا: إنني سأفعل ذلك من أجل حبيبتي الصغيرة !.. فهناك محامون، ومن الممكن تدبير الأمر كله" . فقال لها: " سأفعل ذلك في الخريف!" . وتأوّهت بصوت خافت، ثمّ سارت إلى المرآة فتأمّلت صورتها في تراخ، بينما كان "ألبينوس" يقول لنفسه: " الطّلاق؟.. كلا، كلا.. هذا خارج عن الموضوع!" .

الفصل الخامس والعشرون

حول "ريكس" الحجرة التي استأجرها لمقابلاته مع "مارجوت" إلى استوديو"، وكانت كلما جاءته وجدته يعمل ، وهو ما يفتأ- أثناء الرسم- يصفر بفمه جذلا طروبا.. وكلما تطلعت إلى خديه الناصعين- في بياض الطباشير- وشفتيه الغليظتين القرمزيتين وقد تحولتا، وهو يصفّر،إلى حلقة مستديرة ، تشعر بان هذا الرجل يعني كل شيء بالنسبة إليها .. وكان يرتدي قميصا حريريا ذا ياقة مفتوحة ، وسروالا قديما من الصّوف الناعم ، وهو يصنع العجائب بالحبر الهندي.

وراحا يلتقيان في هذا المكان كل مساء تقريبا.. وقد ظلّت "مارجوت" تؤجّل يوم السفر ، بالرغم من شراء السيارة ، ومن حلول الربيع.

وقال "ريكس" لـ"ألبينوس" ذات يوم: " لماذا تكلف نفسك عناء استخدام سائق لرحلتك ؟.. إنني بارع في قيادة السيارات كما تعلم". فاجاب "ألبينوس" في تردّد : " هذا عطف عظيم منك، ولكني اخشى ان آخذك بعيدا عن عملك.. فنحن نعتزم ان نقوم برحلة بعيدة". فقال "ريكس".

"أوه!.. لاتشغل بالك بشاني، فإني اودّ التمتّع بعطلة على أية حال... بالشمس المشرقة، بالعادات العتيقة العجيبة ، بالجولات الرائعة في البقاع الغريبة!".

إذ ذاك قال "ألبينوس" : " في هذه الحالة سيسرنا ذلك".

راح ينظر إلى"مارجوت" متسائلا في قلق عن رايها في ذلك إلا ان "مارجوت" - بعد تردّد قليل- أبدت موافقتها قائلة: " حسنا ، فليأت معنا!.. إنني أحبّه حقا ، وإن كان قد اعتاد مغازلتي بعبارات الغرام والتدلّه ، وهو يتاوه كانما الامر حقيقي.. وقد اتعبني بذلك بعض الشيء!"،

وفي اليوم السّابق لرحيلهم ، اسرعت "مارجوت"- وهي في طريقها من الحوانيت إلى البيت- لمقابلة "ريكس". وهنالك ذكرها منظر علبة الألوان، والاقلام بذرات الغبار- بالوقت الذي كانت تقف فيه عارية..، وقال لها "ريكس"في استرخاء وهي تصبغ

بالاحمر شفتيها: " لماذا انت مستعجلة هكذا؟..

إن هذه آخر مرة، ولاادري كيف سننصرف أثناء الرحلة؟" .

فاجابته وهي تضحك قائلة: " كلانا ذكي بما فيه الكفاية! " .

وأسرعت إلى الشّارع ، ووقفت تجيل بصرها باحثة عن عربة ، ولكن الطريق المشمس كان خاليا ، فسارت على قدميها إلى الميدان،، وراحت تفكر- كما كانت تفعل دائما وهي عائدة من غرفة "**ريكس**" إلى المنزل- قائلة في نفسها :" هل احيد إلى اليمين ، ثمّ أعبر الحديقة، ثم التزم اليمين مرّة أخرى؟" .. فقد كان هنالك الشارع الذي عاشت فيه أيام طفولتها. وأخيرا قالت في نفسها :" إن الماضي آمن في عشه ، فلماذا لا القي نظرة؟.

ولم يكن قد تغير في الشارع شيء : فها هو ذا الخباز عند المنحنى، وها هو ذا حانوت الجزّار- بلافتته التي رسم عليها رأس ثور مموه بالذهب - وقد ربط خارجه كلب "**البولدوج**" الذي تملكه أرملة الضابط الساكنة في المنزل رقم١٥ . إلا ان المكتبة - التي كانت في الشارع- تحولت إلى حانوت حلاق، وكانت بائعة الصحف العجوز تجلس في مكانها المعهود، والحانة التي اعتاد "**أوتو**" ان يرتادها لاتزال على حالها.. واخيرا كان هنالك البيت الذي ولدت فيه.. وكانت تجري به إصلاحات تدل عليها "السقالات" المشدودة إليه..

ولكنها لم تشأ ان تقترب اكثر من ذلك.. حتى إذا استدارت لتعود ، ناداها صوت مألوف لديها.. صوت "**كاسبار**"- صديق أخيها- وقد امتطى دراجة ذات إطار بنفسجي، وعلق سلة امامه على مقبضها .. وقال باسما في قليل من الخجل :" اهلا بك يا "**مارجوت**" ! " . ثم سار في حذاء الطوار بجانبها .. لقد كان - حين رأته آخر مرة- ممتلئا ثقة واعتدادا .. بيد انه كان يومئذ ضمن جماعة أو منظمة ، أو بالأحرى عصابة.. اما الآن وهو وحده فلم يكن سوى صديق قديم .

وتطلع إليها قائلا: " كيف الحال يا "**مارجوت**" ؟

فأجابت ضاحكة :؛ بديع .. وكيف حالك أنت؟" .. وكان جوابه :"أوه.. ليس في حياتي إلا انها تمضي. ولكن هل تعلمين ان أهلك قد انتقلوا من هنا؟.. إنهم يعيشون الآن في شمال "**برلين**" .. يجب أن تزوريهم ذات يوم يا "**مارجوت**" . فإنّ والدك لن

يعيش طويلا!" . فتساءلت: " واين شقيقي العزيز؟! فأجابها : " لقد سافر .. وأعتقد انه يعمل في "**فيليفلد**" .

وقالت عابسة، وهي تسير على حافة الإفريز: " إنك تعرف كم كانوا يحبونني في المنزل.. ثم بعد ذلك هل اقلقهم غيابي؟.. هل اهتموا بما حدث لي؟" . فسعل "**كاسبار**" ، ثم قال: " إنهم اهلك يا "**مارجوت**" ، على اية حال .. بيد ان أمك اعتادت على هذا المكان، فهي لاتحب المكان الجديد" .

وسألته وهي تتطلع إليه: " وماذا يقول الناس عنّي هنا؟" .

فقال: " أوه، كثيرا من الهراء .. ولاعجب فقد تعودوا على الاغتياب .. لقد كنت دائما أقول إن للفتاة الحق في ان تفعل ما تشاء بحياتها .. وهل تسير الامور سيرا حسنا مع صديقك ؟" . فأجابته : " نعم ، ولسوف يتزوّجني قريبا على اية حال!" .

وقال "**كاسبار**" : جميل ، وإني لمسرور جدا من اجلك..

غير أنه مؤسف حقا ان يغدو مستحيلا التمتع معك بأي لهو، كما كان عهدنا في الأيام الغابرة.. إن ذلك مؤسف حقا!" . فسألته مبتسمة : " ألم تجد لك حُبيبة؟" .

كان جوابه : " كلاّ ، ليس بعد.. فالحياة قاسية جدا احيانا يا "**مارجوت**" ، وانا الآن اعمل في محلّ حلوانيّ، واودّ أن يكون لي يوما ما محل املكه" .. فقالت "**مارجوت**" ساهمة : " نعم .. الحياة احيانا قاسية!" .

وبعد فترة سكوت ، نادت "**مارجوت**" سيارة، بينما كان "**كاسبار**" يقول: " ربما يوما ما .." . ولكنه لم يكمل عبارته، فقد انتهى الامر، ولن يقدّر لهما- مرّة اخرى- ان يستحما في تلك البحيرة أبدا!.. وقال لنفسه وهو يراها تجلس في السيارة: " إنها ذاهبة إلى الكلاب.. وكان الأحرى بها ان تتزوج رجلا بسيطا طيّبا.. ومع ذلك فانا لااقبلها زوجة .. إن الإنسان لايمكنه ان يعرف أبدا أين كان.."

وقفز على الدراجة ، وانطلق بها مسرعا خلف السيّارة إلى منحنى الشارع التالي .. وراحت "**مارجوت**" تلوح له بيدها وهو يميل في خفة إلى شارع جانبي.

الفصل السادس والعشرون

راحت السّيارة تطوي طرقات محفوفة بأشجار التّفاح، ثم طرقات محفوفة بأشجار الخوخ ، وهي منطلقة إلى غير نهاية.. وكان الجو بديعا، وقد أفعمت القضبان الأمامية لخزان السيارة بالنمل الميت والفراشات واليعاسيب.. و"**ريكس**" يتولى القيادة ببراعة رائعة . وهو جالس- في استرخاء - على المقعد الأمامي، ويده على عجلة القيادة يمسها مسا رقيقا حالما.. وكان ثمة قرد معلق - في النافذة الخلفّية - من النسيج المخملي ، شاخص نحو الشّمال ، من حيث كانوا منطلقين في سرعة خاطفة.

وفي "**فرنسا**" : كان شجر الحور على طول الطرقات ..

ولم تكن الخادمات في الفنادق يفهمن كلام "**مارجوت**" ، فكان ذلك يثيرها.. وكان مقرّرا أن يقضوا الربيع في "**الريفييرا**".

ثم ينطلقون إلى البحيرات الإيطالية .. وكان آخر مكان يتوقفون فيه- قبل أن يصلوا إلى الشّاطئ بقليل - هو بلدة "**روجينار**". وقد وصلوا إلى هنالك عند الغروب .. فإذا سحابة برتقاليّة اللون تنتشر على صفحة السماء الضاربة إلى الخضرة ، فوق الجبال التي لفّها الظلام والأضواء تتلألأ في المقاهي ، والأشجار المبثوثة على طول الطرقات قد تسربلت بسواد الليل .

وكانت "**مارجوت**" متعبة مهتاجة الأعصاب ، كما صار دأبها دائما في تلك الأيام حين يقترب المساء ، فقد مرّت عليها في تلك الرحلة ثلاثة أسابيع كاملة لم يتسن لها خلالها أن تنفرد بـ"**ريكس**" .. حتى إذا كانوا متجهين إلى "**روجينار**"- وكان "**ألبينوس**" يستخفّه الطرب بمنظر التلال الأرجوانية-غمغمت "**مارجوت**" مزمجرة وهي تصرّ على أسنانها قائلة لـ"**ريكس**"، وهي توشك أن تبكي: " أسرع، أسرع! " .

واتجهوا إلى فندق كبير ، وإذ ذهب "**ألبينوس**" ليسأل عن غرفتين لهم، قالت "**مارجوت**" دون أن تنظر إلى "**ريكس**" : "سأفقد عقلي إذا استمر الأمر أكثر من هذا" .

فقال "**ريكس**" : " أعطه جرعة منومة .. سأجيء لك بواحدة من الصّيدلية! " .. ولكنّها

قالت : " لقد حاولت بالفعل ولكن المنوم لم يكن مجديا! " .

وهنا عاد "**ألبينوس**" مضطربا بعض الشيء ، وقال: " لافائدة.. ياله من أمر متعب!.. أنا آسف يا حبيبتي " ..

واتجهوا بعد ذلك إلى ثلاثة فنادق أخرى، على التوالي، ولكنها كانت مكتظة جميعا.. ورفضت "**مارجوت**" - رفضا باتا- أن يذهبوا إلى المدينة التالية ، قائلة إن منحنيات الطريق تسبّب لها غثيانا ، وقد تولتها حالة عصبية جعلت "**ألبينوس**" يخاف من النظر إليها..

وأخيرا ، وجدوا غرفتين خاليتين في الفندق الخامس، فصعدوا ليروهما .. وفي المصعد ، وقف خادم زيتونيّ اللون يتطلع إليهم بوجهه الجميل ، فغمز "**ريكس**" بعينه ينبه "**ألبينوس**" ، ووكزه بمرفقه قائلا: " انظر إلى هذه الجفون" .

فقالت "**مارجوت**" فجأة: " كفا عن هذا السخف! " .

ودخلوا الغرفة ذات السريرين، فلم تكن رديئة على الإطلاق، ولكن "**مارجوت**" راحت تدق الأرض بقدمها قائلة بصوت خافت متذمّر: " لن أبقى هنا.. لن أبقى هنا! " .

فقال لها "**ألبينوس**" متوسّلا : " ولكنّها حقا ملائمة لليلة واحدة" .

وفي تلك اللحظة ، فتح الخادم بابا يؤدي إلى الحمام، واجتازه ثم فتح بابا آخر – في الجانب الآخر من الحمّام–يؤدي إلى غرفة نوم ثانية.. وفجأة تبادل "**ريكس**" و"**مارجوت**" النظرات !.. فقال "**ألبينوس**" : "لاأدري إذا كان يضيرك أن تقتسم الحمام معنا يا "**ريكس**" ؟ إن "**مارجوت**" كثيرة العبث في الحمّام، وهي تطيل المكوث فيه!؟.. فقال "**ريكس**" ضاحكا : " لابأس.. سنتصرّف على أي وجه! " .

واستدار "**ألبينوس**" إلى الخادم قائلا: " هل أنت متأكد أنه ليس لديكم حجرة أخرى مفردة" .. ولكنّ "**مارجوت**" تدخلت في سرعة قائلة: " لابأس.. وإنّني لأرفض أن أذهب للبحث أكثر من ذلك! " . واتّجهت إلى النافذة بينما كان الخدم يدخلون الأمتعة. وكان ثمّة نجم كبير يتلألأ في السماء، وقد اصطبغ بلون الخوخ ، وغرقت قمم الأشجار المعتمة

في السكون المطبق ، وانطلقت العصافير تشقشق .. ولكن "**مارجوت**" لم تر أو تسمع شيئا من هذا.

*****

وبدا "**ألبينوس**" يخرج أدوات الحمام ، فقالت وهي تخلع ملابسها في سرعة :" سأستحم أولا" .. فقال في مرح: "اذهبي.. وسأحلق ذقني .. ولكن لاتطيلي البقاء في الحمام، إذ لابد لنا من تناول عشائنا" .

وفي المرآة ، رأى ملابسها تطير قطعة بعد أخرى في الهواء:" الثوب ثمّ السوتيان"، ثم .. ثم.. حتى أصبحت عارية، فغمغم وهو يغطي ذقنه بالصابون قائلا :" يالها من فاجرة صغيرة!" .. وسمع الباب يغلق، والمزلاج يقعقع، والماء يتدفّق في الداخل بصوت مرتفع، فصاح ضاحكا وهو يشد خده بإصبعه :" لاحاجة بك لأن تغلقي باب الحمام من الداخل، فلن أخرجك منه !" .

واستمر تدفق الماء خلف الباب المغلق ،وصوته ما يفتأ يرتفع ويرتفع.. وراح "**ألبينوس**" يكشط لحيته في حذر بآلة "جيليت" ، وهو يسائل نفسه عما إذا كان سيجد في الفندق "جمبري" على الطريقة الأمريكيّة .. وازداد الماء تدفقا واشتد صوته ارتفاعا، وأدار آلة الحلاقة في زاوية أخرى كي يمكنه أن يتكلم .. وكان على وشك أن يصل إلى حيث "تفاحة آدم" من رقبته – حيث كانت بضع شعرات قصيرة تأبى أن تزول– حين لاحظ فجأة ، وقد تملكته الدهشة، أن تيار ماء ينساب من تحت باب الحمّام ، وقد اتخذ عجيج التدفق في الداخل نغمة ظافرة!.. فغمغم وهو يجري إلى الباب:" لايمكن بالتأكيد أن تكون قد غرقت!" .

وطرق الباب صائحا:" ياحبيبتي ، هل أنت بخير؟...

إنك تغرقين الغرفة بالماء!" .. ولكنّه لم يتلق جوابا، فراح يصيح:" "**مارجوت**" ، "**مارجوت**" !:" وهو يدق على مقبض الباب غير دار بالدّور الغريب الذي تلعبه الأبواب في حياتهما!

وانسلّت "**مارجوت**" من غرفة "**ريكس**" إلى الحمّام – وكان قد امتلأ بالبخار والماء السّاخن– فسارعت إلى الصّنابير واغلقتها ، ثم صاحت من خلف الباب قائلة :" كدت أنام في الحمام !" . فقال:" أانت مجنونة؟.. لكم أفزعتني!" .

وما لبثت النّهيرات التي بلّلت البساط الرمادي واحدثت فيه مساحات غامقة، أن انقطعت شيئا فشيئا ثم توقفت ..

وعاد "**ألبينوس**" إلى المرآة، فوضع الصابون على رقبته مرة أخرى .. وبعد دقائق قليلة خرجت "**مارجوت**" نضرة متالقة، وراحت تنثر على جسمها "بودرة التلك"!

ودخل "**ألبينوس**" بدوره ليستحم ، وكان المكان غارقا في البلل وممتلئا بالبخار ، فقرع باب غرفة "**ريكس**" صائحا:" لن ادعك تنتظر طويلا .. وساخلي لك الحمّام بعد لحظة" . فصاح "**ريكس**" قائلا في مرح:" أوه، خذ دورك!"

وعلى العشاء، كانت "**مارجوت**" تتدفق سرورا ومرحا، وقد جلسوا في الشّرفة.. واخذت فراشة بيضاء ترفرف حول المصباح، ثم سقطت على مفرش المائدة. وما لبثت "**مارجوت**" ان قالت :" سنبقى هنا وقتا طويلا جدا جدا .. إنني أحب هذا المكان حبا هائلا!

الفصل السابع والعشرون

ومر اسبوع .. ثم اسبوع ثان ، وكانت الأيام صافية، والزهور في كل مكان، والأجانب يملأون البلدة. ولم يكن المرء يحتاج لأكثر من ساعة في السيارة كي يصل إلى شاطئ رملي ينام في حضن صخور قانية الحمرة ، تحفّ بالبحر الزاهي الزرقة.. وكانت التلال المكسوة بأشجار الصّنوبر تحيط بفندقهم ، وهو بناء جميل على الطراز المراكشي..

وكاد "ألبينوس" يطير من فرط السعادة .. وكانت "مارجوت" سعيدة هي الأخرى، وكذلك كان "ريكس"!

وكان بين من اعجبوا بـ"مارجوت" - أشدّ الإعجاب- صاحب مصانع للحرير في "ليون" ، ورجل إنجليزي هادئ الطّبع- كان يجمع الجعارين - والشبان الذين كانوا يلعبون معها التنس.. ولكن "ألبينوس" لم يعد يضيق بأن ينظر إليها هذا أو يراقصها ذاك.. وما كان لشيء من ذلك أن يبعث الغيرة في قلبه، بل لقد كانت تتملكه الدهشة إذ يتذكر غصص الآلم التي كان يعانيها في "سولفي".

شيئا واحدا لم يفطن إليه في غمرة ثقته هذه: إنها لم تعد راغبة في إرضاء الغير.. فقد كانت تحتاج لرجل واحد فقط ، وهو "ريكس" .. وقد كان "ريكس" هو ظل "ألبينوس"!

وذات يوم، ذهب ثلاثتهم في جولة طويلة بين الجبال وهنالك ضلوا الطّريق، ووصلوا - آخر الأمر- إلى درب صخري وعر، قادهم إلى الاتجاه الخاطئ.. وإذ لم تكن "مارجوت" معتادة على المشي ، فقد أصيبت قدماها بقروح مؤلمة وراح الرّجلان يحملانها بالتناوب وهما ينوءان بحملها ، وإن يكن غير ثقيل جدا. وفي حوالي الساعة الثانية بعد الظهر.. وصلوا إلى قرية صغيرة تغمرها الشمس، وهنالك وجدوا حافلة أوتوبيس على أهبة الرّحيل إلى "روجينار" ، وكانت تقف في ميدان مستدير يلعب فيه بعض الشّبان كرة القدم.

ودخل "ريكس" و"مارجوت" الحافلة . وكان "ألبينوس" على وشك أن يلحق بهما، لولا أنه لاحظ أن السّائق لم يجلس بعد في مقعده وإنما راح يعاون فلاحا مسنّا على إدخال قفصين كبيرين في السيارة، فنقر "ألبينوس" على زجاج نافذة العربة المجاورة

لـ"مارجوت" ، وقال لها إنه سينتهز هذه الفرصة ويذهب ليشرب كاسا في حانة صغيرة عند طرف الميدان.. وإذ كان يدخل الحانة ، اصدم برجل رقيق الحاشية، صغير الجسم، في بزّة من الصوف الابيض ، كان يدفع حسابه في عجلة.

ونظر كل منهما إلى الآخر ، ثم صاح "ألبينوس" قائلا: " انت هنا يا "آدو" ؟.. إنها لفرحة غير متوقعة !" ..

فقال "آدو كونراد" : غير متوقعة ابدا .. لقد اصبحت اصلع قليلا ايها الكهل!.. هل انت هنا مع عائلتك؟" . وأجاب "ألبينوس" متلعثما: "حسنا.. كلا .. انت ترى.. انا اقيم في "روجينار" ، و...". فقال "كونراد" : وانا كذلك.. ياللسّماء! لقد تحرّكت الحافلة ، فاسرع !". فاخذ "ألبينوس" يجرع بقية كاسه ، بينما جرى "كونراد" فلحق بالسيارة.

وارتفع صوت البوق، فاخذ "ألبينوس" يبحث عن النقود الفرنسية في جيبه متعجلا، وهي تفلت منه.. وعندئذ قال الساقي ، وهو رجل كئيب ، ذو شارب اسود متهدّل :" إن العربة ستدور حول القرية اولا ثم تعود فتقف هنا مرة اخرى قبل ان تواصل رحلتها" . فقال "ألبينوس" : " إذن سآخذ كاسا اخرى !" .

ورأى -خلال الباب- السيارة المستطيلة الصفراء اللون، تنطلق مسرعة في الطّريق الذي تحفّ به اشجار الدلب، وتلقي عليه مساحات من الظّلال.. وقال "ألبينوس" في نفسه: " إنه لأمر لطيف ان اقابل "آدو"، وقد خط الشّيب لحيته، كانما ذلك في مقابل فقداني شعر راسي..

ولكن متى تقابلنا آخر مرة؟.. لقد كان ذلك منذ ست سنوات.. وقد كنت اظنّه يعيش في "سان ريمو".. إنه لرجل غريب ، رقيق الجسم، ولكنّه رهيب .. وليس هو بالسعيد جدا، فقد اجتمعت عليه العزوبة، والرّبو، وكراهيته للقطط ولطقطقة السّاعات..، ولكنه كاتب بديع، كاتب رائع .. ومن الطّريف انه ليس لديه اي فكرة عن التّغيير الذي طرا على حياتي.. ومن الطريف كذلك وقوفي هنا، في هذا المكان الصغير الحار المشبع بالرطوبة، الذي لم تطاه قدماي من قبل، والذي قد لا آتي إليه بعد ذلك. ابدا .. ترى ماذا

تفعل "إليزابيث" الآن؟.. ثوب اسود، ويدان متخاذلتان.. الافضل الا افكر في ذلك!".

وما لبث ان سال بلغته الفرنسية ، التي ينطقها في حذر قائلا: "كم من الوقت تستغرقه السيارة في الدّوران حول القرية ؟".. فقال الساقي في وجوم:" دقيقتان".

وراح "ألبينوس" يحدّث نفسه من جديد وهو يتامل لعبة من العاب الحظ:" ليس واضحا جدا ما يفعلون بهذه الكرات الخشبية.. ولكن هل هي خشبية، او انها من معدن ما؟.. إن المرء يقبض عليها في باطن كفه، ثم يدفع بها إلى الأمام، فتتدحرج ، ثمّ تقف.. ياللحرج لو حدث ان تكلم "آدو" مع الفتاة الصغيرة في الطريق ، وراحت هي تثرثر بكل شيء قبل ان اخبره بالأمر!.. هل تراها تفعل ؟ ومع ذلك؛ فليس ثمّة فرصة لان يتحدثا معا ، فإن الطفلة المسكينة غير سعيدة ، وستجلس ساكنة تماما"..

ثم قال بصوت مرتفع:" يبدو انها قرية كبيرة، إذا راعينا الوقت الذي تستغرقه السّيارة في الدّوران حولها". فقال كهل يدخن في غليون من الفخار ، ويجلس إلى المائدة المواجهة له:" إنها لاتدور حولها!".. واردف حين عارضه الساقي." لقد كانت تفعل ذلك حتى يوم الأحد الماضي، ولكنها الآن تسير في طريقها مباشرة!". فقال الساقي: "حسنا.، إنها ليست غلطتي ، اليس كذلك؟".. وهنا صاح "ألبينوس" في قنوط :" ولكن ماذا افعل الآن؟". فقال الكهل في رزانة:

" عليك بالسّيارة التالية!".

واخيرا وصل إلى المنزل فوجد "مارجوت" مضطجعة على مقعد طويل في الشّرفة ، تاكل حبات من الكرز.. وامامها "ريكس" ، يجلس على السياج الابيض في لباس السباحة وظهره الاسمر الغزير الشعر نحو الشّمس .. وهما في منتهى السعادة ، فقال ضاحكا: "لقد فاتتني السيارة !".

فقالت "مارجوت":" حقا؟".. وعاد يقول:" حدثاني، هل لاحظتما رجلا صغير الجسم ، يرتدي بذلة بيضاء ، وله لحية ذهبية ؟". فاجاب "ريكس" :" نعم ، لقد كان يجلس امامنا، فما حكايته ؟".. وهنا قال "ألبينوس" :" لاشيء .. وإنما كنت اعرفه في يوم من الأيام".

الفصل الثامن والعشرون

في الصّباح التّالي، راح "ألبينوس" يسأل باهتمام عن "آدو كونراد" في مكتب السياح، ثم في فندق الماني ، ولكن احدا لم يستطع أن يدله على مكانه .. فقال في نفسه: " على كل حال، ليس لدينا الكثير ليقوله كل منا للآخر .. وربما بحثت عنه مرة ثانية، إذا بقينا فترة أخرى هنا .. فإذا لم نفعل فلا يهم ذلك كثيرا! " .

وبعد أيام قلائل، استيقظ مبكرا- قبل موعده المعتاد- ففتح مصراعي النافذة الخشبيين ، وابتسم للسماء ذات الزرقة الرقيقة ، والمنحدرات ذات الخضرة الناعمة، التي كانت تبدو متالقة ولكنها - مع ذلك ملتفة في غشاء غائم، كانها الصورة المشرقة على وجه كتاب، وقد غطاها غلاف من الورق غير الشفاف .. وشعر "ألبينوس" بحنين طاغ لان يتسلّق المرتفعات ، ويستنشق الهواء المتضوع بشذا الصّعتر . واستيقظت "مارجوت" قائلة، ومازال النوم يثقل جفنيها: "لايزال الوقت مبكّرا جدا!" ..

فاقترح عليها أن يرتديا ثيابهما سريعا ، ويخرجا ليقضيا اليوم بطوله- هما الاثنان فقط- ولكنها غمغمت قائلة: " اذهب وحدك! "، ثمّ انقلبت إلى النّاحية الأخرى..

فقال "ألبينوس" في أسف : " أواه منك أيتها الكسول! "

وكانت السّاعة قد قاربت الثّامنة، فانطلق بخطوات سريعة عبر الشّوارع الضيقة ، وقد تقاسمها النور والظل بالطول . حتى إذا تجاوزها ، بدا في الصعود .. وإذ كان يمر بجانب "فيلاّ" صغيرة ، مطلية بلون قرنفلي فاقع ، سمع قرقعة آلة تجر شيئا ما ، ثم راى "آدو كونراد" يشذب أغصان الحديقة الصغيرة النابتة في الصّخر.. فقال في مرح : وجدتك أخيرا ! " .. والتفت الآخر، ولكنه لم يبتسم ، بل قال بجفاء: " أوه..لم اتوقع أن أراك ثانية! " .

كانت العزلة قد أورثته حدة خلق الأعزب.. فاقترب "ألبينوس" قائلا:" لاتكن احمق يا "آدو" .. فأنت تعلم جيدا انني لم اتعمد أن تفوتني الحافلة في ذلك اليوم، وإنما ظننتها ستدور حول القرية ثم تعود مرّة أخرى ! " .. فقال "كونراد" ، وقد لانت

أساريره قليلا: " لااهمية لذلك.. فكثيرا ما يحدث ان يقابل المرء صديقا له بعد مدة طويلة، ثم يشعر برغبة مفاجئة في ان يفلت منه.. لقد فسرت الأمر بانك نفرت من فكرة الثرثرة عن الماضي في ذلك السجن المتحرك الممثل في السّيارة ، فتجنبت ذلك ببراعة!" .

وضحك "ألبينوس" قائلا: " إنني في الحقيقة كنت اجدّ في البحث عنك في هذه الأيام القليلة الماضية.. ويبدو ان احدا لايعرف مكانك بالضّبط " . فقال "كونراد" : نعم، فقد استاجرت هذه "الفيلاّ" منذ ايام قلائل فقط..

واين تقيم انت ؟" . فاجابه قائلا: " في فندق "بريتانيا" .. وإنني لمسرور حقا بأن اراك يا "آدو" .. الا حدثني بكل شيء عن نفسك !" . فقال "كونراد" بلهجة غامضة: " هل نذهب لنتمشى قليلا ؟.. حسنا، ساستبدل حذائي اولا!" .

وعاد بعد لحظة ، وانطلقا مصعدين في طريق ظليل رطب يتعرج بين حوائط صخريّة تكسوها فروع الأعناب ، وأرضه الزّرقاء لم تمسّها بعد شمس الصّباح.. وما لبث "كونراد" ان سال قائلا: " وكيف حال اسرتك؟" . فتردّد "ألبينوس" هنيهة ثمّ قال : " الأفضل الا تسال يا "آدو" ، فإن امورا مزعجة وقعت لي في الأيام الأخيرة.. لقد انفصلت في العام الماضي عن "إليزابيث" ، ثم ماتت ابنتي الصغيرة "إيرما" على اثر التهاب رئوي.. بيد أن الأفضل الا اتحدّث عن هذه الأمور، إذا كان هذا لايضيرك؟" .. فقال: " كونراد" : إنه لامر محزن حقا!" .

وغرقا في الصمت .. فراح "ألبينوس" يسائل نفسه: " الا يكون امرا مشوّقا ومثيرا أن يتحدث عن قصة غرامه المشبوب مع هذا الصديق القديم، الذي كان يعرفه على الدوام شخصا خجولا ، بعيدا عن الجموح أو المغامرات ؟

ولكنّه ما لبث ان استبعد هذه الفكرة .. بينما كان "كونراد"– من ناحيته – يقول في نفسه إنه اخطا في الواقع إذ خرج يتمشّى معه فقد كان يفضل ان يكون النّاس حين يصحبونه سعداء ، لايشغلهم هم ، ولا تحيط بهم احزان!

وأخيرا قال "ألبينوس" : " لم اكن اعلم انك في "فرنسا" ..

وإنما كنت اعتقد انك تفضل على الدوام بلاد "موسوليني".

فساله "كونراد" في عبوس عجيب : "من هو "موسوليني"؟".

وإذا ذاك ضحك "ألبينوس" قائلا: "آه.. انت على الدوام كما انت.. لاتفزع ، فلن اتكلم في السياسة .. حدثني عن عملك لو سمحت .. لقد كان كتابك الاخير رائعا!".

ولكن "آدو" قال: "اخشى الا يكون وطننا في المستوى الذي يتيح له تقدير اعمالي".. فقال "ألبينوس" : "رويدك، رويدك.. هناك كثيرون يحبون كتبك!". فقال "كونراد" : "ليس كما احبها انا .. ومازال ثمة في الواقع وقت طويل– ربما قرن باكمله – حتى أجد التقدير الواجب لقيمتي .. ما لم يكن فن الكتابة والقراءة قد طواه النسيان يومذاك!.. بل إنني لاخشى ان يكون قد طواه بالفعل – في "ألمانيا"– في هذا النصف الأخير من القرن".

وتساءل "ألبينوس" : "كيف ذلك؟". فاجاب "كونراد" :

" إن الأدب حين يقتصر على خدمة الحياة والاحياء ، فمعنى ذلك أنه يموت!.. وإنني لاطيل التفكير في كتب "فروديان" وفي الكتب المتعلقة بالريف الهادئ.. قد تقول في معرض الجدل إن الأدب الشعبي ليس هو المهم، وإنّما المهم هو إنتاج ذينك الكاتبين او الثلاثة الذين يقبعون بعيدا ، دون ان يشعر بهم معاصروهم من العظماء ذوي النّفوذ .. بيد ان الأمرين سيّان، وإنني لاتميز غيظا إذ ارى تلك الكتب التي اخذها الناس ماخذا جديا!".

وقال "ألبينوس" يجادله: "كلا، لست على الإطلاق من رايك .. فإذا كان عصرنا مهتما بالمشاكل الاجتماعية، فلماذا لايحاول المؤلفون العباقرة أن يمدّوا يد العون؟..

إن الحرب، او القلق الذي جاء في اعقاب الحرب.."

وقاطعه "كونراد" بانين خافت، قائلا: "حسبك!".

واغرقا في الصمت مرة أخرى، وقد بلغ بهما الطّريق المتعرج إلى ايكة من ايكات

الصّنوبر ، كانت الفراشات فيها ترسل طنينا يحكي أزيز الدمى الآليّة . . وكان ثمة غدير ينساب فوق سطح من الصّخور الملساء – التي كانت تبدو وكانها ترتجف تحت الامواج المتكسّرة– فجلسا فوق العشب الجاف المتضوع بالشّذا. وتطلّع "ألبينوس" إلى قمم اشجار الصنوبر التي كانت تبدو كأنها عشب البحر الاخضر يطفو على صفحة ماء ازرق، وسال صديقه قائلا: " ولكن الا تشعر بانك اشبه بالشريد، إذ تعيش على الدوام في الخارج؟.. اولا تحن إلى رنين الأصوات الألمانية؟" .

فقال "كونراد" : إنني أصادف بعض المواطنين من حين إلى آخر . . وأحيانا يكون الأمر مسليا جدا ، فقد لاحظت –مثلا– ان السّياح الألمان يميلون إلى الاعتقاد بانه ما من احد يمكنه ان يفهم لغتهم" . . فاضطجع "ألبينوس" على ظهره قائلا: " إنني لااحتمل ابدا ان أعيش في الخارج" .

واضطجع "كونراد" كذلك ، وقال وهو يشبك ذراعيه تحت راسه : "لقد مرت بي– في ذلك اليوم الذي التقينا فيه– تجربة طريفة مع صديقيك اللذين كانا في السّيارة . . أنت تعرفهما ، اليس كذلك؟" . . فاجاب "ألبينوس" ، مرسلا ضحكة صغيرة : " نعم قليلا" .

وهنا قال "كونراد" : " لقد حدست هذا، إذ رايت مرحهما حين تخلفت عن الركوب" . فقال "ألبينوس" في نفسه بحنان : " ياللفتاة الصغيرة الماكرة ! . . هل أخبره بكلّ شيء عنها ؟ . . كلا . . . "

ومضى "كونراد" يقول: " لقد قضيت وقتا ممتعا انصت لحديثهما . ولكنّني لااشعر حقا بالحنين إلى الوطن . . وإنه لشيء غريب ، فكلّما فكّرت في ذلك ازددت يقينا بأن الفنّان يمرّ بحياته وقت يصبح عنده في غير حاجة إلى وطنه . .

كتلك المخلوقات – كما تعرف – التي تعيش اولا في الماء، ثم تتعود الحياة بعد ذلك على اليابسة" . فقال "ألبينوس" :

"لابدّ أن في طبيعتي شيئا يتوق إلى برودة الماء . . وبهذه المناسبة ، اذكر قطعة بالغة الجمال وجدتها في مقدمة كتاب "بوم" الجديد :" اكتشاف التّابيرونا" ، ومؤدّاها أن

رحالة صينيا ، كان– منذ أجيال مضت– يطوف حول "جوبا" و"الهند" .. وبينما كان واقفا أمام تمثال ضخم لـ"بوذا" ، في معبد فوق أكمة من أكمات "سيلان" ، إذا به يرى تاجرا يقدم هدية صينية .. مروحة حريرية بيضاء ، و..."

وهنا قاطعه "كونراد"قائلا :" واستولى عليه عندئذ سأم مفاجئ من غربته الطويلة .. أنا أعرف مثل هذه الأشياء.. وإن كنت لم أقرأ الكتاب الأخير لذلك الأحمق المأفون، ولن أقرأه أبدا!" .

وخيم عليهما الصّمت مرة أخرى ، وقد شعر كلاهما بضيق شديد .. وبعد أن تأملا أشجار الصّنوبر وما كان يبدو خلالها من زرقة السماء ، لبضع دقائق، نهض "كونراد" قائلا:" إنني آسف أيها الصديق الحميم ، فهل يضيرك كثيرا أن نعود الآن؟.. إنّ أمامي بضع صفحات يجب أن أكتبها قبل انتصاف النهار" . فقال "ألبينوس" وهو ينهض بدوره:" لامانع، فإنّني الآخر يجب أن أعود!" .

الفصل التاسع والعشرون

عرج "ألبينوس" على حانوت – وهو في طريقه إلى الفندق ليشتري بعض السّجائر. وإذا كان يزيح بظهر يده السّتار الفضفاضة المجلجلة المصنوعة من الغاب والخرز ، اصطدم بالكولونيل الفرنسي المتقاعد ، الذي كان جارهم في الأيام الأخيرة على مائدة الطّعام. وتراجع "ألبينوس" إلى الخلف فوق الطّوار الضيّق ، فاعتذر الكولونيل– وكان شخصا ظريفا – قائلا: " عفوا.. إنه لصباح جميل، أليس كذلك؟" .

فقال "ألبينوس" : " نعم .. جميل جدا" .

وتساءل الكولونيل : " وأين العاشقان اليوم؟" .

فسأله "ألبينوس" في دهشة قائلا: " ماذا تعني؟" .. فأجاب الكولونيل وفي عينيه الزرقاوين بلون الخزف نظرة نافذة، قائلا: " هذان اللذان يتعانقان في كل ركن.. ألا يسمونهما كذلك؟" . ثم أضاف قائلا: " إن كل ما يعنيني ألا يفعلا ما يفعلانه في الحديقة تحت نافذتي مباشرة.. إن ذلك يجعل رجلا عجوزا مثلي يمتلئ غيرة وحسدا" .

وعاد "ألبينوس" يقول: " ماذا تعني؟" . فضحك الكولونيل قائلا: "لااعتقد انني استطيع ان اقول كلّ ذلك مرة أخرى بالألمانية.. نعمت صباحا ياسيدي العزيز!" .

ثم انصرف . ودخل "ألبينوس" الحانوت ، وهو يغمغم لنفسه: ما هذا الهراء ؟" .. وراح يحدّق تحديقا شديدا في السيّدة الجالسة على مقعد صغير خلف صندوق النّقود ، فسألته قائلة: " ماذا يا سيّدي؟" .. فقال مرة أخرى: " ما هذا الهراء المحض؟" .. وظلّ واقفا، عابسا ، في طريق الداخلين والخارجين ، وقد انتابه شعور غامض بان كل شيء كان يسير في عكس اتجاهه الحقيقي، ثم يرتد فجأة إلى الوراء ..

ومن ثم كان عليه أن يتأمّله من الأول– مرة أخرى– إذا كان يريد أن يفهم!! .. شعور كان مجرّدا من أي ألم أو دهشة ، وكأنما هو شيء مظلم– ولاصوت له– يلوح أمام عينيه من بعيد ، ثم يقترب منه شيئا فشيئا.. فوقف وقد تولاه نوع من الذهول العاجز المتبلّد، غير محاول حتى أن يتفادى وقع تلك الصّدمة الرهيبة ، وكأنها ظاهرة عجيبة لن تمسّه

بسوء ما دام هذا الذهول مستمرّا!

وأخيرا، قال فجاة: " مستحيل! " . وانبثقت امامه فكرة غريبة مرفرفة- كأنّها الخفّاش يخرج من الظّلام- وهو يحدق فيها كأنها شيء خليق بأن يدرسه، لا أن يفزع منه.. واستدار على عقبه .. وعاد مسرعا في الطريق الذي جاء منه لتوّه.

وكان "كونراد" يكتب في الحديقة ، وقد احتاج إلى مفكرة، فذهب ليأتي بها من حجرة مكتبه ، في الطابق الأرضي من الفيلاّ . وكان يبحث عنها فوق المنضدة بقرب النافذة، حين رأى وجه "ألبينوس" يلوح له في الخارج ، فغمغم في حنق قائلا: " ياللرّجل المضجر ، الا يريد ان يتركني في سلام؟.. اما يفتأ هكذا يطلع لي من تحت الأرض؟" ..

وقال "ألبينوس" في صوت غريب مخبول: " اسمع يا "آدو" .. نسيت ان اسألك عن شيء .. ماذا كانا يقولان في السيارة؟" .

وتساءل "كونراد" : ماذا؟ . ثم أردف: " آه، اجل .. لقد كانت فعلا تجربة طريفة من وجهة ما .. وقد أردت ان اعطيك مثالا عن الكيفية التي يتصرف بها الألمان ، إذ يظنون ان احدا لايفهم كلامهم..!" .. واستطرد يقول: " حسنا .. لقد كان ارخص واقذر كلام غرامي بصوت مرتفع سمعته في حياتي.. لقد تكلم صديقاك هذان عن حبهما في حرية وكانهما وحدهما في الفردوس!" .

وقال "ألبينوس" : "آدو" .. هل تقسم على ما تقول؟" .. وساله الرجل في دهشة: " ماذا تعني ؟" . فقال: " هل انت متاكد تماما، تماما، مما تقول؟" . فقال : " نعم. ولكن ماذا تقصد ؟.. انتظر قليلا، فسآتي إليك في الحديقة، إذ إنني لاأستطيع سماع كلمة واحدة من هذه النافذة.

ووجد مفكرته وخرج.، وفي الحديقة صاح قائلا: " هاللو أين انت؟" . ولكن "ألبينوس" اختفى .. وبحث عنه في الدرب المؤدي إلى الباب ، ولكن كلا.. لقد ذهب الرجل!

الفصل الثلاثون

نـزل "ألبـينوس" إلى المدينة، واجتاز شوارعها – في غير تعجّل، وفي خطوة ثابتة – حتى بلغ الفندق ، وصعد إلى غرفته – أو بالأحرى غرفتهما– فإذا بها خالية، والفراش غير مرتب، وبعض القهوة مسكوب على الأرض، وملعقة صغيرة تلمع فوق البساط الأبيض. وراح وقد أحنى راسه يحدّق في ذلك الشيء اللامع .،. وفي هذه اللحظة انبعثت من الحديقة ضحكة "مارجوت" الرنانة، فاطل من النافذة.. وهنالك رآها تسير بجانب شاب يرتدي سروالا قصيرا ابيض اللون. وكان مضرب الكرة– الذي راحت تلوّح به وهي تتحدث – يومض تحت اشعة الشمس..

ولمح رفيقها"ألبينوس" في نافذة الطابق الثالث ، وما لبثت "مارجوت" ان تطلعت إلى اعلى ثم توقفت ، فطوح "ألبينوس" ذراعه ، وكانه يضم به شيئا إلى صدره، قاصدا ان يقول لها بهذه الإشارة :" اصعدي!" . وفهمت "مارجوت" ما اراد، فاومات براسها ، ثم سارت في بطء عبر الممرّ– المرصوف بالحصباء – نحو شجيرات الورد التي تحفّ بالمدخل.

وتراجع "ألبـينوس" عن النافذة، واقعى لدى حقيبة ملابسه ، ومد يده ليفتحها ، ولكنه ما لبث ان تذكر ان الشيء الذي يبحث عنه كان في مكان آخر ، فانتصب واتجه إلى خزانة الملابس، ودفع يده في جيب معطفه المصنوع من وبر الجمل، ثم راح بسرعة يفحص الشيء الذي اخرجه ليتاكد من أنه معبا ، ثم وقف متاهبا في مواجهة الباب:

بمجرد أن تفتح الباب سيطلق عليها النار، ولن يكلف نفسه عناء سؤالها عن شيء ، فالأمر كله واضح وضوح الموت..

لقد تبلجت في ذهنه الحقيقة كلها الآن في هدوء خفي .. لقد كانا يخدعانه باستمرار، وبدهاء.. يجب أن يقتلها!

وراح عقله – وهو ينتظرها لدى الباب– يتابع سيرها:

فلابد أنها الآن قد دخلت الفندق، ثم لابد انها الآن ترتفع في المصعد . وارهف اذنيه

لصوت كعبيها وهي تعبر الردهة، ولكن لابد ان مخيلته قد سبقتها . فقد ظل كل شيء هادئا، ولم يسمع صوتا.. إذن فليبدأ من جديدا.. وكان ممسكا بالمسدس "**الأوتوماتيكي**"، وقد بدا كانه امتداد طبيعي ليده التي كانت متوترة وتواقة لان تفرغ ما فيها .. بل لقد كان يستشعر تلذذا طاغيا في فكرة الضغط على ذلك الزناد.

وتاهب لان يطلق النار في اتجاه الباب الأبيض المغلق، حين سمع الوقع الخافت لحذاءيها المطاطين.. فقد كانت تلبس حذاءي التنس، ولم يكن بهما كعبان يدقان الارض..

والآن فليطلق النارا.. ولكن- في هذه اللحظة- ارتفع صوت خطوات شخص آخر .. وسمع صوتا يقول بالفرنسية خارج الباب: " هل تسمح لي سيدتي بان آخذ الآنية؟؛.

ثم دخلت "**مارجوت**" ومعها الخادم، فدسّ المسدس في جيبه.

وقالت "**مارجوت**" : " ماذا تريد؟ .. اما كان الاجدر بك أن تنزل بدلا من ان تدعوني – بطريقة نابية- إلى الصعود؟".

ولم يحر جوابا ، وإنما ظل منتظرا – وقد نكس رأسه- حتى جمعت الخادم الآنية، والتقطت الملعقة الصغيرة، وابتسمت ثم خرجت .. فاغلق الباب خلفها، وعندئذ قالت "**مارجوت**" :" ماذا حدث يا "**ألبير**"؟".

فانزل يده إلى جيبه ، بينما القت "**مارجوت**" بنفسها-في اختلاجة الم- على مقعد بجانب السرير، واحنت جيدها الذي لوحته الشمس، وبدأت تفك بسرعة رباط حذاءيها الأبيضين، فراح يحدق في شعرها الحريري الناعم، والظل المائل إلى الزرقة في الموضع المحلوق من عنقها .. كان مستحيلا ان يطلق رصاص المسدس عليها وهي تخلع حذاءيها . وكان ثمة جرح في قدميها ، لوث جوربها الأبيض بالدم، فقالت:" إنني لأزيد الجرح تهتكا كلما حككته بيدي!" . ثم رفعت رأسها فرات المسدس الاسود في يده، فقالت في هدوء شديد : "لاتلعب بهذا الشيء أيها الاحمق!" .

وقبض "**ألبينوس**" على رسغها ، وهمس قائلا:" قفي!".

فقالت وهي تخلع الجورب بيدها الاخرى :" لن اقف.

أطلق يدي.. انظر ، لقد التصق الجرح بالجورب!".

وأخذ يهزها في عنف حتى قعقع المقعد تحتها، فتشبثت بحافة السرير ، وبدأت تضحك قائلة: " ارجو ان تطلق عليّ الرصاص ، فلسوف يكون ذلك شبيها بما حدث في الرواية التي شاهدناها . . وانا بريئة مثل بطلتها تماما" .

فزمجر "ألبينوس" قائلا: " انت كاذبة.. انت وذلك الوغد .. ولاشيء من ورائكما غير الخيانة ، والخداع، و.. " .

وارتعشت شفته السفلى ، وهو يغالب لعثمته ، فصاحت : " ارجو أن تبعد هذا الشيء عنّي ، فلن اتكلم إليك ما لم تبعده عني.. إنني لاأعرف ما الذي حدث، ولاأريد ان اعرف .. كل ما أعرفه هو انني مخلصة لك! " .

وقال "ألبينوس" بصوت اجش: " حسنا، يمكنك ان تقولي ما تشائين،، ولكنك ستموتين بعد ذلك! " . فقالت له: " لاحاجة بك إلى قتلي .. أؤكد لك ان لا حاجة بك إلى ذلك يا حبيبي" . فقال لها: "استمري.. تكلمي! " ..

وقالت في نفسها: " لو امكنني ان اندفع نحو الباب . لصرخت ، ولجاء الناس مسرعين.. ولكن كل شيء يكون قد ضاع .. كل شيء! " . ثم خاطبته قائلة: " لن استطيع ان اتكلم وانت ممسك بهذا الشيء هكذا.. ارجوك ان تبعده جانبا! " ..

وكانت تواصل حديثها لنفسها: " .. او ربما يمكنني ان اسقط المسدس من يده! " .

وقال "ألبينوس" : " كلا.. يجب ان تعترفي قبل كل شيء.. إن عندي معلومات ، إنني اعرف كل شيء .. اعرف كل شيء" .. وراح يكرر هذه العبارة بصوت محطم ، وهو يروح ويجيء في الغرفة ويضرب الأثاث بحافة يده، ثم استطرد قائلا: " لقد جلس امامكما في تلك الحافلة "الأتوبيس" وقد تصرفتما امامه كعشيقين.. اوه، إنني بالتأكيد سأقتلك! " . فقالت "مارجوت" : " نعم .. لقد فكرت كثيرا في ان اقول لك، ولكنني كنت اعرف انك لن تفهم .. بالله ابعد هذا الشيء يا "ألبير" !.

وصاح "ألبينوس" : " ماذا هناك يستحق ان افهمه؟..

ماذا هنالك لتقوليه لي؟" . فقالت : " انت تعرف اول كل شيء – يا "ألبير" – إنه لايهتم بالنساء! " .. ولكنه صرخ فيها : " اخرسي .. لقد كانت تلك هي الكذبة الكبرى

في الأمر كله.. كانت هي الخدعة الخبيثة منذ البداية!".

وقالت "**مارجوت**" في نفسها :" لو انه رفع صوته ، لزال الخطر!".

ثم مضت تقول له:" كلا،و إنه حقا لايهتم بالنساء.. ولكنني قلت له ذات مرة، على سبيل المزاح" دعنا نر ما إذا كنت غير قادرة على أن انسيك غلمانك!"..

اوه، لقد كنا نعلم انه مجرد مزاح.. ياحبيبي!".

وعاد يصيح :" تلك كذبة قذرة لاأصدقها.. لقد رآكما "**كونراد**" ، كما رآكما ذلك الكولونيل الفرنسي.. انا الوحيد الذي كان اعمى!"..فقالت "**مارجوت**" ببرود:" أوه، ولكنني كنت اغيظه كثيرا بهذه الطريقة.. وقد كان الأمر كله مسليا جدا.. بيد أنني لن افعل ذلك مرة أخرى، ما دام هذا يضايقك".

وقال لها :" إذن، كنت تخونيني لمجرد المزاح ؟.. يالها من قذارة !".. فقالت:" إنني لم اخنك طبعا، فكيف تجرؤ على أن تقول ذلك؟.. ما كان بوسعه ان يخونك معي.. ولم نتبادل ولاقبلة.. فحتى هذا كان بغيضا إلى كلّ منا !". فتساءل في وعيد:" وإذا استجوبته في غير حضورك.. بالطبع في غير حضورك؟". فاجابت قائلة:" استجوبه بكل تاكيد ، فلسوف يقول لك ما قلته أنا .. وكل ما ستفعله انك ستجعل من نفسك اضحوكة!".

*****

واستمرا يتكلمان هكذا ساعة كاملة، اخذت "**مارجوت**" خلالها تسترد سيطرتها على الموقف شيئا فشيئا.. ولكنها – اخيرا– لم تستطع ان تحتمل اكثر مما احتملت.

فاستولت عليها نوبة هستيرية ،والقت بنفسها فوق السرير في ثوب التنس الابيض، وإحدى قدميها عارية.. حتى إذا هدأت بعد برهة، راحت تبكي وتبلل الوسادة بدموعها.

اما "**البينوس**" ، فجلس في مقعد بجوار النافذة ، وراح يستعرض كل صغيرة منذ تعرفه بـ"**ريكس**"، فبدت له الحوادث محفوفة بضوء قوي غمر كل كيانه.. وما لبث أن شعر بشيء ما يتحطم في داخله إلى الأبد.. فبالرغم من الطريقة القوية الإقناع– التي حاولت "**مارجوت**" ان تبرهن بها على أنها كانت مخلصةله– احس بأن رائحة الشك المسممة

ستتصاعد من كل شيء بعد اليوم..

واخيرا، نهض واقفا. وسار نحو السرير، ونظر إلى كعب قدمها القرنفلي ، الذي الصقت عليه قطعة من شريط اسود ، وحدّق في بشرة ساقها السمراء الذهبية، الرشيقة الممتلئة ، وقال في نفسه إنه كان بوسعه ان يقتلها ، ولكنه ما كان ليقوى على ان يهجرها.. وما لبث ان قال بصوت حزين:" حسنا يا "**مارجوت**" ، إنني اصدقك.. ولكن عليك ان تنهضي فورا وتغيري ملابسك، فسوف نحزم اشياءنا في الحال، ونغادر هذا المكان، لأنني لااجد في نفسي القدرة على ان اقابله بعد الآن .. لا لأنني اعتقد انك خنتيني معه..

لا، ليس لهذا .. ولكن لانني لااستطيع ذلك فحسب.. فقد جسمت لنفسي الأمر كله تجسيما قاسيا، و.. ولكن لااهمية لذلك، فهيا ، انهضي! " .

وقالت "**مارجوت**" بصوت ناعم:"قبلني" . فاجابها،" لا ليس الآن.. إنني اريد ان اخرج من هنا باسرع ما يمكن .. لقد كنت موشكا ان اقتلك في هذه الغرفة، ولسوف اقتلك بالتاكيد إذا لم نحزم امتعتنا فورا! " .

وبسرعة– وفي سكون، ودون ان ينظر احدهما إلى الآخر– حزما امتعتهما ، ثم جاء البواب واخذها.. وكان"**ريكس**" يلعب البوكر في الشرفة مع اثنين من الأمريكيين واحد الروس، في ظل شجرة كافور ضخمة، وكان الحظ ضده في ذلك الصباح. ومن ثم راح يفكر في خدعة صغيرة يستخدمها في الدور التالي .. وفجاة راى– وراء شجيرات المانوليا– سيارة "**البينوس**" تتحرك في الطريق القريب من "الجراج" ، وقد استدارت في حركة جنونية، ثم اختفت .. فتمتم "**ريكس**" :" ترى ماذا هنالك؟.. من الذي يقود هذه السيارة؟" .

دفع ما عليه ، ثم ذهب يبحث عن "**مارجوت**" ، فلم يجدها في ملعب التنس، ولم يجدها في الحديقة. وإذ صعد، وجد باب "**البينوس**" مفتوحا ، والحجرة ساكنة، وخزانة الملابس مفتوحة وخالية، والرف الزجاجي– الذي يعلو حوض الغسيل – خاليا كذلك.. فمطّ شفته السفلى ، وهبط ليتاكد من انهما– على الاقل– قد دفعا أجر غرفته.

الفصل الواحد والثلاثون

كثير من الناس يستطيعون -دون أن يكون لديهم الخبرة الفنية- أن يقوموا بإصلاح أسلاك الكهرباء بعد انقطاع النور، أو إصلاح ساعة توقفت عن الدوران بواسطة مبراة وجعلها تدور ثانية أو حتى عند الضرورة تقديد شريحة من اللحم، ولكن "**ألبينوس**" لم يكن واحدا من هؤلاء ، فلم يكن بوسعه أن يعقد رباط عنقه، أو أن يقص أظافر يده اليمنى ، أو أن يحزم لفافة .. ولم يكن يملك أن ينزع سدادة زجاجة دون أن يفتت نصف السدادة، ثم يسحب نصفها الآخر، وفي طفولته ، لم يعتد قط أن يبني أي شيء مما يبنيه الأطفال الآخرون. كما أنه لم يفكر يوما- في شبابه- في أن يفكك أجزاء دراجته. لو أن يفعل بها أي شيء ،اللهم إلا أن يركبها. وكان- إذا تعبت إحدى عجلتيها- يدفع بها، وهي عاجزة تزحف كخف قديم، إلى أقرب محل لإصلاح الدّراجات، وعندما تعلّم تجديد اللوحات الزيتية - فيما بعد- كان يخاف على الدوام أن يلمس النسيج بنفسه، وقد اشتهر خلال الحرب بالعجز المدهش عن أن يفعل بيديه أي شيء على الإطلاق.. لذلك، لم يكن ثمة عجب يذكر، من أنه لم يكن يحسن قيادة السيارة!

وإذ غادر "**روجينار**"- ذات الشوارع الضيقة المزدحمة بالناس والعربات: حيث كان عليه أن يستعمل البوق وأن يتوقف ، بين لحظة وأخرى، باهتزاز عنيف ، أو يحيد مضطربا مترنحا - أخذ يقود السيارة في سهولة ويسر عبر الطريق المتسعة الخالية.. وإذ ذاك بدأت الأفكار السوداء تهاجم عقله في تباين واختلاط ، فخطر بباله أن الطريق سريعا ما سيزداد ارتفاعا وتصعيدا في الجبال، وأن الريح سريعا ما ستبدأ تهب هبوبا عنيفا خطرا ، وأن زر قميص "**ريكس**" قد علق ذات مرة في ثوب "**مارجوت**"، وأن قلبه لم يكن مثقلا ومبلبلا من قبل كما هو الآن!

وفجاة لاحت له حافلة كبيرة مقبلة من بعيد، فداس على آلة التوقف في عنف ، فصاحت "**مارجوت**" قائلة: " ماذا تفعل يا"**ألبير**" ؟ الزم يمينك.. هذا كل ما عليك أن

نفعله اومرّت السيارة الكبيرة في ضجيج- وكانت مملوءة بالسيّاح- وانطلق "ألبينوس" مرة أخرى . وبدا الطريق يدور حول الجبل.

وقال في نفسه:" هل يهمني اين نحن ذاهبان؟.. إنني في اي مكان ذهبنا، لن أستطيع أن اهرب من هذا الالم..

لقد وصف حديثهما بانه:" ارخص واقذر كلام مرتفع سمعته.. إنني سأجن!" . وراحت "مارجوت" تستحلفه ان يلزم الحذر ،وتلحف في السؤال عن مقصدهما. .وعندئذ سالها "ألبينوس" في صوت واهن قائلا:" هل تقسمين لي انه لم يكن هنالك شيء؟" .. ثم شعر بالدموع الساخنة تغشى بصره، فراح يحملق حتى وضح الطريق أمامه مرة أخرى ، بينما قالت "مارجوت" :" اقسم لك.. لقد تعبت من كثرة ما اقسمت لك،فاقتلني،ولكن لاتعذبني اكثر من ذلك!" . ثم قالت إنني أشعربالحر خانقا، وساخلع معطفي " . فداس على أداة التوقف وضحكت "مارجوت" قائلة :" ما الحاجة للوقوف من اجل هذا؟..أوه ياحبيبي ، يا حبيبي!" .

وراح يعاونها في خلع معطفها الذي غطاه التراب،وفيما هو يفعل ذلك ، تذكر- بقوة طاغية- كيف انه لاحظ لأول مرة ،وهما في مقهى صغير متواضع – منذ وقت طويل مضى- الطريقة التي تحرك بها ذراعيها وتحني عنقها البديع وهي تتخلص من كميها .. وعندئذ تساقطت الدموع من عينيه وانسابت على وجنتيه دون أن يستطيع لها ضبطا.. .فطوقته "مارجوت" بذراعيها والصقت خدها بجبينه المطاطا!

وكانت سيارتهما واقفة بالقرب من سياج الطريق . وهو حائط من الحجر الضخم يرتفع قدما واحدة ،وتقع خلفه هوة سحيقة يحف بها نبات العليق ويتدلى منحدرا فيها، ويمكن للاذن أن تسمع في أعماقها البعيدة هسيس وخرير مياه غدير سريع الجريان. وعلى الجانب الأيسر من الطريق كان يقوم مرتفع صخري ضارب إلى الحمرة وقد اكتست قمته باشجار الصنوبر ..وكانت الشمس قد اشتد أوارها..

وقال "ألبينوس" لـ"مارجوت"وهو يئن ويتاوه:" احبك حبا جنونيا.. حبا جنونيا!" . وراح يلاطفها ويربت يديها بحركة ثائرة، فضحكت في نعومة ضحكة راضية.. وما

لبث أن انطلق بالسيارة ، وقد بدا له الآن أنها طيعة وسهلة القيادة أكثر من ذي قبل . ولم يعد يقبض على عجلة القيادة بانفعال شديد كما كان يفعل منذ حين. إلا أن المنحنيات بدات تكثر شيئا فشيئا ، وكان يرتفع على أحد الجانبين جرف الجبل، وتهوي على الجانب الآخر وهدة سحيقة، . والشمس تسطع في عينيه ، ومؤشر السرعة يهتز ويرتفع .. وما لبث أن ظهر انحناء حاد في الطريق، فتاهب "ألبينوس" لأن يجتازه بقدر خاص من المهارة . وكانت في أعلى الطريق امرأة عجوز تجمع الاعشاب ، فرأت عن يمين الجرف هذه السيارة الصغيرة الزرقاء تسرع نحو المنحنى الذي في الجهة الاخرى منه .. ورأت اثنين من راكبي الدراجات، منحنيين على مقبض دراجتيهما ، مقبلين بسرعة..

الفصل الثاني والثلاثون

رأت المرأة العجوز- التي كانت تجمع الأعشاب على جانب الجرف- السيارة مقبلة، وراكبي الدراجتين منطلقين نحو المنحنى الحاد، من اتجاهين متقابلين.. ومن طائرة للبريد- كانت تتجه نحو الساحل ، في اديم السماء الأزرق المشرق- كان بوسع الطيار أن يرى منحنيات الطريق، وجناحا طائرته ، بلقيان ظلالهما على المنحدرات المشمسة.. وكان بوسعه أن يرى كذلك قريتين تبعد إحداهما عن الأخرى اثني عشر ميلا، ولعله لو ارتفع أكثر من ذلك قليلا، لاستطاع أن يرى كذلك جبال "**بروفنس**"، ومدينة بعيدة في بلاد أخرى ، هي "**برلين**" ، حيث كان الجو حارا كذلك، لأنه في ذلك اليوم بالذات كانت وجنة الأرض من (جبل طارق) إلى (**استوكهولم**) مصطبغة بضياء الشمس الدافئة.. ولقد بيعت في "**برلين**" – في ذلك اليوم- كمية هائلة من المثلجات . ولطالما كانت "**إيرما**" تقف متطلعة – بفضول الطفولة- إلى بائع "الآيس كريم"، وهو يملأ قرطاسا من "البسكويت الرقيق بالحلوى المتجمدة التي تجعل لسان المرء يرقص حين يذوقها ، وتدغدغ أسنانه الأمامية بخدر لذيذ . .لذلك فحين خرجت "**إليزابيث**" إلى الشرفة ، ووقعت عينها على بائع "الآيس كريم" ، بدا لها أمرا غريبا أن ملابسه كانت كلها بيضاء، وأن ملابسها كانت كلها سوداء!

كانت قد استيقظت من نومها – في ذلك الصباح- متعبة جدا، وقد تحققت في توجس شديد، أنها أفاقت لأول مرة من حالة التبلد التام التي استسلمت لها في الأيام الأخيرة..

ولم تستطع أن تفهم السرّ في شعورها بضيق خانق!".

وتمهلت بعض الوقت في الشرفة ، تفكر في أحداث اليوم السابق، الذي لم يقع فيه أي شيء ذي بال، اللهم إلا الذهاب في فناء الكنيسة- كعادتها- ومنظر النحل يحط هنالك على الزهور ، وبريق السياج الرطب المحيط بالقبر، والتراب.. لماذا أشعر باضطراب في أعماقي؟".

وكانت الشمس تلقي ضوءها الباهر على قرميد الأسطح في **"برلين"** ، وفي **"بروكسل"** ، وفي **"باريس"** ، وفيما بعدها نحو الجنوب.. وكانت طائرة البريد تتجه إلى **"سان كاسيان"** .

أما المرأة العجوز التي كانت تجمع الأعشاب على المنحدر الصخري ، فستظل عاما كاملا- على الأقل- تروي للناس كيف رأت .. ما رأت!

الفصل الثالث والثلاثون

لم يكن "ألبينوس" يدري متى ولاكيف عرف هذه الأشياء: كم مضى من الوقت منذ انطلاقه نحو ذلك المنحنى حتى الآن؟" .. مضى اسبوعان!.. وأين هو في الوقت الحاضر؟

كان بمستشفى في "جراس" .. وأية عملية جراحية اجريت له؟.. كانت عملية تربنة.. وما علة فقده للوعي كل هذه المدة الطويلة؟.. كان ذلك بسبب تدفق الدم في المخ..

بيد انه جاءت لحظة تجمعت فيها كل هذه الأمور في امر واحد: وذلك انه على قيد الحياة، وانه في كامل وعيه، وقد ادرك ان "مارجوت" والممرضة قريبتان منه ، وانه كان ينام نوما عميقا ، وقد استيقظ لتوّه!" ..

ولكن ترى كم كان الوقت؟.. لم يكن يعلم .. ربما لم يزل في الصباح المبكر!

وكان يغطي جبينه وعينيه رباط ناعم سميك، ولكن أعلى رأسه لم يكن مغطى بشيء، وقد أدهشه أن تحس اصابعه جذور شعر جديد نابت في رأسه. وكان يحتفظ في ذاكرته بصورة تحكي – في قوة بريقها وتالق الوانها– صورة فوتوغرافية ملونة، على لوح من البلور، وقد بدا فيها انحناء الطريق الأزرق المصقول، وعن يساره الممتد، وأمامه راكبا الدراجتين يقتربان ، كقردين قذرين في قميصين بلون البرتقال.، ثم الدفعة العنيفة لعجلة القيادة، لتلافيهما.. واندفاع العربة مرتقية كوما من الصخور على اليمين ، ثم عامود أسلاك البرق– في الجانب الآخر– يلوح امام زجاج السيارة .. ثم ينطفئ النور!

ولقد اكملت "مارجوت" هذه الذكرى له ، فقد قالت له، او بالاحرى قال له صوتها بالأمس، أو اول امس ، أو ربما قبل ذلك.. ولكن لماذا صوتها فقط؟.. لماذا لم يرها منذ وقت طويل؟.. إنها تلك العصابة على عينيه.. وقد يرفعونها قريبا.. ماذا قال له صوت "مارجوت"؟.. قال له:" .. لولا عامود البرق لكانت السيارة قد قذفت بنا من فوق السياج. وسقطنا في الهوة السحيقة.. لقد كان شيئا مروعا، ومازال بي أثر كدم شديد

في فخذي.. وقد انقلبت السيارة ثم تهشمت كانها البيضة".. ثم راحت تقلد كلام الممرضة الفرنسية قائلة: " إنها تساوي الف .. آلافا كثيرة من الماركات "، وإذ عجزت عن التعبير سالته قائلة: "ألبير". كيف يقولون الفين بالفرنسية؟

فاجابها: " اوه، وماذا يهم.. مادمت انت قد نجوت!".

وقالت :" لقد كان راكبا الدراجتين ظريفين جدا..

ساعداني في جمع كل الأشياء ،.. ولكنهما لم يتمكنا من العثور على مضرب التنس".. مضرب التنس؟!.. إنه ليذكر الشمس تلمع على مضرب التنس .. لماذا كان هذا مزعجا جدا؟.. آه ، نعم .. إنه ذلك الأمر الذي يشبه الكابوس في "روجينار".. هو والمسدس في يده ، وهي قادمة بحذاءين من المطاط.. هراء كل ذلك.. لقد زالت غمته، وكل شيء على ما يرام.. كم الساعة الآن؟..

متى يرفعون الرباط؟.. متى يمكنه أن يغادر الفراش؟..

هل نشر الحادث في الصحف.. في الصحف الألمانية؟

وأدار راسه إلى هذه الناحية، ثم إلى تلك ، والرباط يضايقه،كما كان يضايقه ذلك التعارض بين حواسه، فقد كانت أذناه تلتقطان أصوات أشياء كثيرة ، بينما لاترى عيناه شيئا.. ولم يكن يدري شكل الغرفة، ولا الممرضة، والطبيب.. والوقت؟ هل هو الصباح؟.. لقد نام نوما طويلا طيبا.. ولربما كانت النافذة مفتوحة ، لأنه كان يسمع وقع حوافر جواد في الخارج، وصوت خرير الماء، وقعقعة دلو.. ولربما كان ثمة فناء به بئر، ويظلله شجر "الدلب" في الصباح الرطب!

*****

وظل مستلقيا بعض الوقت بلا حراك، محاولا ان يوفق بين الاصوات المختلفة ليجعل منها صورا في مخيلته..

وسمع صوت "مارجوت" وهي تضحك ثم بعدها الممرضة!.. وبدا له انهما تجلسان في الغرفة المجاورة. وكانت الممرضة تعلم "مارجوت" كيف تنطق لفظا فرنسيانطقا

صحيحا ، فراحت "**مارجوت**" تكرره عدة مرات ، ثم ضحكا معا ضحكا رقيقا!

وبــدأ "**ألبــينوس**" – وهو يشعر بانه يفعل شيئا ممنوعا منعا باتا– يرفع العصابة عن عينيه في حذر ، وينظر خلسة من ورائها.. ولكن الغرفة قد ظلت مظلمة ، وقد عجز عن ان يرى حتى ذلك البصيص الذي كان ينساب خلال النافذة، او تلك الرقع الخافتة من الضــوء التي تلوح على الجـدران في الليل.. إذن فـقـد كـان الوقت ليـلا، ولم يأت الصباح بعد، فكم يمكن ان تكون الأصوات خادعة؟!

ومن الغرفة المجاورة جاء صوت ارتطام اقداح قهوة أو شاي ، فراح "**ألبينوس**" يتحسس بيده المنضدة المجاورة للفراش، حتى عثر على المصباح الكهربائي الصغير، فضغط زرّه مرّة، ثم مرة اخرى .. ولكن الظلمة ظلت كما هي، وكانها اثقل من ان تتحرك!.. لعل التيار مقطوع إذن!..

وراح يبحث باصابعه عن علبة الثقاب حتى وجدها ، وكان بها عود واحد، فاشعله ، وسمع أزيزه الخفيف الدال على انه اشتعل.. ولكنه لم ير اي لهب في الظلام!.. والقى بالثقاب بعيدا، وقد صعدت إلى انفه رائحة الكبريت المحترق .. ثم صاح فجأة: "**مارجوت**" .. "**مارجوت**"!".

وارتفع صوت خطوات تقترب ، وباب يفتح، ولكن شيئا لم يتغير .. كيف يمكن ان يكون البهو المقابل للباب مظلما.

وقد كانتا تشربان القهوة هناك؟!.. وقال محنقا: " اضيئي النور.. ارجوك ، النور!".

فقال صوت "**مارجوت**".

وهو يشعر بها تقترب بخفة خلال الظلمة المطبقة: " انت ولد شقي .. يجب الا تمس هذه العصابة!".

وقال مغمغما :" ماذا تعنين ؟.. يبدو أنك ترينني، فكيف يمكنك ان ترينني في الظلام؟.. اضيئي النور توّا..

اسامعة انت؟!" .. فقال صوت الممرضة: " اهدأ .. لاتعرض نفسك للانفعال!".

وبدت له هذه الأصوات ، وهذه الخطوات ، كأنها تحدث في عالم آخر .. فهو هنا،

وهما في مكان آخر ، ولكنهما مع ذلك- بطريقة لايمكن تعليلها - قريبتان منه جدا، وفي متناول يده.. كان بينهما وبين الليل الذي يكتنفه جدار لاسبيل إلى اختراقه .. وراح يفرك مقلتيه ، وادار راسه يمنة ثم يسرة، واخذ يهز نفسه ، ولكن.. استحال عليه ان يشق لنفسه طريقا خلال تلك الظلمة الصلبة..

وصاح "**ألبينوس**" في انتفاضة ياس:" لسوف اجنّ، افتحي النافذة افعلي شيئا فقالت متلطفة:" إن النافذة مفتوحة." مفتوحة". وعاد يقول:" ربما تكون الشمس غير طالعة يا "**مارجوت**".. ربما استطيع ان ارى شيئا من الشمس الساطعة ، ولو اقل بصيص.. او ربما بالنظارة!".

فقالت له:" اهدأ يا حبيبي.. فالشمس مشرقة، وإنه لصباح رائع.. إنك تؤلمني يا "**ألبير**"!". وتمتم مذعورا :" انا .. انا..!".

ثم راح يعب أنفاسا عميقة ، وكأنما صدره كرة عظيمة يقصف في جوانبها هدير عاصف ، يطلقه فيها بقوة وعنف، حتى إذا فرغ ما بها ، راح يملأها من جديد!

الفصل الرابع والثلاثون

وما لبثت جروحه وكدماته ان شفيت ، ونما شعره مرة اخرى.. إلا ان ذلك الشعور المروع – شعوره بأن جدارا اسود أصمّ يقوم امامه– ظل راسخا لايتغير..

وبعد تلك النوبات من الرعب القاتل ، التي كانت تنتابه، فيصرخ ويولول ويندفع محاولاً– في جنون – ان يمزق شيئا ما عن عينيه ، اخذ يستسلم لحالة نصف الوعي التي كانت ترين عليه ، بيد أنه كان لايلبث ان يحس – مرة أخرى– بذلك الجبل الراسخ من الضيق يجثم على صدره، وبذلك الرعب الذي يشبه رعب الذي يستيقظ فجأة فيجد نفسه في قبره!

إلا ان هذه النوبات بدأت تقل بالتدريج.. وفي النهاية، اصبح يستلقي على ظهره ساعات طويلة ساكنا بلا حراك، ينصت إلى الأصوات المنبعثة اثناء النهار.. تلك الأصوات التي كانت تبدو له وكأنها معرضة عنه ، مقبلة على سواه!..

وكان لايلبث ان يتذكر ذلك الصباح في "روجينار" ، الذي كان بداية الأمر كله.. ثم يروح يئن ويتأوه من جديد .. كان يتخيل السماء ، والآفاق الزرقاء ، والظلال والأضواء ، والمناظر الطبيعية الحبيبة الحالمة، التي قليلا ما تطلع إليها – واأسفاه!– قبل ان يفقد نور عينيه..

وكان لايزال في ذلك المستشفى حين قرأت له "**مارجوت**" بصوت مرتفع خطابا من "**ريكس**" ، جاء فيه:

" لاادري – ياعزيزي "**ألبينوس**" – ما الذي صدمني وكان أكثر إيلاما لي :" أهو الخطأ الذي ارتكبته نحوي برحيلك المفاجئ ، البعيد كل البعد عن اللياقة او اللباقة ، أم هي الكارثة التي حلّت بك؟!.. بيد أنني– برغم انك جرحتني جرحا عميقا – استشعر نحوك العطف من صميم قلبي في بلواك ، لاسيما حين اذكر شغفك بالرسوم والصور وروائع الألوان.. تلك التي تجعل من البصر امير حواسنا جميعا!

"إنني راحل اليوم عن "**باريس**" إلى "**انجلترا**" ، ومنها إلى "**نيويورك**" . ولسوف يمضي وقت طويل قبل ان أعود إلى "**ألمانيا**" مرة اخرى ، فارجو ان تبلغ تحياتي الرقيقة

إلى صاحبتك التي كانت طبيعتها الهوائية المتلافة – فيما يبدو– هي السبب في غدرك بي.. إنها مع الأسف غير وفية إلا لنفسها!!..

ولكنها ككثيرات غيرها من النساء ، تشغف بان تكون موضع الإعجاب والتدلّه من الآخرين ، مما قد ينقلب إلى حقد وضغينة ، حين يكون الرجل المقصود – بسبب صراحته ومظهره القبيح وميوله الشاذة – غير قادر إلا على ان يثير هزءها ونفورها!

"صدقني يا "**ألبينوس**" ، إنني احبك جدا.. اكثر كثيرا مما ابديت لك. ولو انك انبانني صراحة بان وجودي قد اصبح ثقيلا عليكما ، لكنت قد قدرت صراحتك كل التقدير،ولظلت ذكرياتنا بعيدة عن ان يُخَيِّم عليها ظل قرارك الغادر!" .

وقال "**ألبينوس**" : " نعم هذا خطاب رجل مصاب بشذوذ جنسي.. ولكن لاباس ، فانا مسرور لانه رحل..

ولعل الله قد عاقبني يا "**مارجوت**" بسبب ريبتي في إخلاصك.. الا إنه ويل لك إذا..!" .

وغرق مرة أخرى في الصمت، ثم بدا يصدر عنه ذلك الصوت المكتوم ، الذي يجمع بين الأنين والهدير، والذي كانت تبدأ به دائما نوبات الرعب التي تنتابه ، إذا ما بدأت دياجير الليل المروع تطبق عليه.. حتى إذا هدأت نفسه، قالت له "**مارجوت**" إنها ذاهبة إلى إدارة المواصلات، وطبعت قبلة على خده ثم خرجت تسير في رشاقة ، ملتزمة الجانب الظليل من الشارع ،.. وسرعان ما دخلت مطعما صغيرا رطبا، واخذت مكانها بجانب "**ريكس**" .. وكان يشرب نبيذا ابيض !

وسالها "**ريكس**" : " حسنا، ماذا قال الشحاذ الأبله عن الخطاب ؟.. الم أكتبه بمهارة؟؛. فقالت : " نعم، لقد كان وافيا بالغرض.. لسوف نرحل يوم الخميس إلى "**زيوريخ**" ، لغرضه على ذلك الإخصائي ، فارجو ان تشتري بطاقات السفر، على ان تختار مقعدك في عربة أخرى.. فهذا أسلم!" .. ولكن "**ريكس**" قال في غير اكتراث : " اشك في انهم سيعطونني البطاقات بلا مقابل" .

فابتسمت "**مارجوت**" ابتسامة ناعمة، وراحت تخرج النقود من حقيبة يدها، وإذ ذاك، أردف قائلا: " ولعل الأمر يكون اكثر بساطة، إذا ما كنت انا الذي يتولى الإنفاق دائما!"

الفصل الخامس والثلاثون

بالرغم من ان "ألبينوس" ، كان قد مشى قبل ذلك- وإن يكن في تردّد يبعث على الإشفاق- في دروب حديقةالمستشفى المفروشة برمال تخشخش تحت القدمين، إلا انه اثبت عجزه التام عن احتمال الرحلة إلى "زيوريخ" .. ففي محطة السكة الحديد ،بدا راسه يدور.. وليس ثمة اكثر إحساس بالعجز لدى الاعمى من ان يدور راسه، فقد كانت الاصوات التي تنبعث حواليه تهز كيانه هزا..

كلام الناس، ووقع خطواتهم ، وقعقعة العجلات وصليل الاشياء الصلبة.. كل هذه كانت تزعجه، وكان يُخيّل إليه ان كل شيء حوله يندفع نحوه ، ويكاد ان يدهمه.. كانت كل لحظة من اللحظات معباة بالخوف من ان يصطدم بشيء ما ، بالرغم من ان "مارجوت" كانت تقوده.

وفي القطار، شعر بغثيان في حلقه ، إذ عجز عن ان يوفّق - في ذهنه وحسه- بين اهتزاز العربة وقعقعتها، وبين سرعة اندفاعها .. وكم من مرة حاول جاهدا ان يتخيل المنظر الطبيعي الذي كان ينطوي مسرعا اثناء سير القطار..

ثم كان علية مرة اخرى- في "زيوريخ" - ان يشقّ طريقه بين الاشخاص والاشياء . وهو- في الظلام الذي كان يكتنفه - يرتطم بكل ما يعترض سبيله، حتى لقد قالت له "مارجوت" في حدة: "اوه، سر معي ، ولاتكن خائفا هكذا!.. إنني اقودك.. والآن قف، فنحن موشكان ان نركب السيارة.. هيا، ارفع رجلك!.. الا يمكنك ان تكون اقل تهيبا؟.. كاني بك في الثانية من عمرك!".

وقام البروفيسور- وهو طبيب عيون مشهور- بفحص كامل لعيني "ألبينوس" .. وكان ذا صوت رقيق وقور، حتى لقد تصوره "ألبينوس" شيخا ذا وجه حليق يشبه وجه القسيس . بيد انه كان- في الواقع- في أوسط العمر، ذا شارب كث. وقد قال ما كان "ألبينوس" يعرف اغلبه بالفعل : إن اعصاب البصر قد تلفت عند نقطة التقائها بالمخ، ومن المحتمل ان تشفى من هذا العطب، كما انه من المحتمل ان ينتهي الامر بضمورها

ضمورا كاملا.. كلّ من الاحتمالين يعادل الآخر..، وعلى اية حال، فإن اهم شيء بالنسبة للمريض في حالته الراهنة ، هو الراحة.. ولعل إقامته في مصحة في الجبال تتيح ذلك.. وختم البروفيسور كلامه قائلا: " وسنرى ما يمكن بعد ذلك" .. فردد "ألبينوس" عبارته بابتسامة حزينة قائلا: " سترى؟" .

ولم ترق فكرة المصحّة لـ"مارجوت" ، فعرض عليها زوجان إيرلنديان- قابلا هما في الفندق- ان يتركا لهما "الشاليه" الصغير الذي كانا يمتلكانه في منتجع جديد في أعلى الجبل. واستشارت "ريكس" ، ثم تركت "ألبينوس" مع ممرضةاستاجرتها لذلك، وسافرت في صحبة"ريكس" لترى المكان .. وكان مسكنا جميلا ، يتمثل في منزل صغير ذي طابقين ، وبه عدد من الحجرات الصغيرة النظيفة ..

ووجد "ريكس" المنزل موافقا لهواه: فقد كان منفردا تماما، يقوم على قمة منحدر بين اشجار "التنوب" الكثيفة الظليلة .. وعلى مسيرة ربع ساعة منه فقط، كانت القريةوالفنادق.. وقد اختار "ريكس" لنفسه اكثر الغرف نصيبا من الشمس في الطابق الاعلى، وقال للطاهية:

- إننا نمنحك هذا الأجر المرتفع لانك ستكونين في خدمة رجل اصيب بالعمى نتيجة صدمة عقلية عنيفة.. وانا الطبيب الذي يعالجه، إلا انه نظرا لحالته العقلية ينبغي الا يعرف أن ثمة طبيبا يعيش في البيت معه ومع ابنة أخيه!..

ومن ثم فلو صدرت عنك اقل إشارة- مباشرة أو غير مباشرة- تنمّ عن وجودي، كان تخاطبينني على مسمع منه ، فسوف تكونين مسؤولة - في نظر القانون- عن كل عواقب عرقلتك لتقدمه في طريق الشفاء، واعتقد ان ثمة عقابا في سويسرا" عن مثل هذا التصرف، فضلا عن أنني انصحك بالا تقتربي من مريضي ، أو تدخلي معه في حديث من اي نوع، لانه معرض لاعنف نوبات الجنون .. وقد يعنيك ان تعرفي انه قد سبق أن أوقع ضررا بالغا بامرأة عجوز- لها شبه كبير منك، وإن تكن غير جذابة مثلك- إذ لطمها لطمة مروّعة على وجهها .. وانا لايعنيني - على اية حال- ان يتكرر هذا الامر مرة أخرى معك.. واهم كل شيء أنك إذا ثرثرت لأهل القرية عن أي شيء يثير فضولك، فإن مريضي- في حالته الراهنة

- قد يُحطّم كل شيء في البيت، مبتدئا براسك انت .. فهل فهمت؟

وذعرت المرأة إلى درجة انها رفضت هذا العمل برغم ان اجره كان فوق كل مستوى مالوف .. ولم تفكر في العدول عن رفضها إلا حين اكد لها "ريكس" انها لن ترى الرجل الاعمى، لان ابنة اخيه تخدمه.. وإلا حين اقسم لها بانه يكون مسالما جدا، ما لم يضايقه احد.. كذلك اتفق معها على الا تسمح لأية غسالة او صبي جزار بدخول البيت ..

وفي نحو الساعة الخامسة كان يتطلع خلال منظار مقرب، فراى سيارة- في أسفل المنحدر- تسعى إلى البيت. وما لبثت "مارجوت" - وهي في ثوب فاقع الحمرة- ان قفزت منها، بمجرد توقفها ، وعاونت "ألبينوس" على النزول . وكان بمنكبيه المقوسين، ونظارته السوداء، يبدو كانه "البومة" .. وما لبثت "مارجوت" ان امسكت بذراع الرجل الوديع المضطرب ، فسار معها في درب الحديقة وعصاه امامه.. واختفيا خلف بعض اشجار "التنوب" ، ثم ظهرا ثانية، ثم اختفيا مرة اخرى ، واخيرا ظهرا امام الشّرفة الصغيرة .

وفي الوقت ذاته، كان "ريكس" يطل من النافذة ، ويحيي "مارجوت" بحركات مضحكة، وهو لايفتأ يضغط قلبه بيده، ثم يبسط ذراعيه في ضراعة مصطنعة، وكان ذلك كلّه بطبيعة الحال- في مشهد صامت، وإن كان خليقا بأن يتحول إلى مشهد ناطق، بل صارخ، لو ان الظروف كانت مواتية.. وابتسمت "مارجوت" لعشيقها ، ثم دلفت إلى الداخل ، وهي بعد ممسكة بذراع "ألبينوس" ، الذي قال لها: " خذيني في الغرف جميعا ، وصفي لي كل شيء!" .

وراحت "مارجوت" تصف له كل شيء، وهي تقوده في الطابق الأرضي قائلة: " هذه غرفة طعام صغيرة .. وهذه غرفة جلوس صغيرة.. وهذه غرفة مكتب صغيرة" ، وراح "ألبينوس" يلمس الاثاث ، ويربت الأشياء المختلفة وكانها رؤوس اطفال غرباء محاولا ان يتلمس طريقه بينها جميعا..

وقال وهو يشير في ثقة إلى حائط أصم: " إذن فالنافذة هنا؟" .. ثم اصطدم اصطداما مؤلما بحافة منضدة،فحاول أن يتظاهر بأنه إنما فعل ذلك متعمدا، وراح يتحسسها بيديه وكانه يريد ان يقيسها..

ثم صعدا- جنبا إلى جنب - درجات السّلم الخشبي وهي تئز في صريف تحت أقدامهما.. وكان "ريكس" جالسا في أعلى السلم، يهتز في سرور صامت، فلوحت له "مارجوت" بإصبعها، فانتصب على قدميه في حذر، ثم تراجع إلى الخلف على أطراف أصابعه.. وكان ذلك في الواقع أمرا يتجاوز الحد، لان السلم أرسل - في تلك الأثناء - صريفا حادا.. وبلغ "**ألبينوس**" و"**مارجوت**" الردهة، فدلفا فيها.

وراح "**ريكس**" - وقد وقف عند باب غرفته - يقعي ثم ينتصب عدة مرات، وهو يضغط فمه بيده، فهزت "**مارجوت**" راسها في غضب ،إذ كانت تلك لعبة خطرة ..

وقالت "**مارجوت**"لـ"**ألبينوس**" :" هذه غرفة نومي، وهذه غرفة نومك ، فسالها في اهتمام:" ولماذا غرفتان؟" .

فهتفت:" أواه يا "**ألبير**".. انت تعلم ماذا قال الدكتور!" .

وإذ طافت به الغرف جميعا- فيما عدا غرفة "**ريكس**" طبعا- راح "**ألبينوس**" يحاول ان يسير في المنزل بدون مساعدتها ، لالشيء إلا ليريها انها وفّقت بشكل رائع في ان تصف له كل شيء. ولكنه ضل طريقه في الحال، فجرى نحو الحائط ، وابتسم معتذرا ، إذ كاد يحطم حوض الغسيل ، كما انه ضل طريقه إلى الغرفة التي في نهاية الردهة ، والتي احتلها "**ريكس**" .. فصاحت "**مارجوت**" :" خذ حذرك ، فهذه غرفة للمهملات!.. إنك ستحطم راسك .. والآن، عد على عقبيك، وحاول ان تسير راسا إلى الفراش .. والحقيقة انني اخشى ان يكون لكل هذا السير والتخبط اثر سيئ .. لاتتصور انني ساتركك تستمر في التجوّل هكذا ، بعد اليوم!" .

والواقع انه شعر فعلا بإرهاق شديد، فمضت به "**مارجوت**" إلى غرفة الطعام وجاءت له بالعشاء .. حتى إذا ذهب بعد ذلك لينام، ذهبت هي إلى "**ريكس**"..

ولما كانا غير خبيرين بعد بمدى سريان الاصوات في المنزل راحا يتكلمان في همس .. ولو انهما تحدثا بصوت مرتفع، لما سمعهما "**ألبينوس**" ، فقد كانت غرفته بعيدة.

الفصل السادس والثلاثون

لم يلبث ذلك الستّار الحديدي الاسود- الذي كان "ألبينوس" يعيش في داخله- ان اصبح مشربا بمزيج من الأسى ونبل المشاعر والأفكار ، فقد فصلت الظلمة بينه وبين تلك الحياة السابقة ، التي انطفأت فجأة في أدق منحنياتها، ولم يعد له إلا أن يستعيد مشاهدها الماضية على مسرح عقله: فهاهي ذي "مارجوت" في مئزر محلى بالرسوم تزيح بيدها ستارا أرجوانيا يحن اليوم إلى لونه الكابي.،. وها هي ذي تحت المظلة الزاهية الألوان، تخطر بين الغدران القرمزية.. ثم ها هي ذي عارية أمام المرآة في غرفة النوم، تقضم فاكهة كهرمانية.. وها هي ذي في لباس البحر المتألق ، تلقي الكرة بيديها.. ثم ها هي ذي في ثوب المساء الفضي، بكتفيها المصطبغتين بلفحة الشمس القانية.

وكان لايلبث ان ينقلب إلى التفكير في زوجته ، وقد أصبحت حياته معها تتراءى له من وراء غشاوة من ضباب لاينفذ إليها سوى شعاع واهن، فلم يكن يبين له إلا لمحات خاطفة : شعرها الأشقر في ضوء الصباح، او النّور ينعكس على إطار صورة ، او "إيرما" تلعب بقطع من البلّور تنعكس من كل منها الوان قوس قزح.. ثم لايلبث الضباب ان يدلهمّ ويتكاثف مرة أخرى!

كل شيء في حياته السابقة- حتى أسوأ الأشياء وأدعاها للخزي والخجل - اصبح يبدو له مموّها بسحر الألوان الخلابة!.. ولكم راعه ان يدرك الآن كم كان مقترا في استخدام عينيه ، فقد كانت هذه الألوان تتراءى في صور شديدة الإبهام ، وقد اختلطت معالمها بشكل عجيب، إلى درجة انه أصبح إذا تذكر مثلا- منظرا طبيعيا عاش بين أحضانه ذات مرة، لا يستطيع ان يميز من نبات هذا المنظر سوى الأزهار وأشجار السنديان، ومن طيوره سوى العصافير والغربان .. بل إن هذه ايضا كانت تتراءى في ذهنه اقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة.. واصبح يدرك انه لم يكن يختلف اي اختلاف عن اي شخص من اولئك الذين ينحصر تخصّصهم في نطاق ضيق، والذين اعتاد ان يستخف بهم وأن يسخر منهم ، كذلك العامل الذي لايعرف من دنياه شيئا غير آلاته وادواته ، وذلك الموسيقار الذي هو جزء من آلته الموسيقية ، وإن صيغ من لحم ! ولقد

كانت الصفة المميزة لـ"**ألبينوس**" هي عشقه للفن ، وكانت أروع اكتشافاته هي "**مارجوت**" .. أما الآن فكل ما بقي منها أصبح مجرد صوت، وحفيف ثوب ، وشذا عطر..

إلا أن "**ألبينوس**" لم يكن يستطيع دائما أن يسرّي عن نفسه بالتفكير فيما يتصل بالأدب ، أو بالجمال والفن.. ولم يكن يستطيع دائما أن يفلح في إقناع نفسه بأن العمى الجسدي هو الإبصار الرّوحي .. وعبثا حاول أن يخدع نفسه بزعم أن حياته مع "**مارجوت**" ، قد أصبحت أسعد وأعمق وأكثر براءة وطهرا .. عبثا حاول أن يحصر كل تفكيره في حبها العميق الأثر في النفس.. فما من شك في أن هذا الحب كان عميق الأثر حقّا، وما من شك في أن "**مارجوت**" كانت أفضل من أكثر الزوجات إخلاصا.. "**مارجوت**" هذه التي أصبحت غير مرئية له ، وهذه الرقة الملائكية التي تفيض منها ، وهذا الصوت الحنون الذي كان لايفتأ يرجوه ألا يغضب أو يثور .. إلا أنه كان إذا أمسك يدها في الظلام الذي أصبح يعيش فيه، اضطرم في أعماقه اشتياق عارم لأن يراها.. ومن ثمّ يذوب في التوّ كل ما كان غارقا فيه من أفكار وأوهام!

*****

وكان "**ريكس**" مولعا أشدّ الولع بأن يجلس في الغرفة معه، يراقب حركاته، وكانت "**مارجوت**" تترامى بين ذراعي الرجل الأعمى ، وتضغط جسمها بصدره.. ثم ترفع عينيها نحو السّقف معبّرة تعبيرا هزليا عن استسلامها ، أو تخرج له لسانها ، فكان هذا يثير الضّحك إذا قورن بالتّعبير الرقيق السّاذج المرتسم على وجه الرجل الأعمى.. ثم تفلت منه بحركة بارعة وتتّجه إلى "**ريكس**" ، وقد جلس على حافة النافذة في سرواله الأبيض، وقدماه – بأصابعهما الطويلة– وبقية جسمه عارية.. فقد كان يحب تعريض ظهره للشمس . وكان "**ألبينوس**" يستلقي على مقعد مستطيل ذي مسندين لليدين، في بيجامة – ومن فوقها الروب "**دي شامبر**" – وقد غطى الشعر الكث وجهه، وبدت ندبة قرنفلية اللون على جبينه.. وكأنه سجين مرسل اللحيّة!

وكان لايفتا يبسط ذراعيه في توسل قائلا: " **"مارجوت"** .. تعالي إلي! ". وكان **"ريكس"** المولع بالمجازفة ، يقترب – من آن لآخر- اقترابا شديدا، على اطراف أصابع قدميه الحافيتين ، ويلمس **"ألبينوس"** لمسا خفيفا جدا.. فكان هذا يهمهم في هيام ، ويمدّ ذراعيه محاولا ان يطوق ذلك الشبح، وهو يعتقد انه **"مارجوت"** .. وعندئذ كان **"ريكس"** يسارع بالابتعاد ، فكان **"ألبينوس"** يزفر قائلا: " ياحبيبتي تعالي إلي! ". ويهم من مقعده مندفعا نحوها ، فينكمش **"ريكس"** فوق حافة النافذة ضاما قدميه، وتصيح **"مارجوت"** في **"ألبينوس"** قائلة له إنها ستهجره في الحال، تاركة إياه مع ممرضة، إذا لم يفعل ما تمليه عليه.. فكان يعود – خائب الرجاء إلى مقعده، وعلى فمه ابتسامة تنم عن الشعور بالذّنب .. ثم يقول لها وهو يتاوه :" حسنا ، حسنا .. اقرئي لي شيئا بصوت مرتفع .. اقرئي لي الصحيفة! " ..

وكان **"ريكس"** يجلس في حذر على الاريكة ، وياخذ **"مارجوت"** على ركبتيه، وهي تفتح الصحيفة ، وتنعم النظر فيها ، ثم تبدأ القراءة بصوت مرتفع .. و**"ألبينوس"** يهز راسه- من حين لآخر- وهو ياكل في بطء حبّات من الكرز لايراها،ثم يلفظ البذر في كفه ، بينما يكون **"ريكس"** منهمكا في تقليد حركات **"مارجوت"** ، فيمط شفتيه، ثم يضمهما مرة أخرى- كما كانت تفعل وهي تقرأ- أو يتظاهر بانه سيتركها تقع .. فكان صوتها يختلج فجاة ، وتروح تبحث -بعد ذلك- عن تتمة الجملة التي وقفت عندها.

وكان **"ألبينوس"** يقول في نفسه: " نعم ، ربما كان الأمر كله خيرا.. فإن حبّنا الآن اكثر طهرا وتساميا ، ومادامت **"مارجوت"** قد بقيت معي، فمعنى هذا انها تحبني حقّا..

إن هذا افضل .. هذا افضل! ". وفجاة يشرع في البكاء بصوت مرتفع ، ثم يعصر يديه متوسلا إليها ان تذهب به إلى إخصائي آخر ، وثالث، ورابع .. فهو مستعد لأية جراحة .. لأي عذاب .. لأي شيء قد يعيد إليه بصره .. فيتثاءب **"ريكس"** ، ثم

يخرج إلى الحديقة.

وكان "**ريكس**" و"**مارجوت**" - خلال الأيام الأولى من حياتهما معا في ذلك المكان- يلتزمان كل الحذر ، وإن سمحا لنفسيهما ببعض الهزل المأمون العاقبة .. وقد وضع "**ريكس**" امام الباب المؤدي من غرفته إلى الردهة حاجزا من الصناديق والحقائب ، تحوّطا للطوارئ .. فكانت "**مارجوت**" تقفز فوق هذا الحاجز ، حين توافيه بالليل .. بيد ان "**ألبينوس**" - بعد جولته الأولى في المنزل- لم يعد يهتم بأرجائه، وإنما اقتصرت إقامته على غرفة نومه ، وغرفة المكتب..

وقد وصفت له "**مارجوت**" كل الألوان ، من ورق الحائط الأزرق إلى الستائر الصفراء.إلا انها - بتحريض من "**ريكس**"- لم تذكر له لونا واحدا على حقيقته.. فقد كان من بواعث المسرة العظمى لدى "**ريكس**" ان يضطر الرجل الأعمى لأن يتصور عالمه الصغير بالألوان التي وضعها هو!

وكان "**ألبينوس**" يحسّ على الدوام- وهو في حجرته الخاصة- ان بوسعه ان يرى الأثاث والأشياء المختلفة.. وقد منحه ذلك إحساسا بالطمانينة والأمن . اما حين كان يجلس في الحديقة، فقد كان يشعر بانه محوط بعالم واسع مجهول ، إذ كان كل شيء يمتد امامه صاخبا بالاصوات، حتى ليعجز عن تكوين صورة له في مخيلته . وكان يحاول ان يرهف سمعه وان يتكهن بالحركة من الصوت ..

وسرعان ما أصبح من الصعب على "**ريكس**" ان يدخل او يخرج دون ان يشعر به "**ألبينوس**" ، فقد كان هذا يدير راسه في الحال نحوه، مهما يجتهد في تكتم حركته ، ويسال قائلا: " اهذه انت يا حبيبتي؟. ثم يشعر بالأسى حين يتبين انه اخطأ التقدير ، إذ تجيبه "**مارجوت**" من اتجاه آخر بعيد .

*****

ومرت الأيام.. وعلى قدر ما ازدادت حدة سمع "**ألبينوس**" ، ازدادت جرأة "**ريكس**"

و"**مارجوت**" ، وقد اطمانا إلى ستار الأمان الذي تمثل في عماه.. وأصبح "**ريكس**" يجلس إلى المائدة مع "**ألبينوس**" و"**مارجوت**" ، ويأكل في سكون تام، بحرص عليه في حذق ، فلم يكن يلمس طبقه قط بأيه شوكة او سكين.. وكان يمضغ الطعام كما لو كان يمثل في فيلم صامت، وهو يراقب حركة "**ألبينوس**" ، ونبرات صوت "**مارجوت**" ، التي كانت تتعمد الكلام بصوت مرتفع جدا، بينما الرجلان يلوكان الطعام ويبتلعانه..

وحدث -ذات مرة- أن غص حلق "**ريكس**" بما كان فيه ، فما لبث "**ألبينوس**" -وكانت "**مارجوت**" تصب له القهوة في قدحه، إذ ذاك- ان سمع من الناحية الأخرى من المائدة صوتا غامضا غريبا.. وبادرت "**مارجوت**" تثرثر ، رافعة صوتها ، ولكنه قاطعها وهو يرفع يده قائلا: "ما هذا؟ ما هذا؟". فحمل "**ريكس**" طبقه ، وابتعد على أطراف أصابعه رافعا المنشفة إلى فمه . ولكنه - وهو ينسل من الباب- سقطت منه الشوكة، فاستدار "**ألبينوس**" سريعا في مقعده وصاح قائلا:" ما هذا؟ من هناك؟". فقالت "**مارجوت**"؛ آه ، إنها "**أميليا**"!.. لماذا تقفز هكذا؟"..

وقال "**ألبينوس**" :" أعتقد ان أذني قد بدأتا تصابان بالخلل.. فبالأمس- مثلا- توهمت تماما ان شخصا حافي القدمين يسترق الخطى في الردهة!".. فقالت "**مارجوت**" في جفاء:" إن عقلك سيذهب إن لم تكن حريصا!".

وبعد الظّهر ، كانت تذهب - أثناء غفوة "**ألبينوس**" المعتادة في جولة مع "**ريكس**" ، وكانا يأتيان بالخطابات والصحف من مكتب البريد أو يصعدان إلى مساقط المياه.. وقال لها يوما، وهما عائدان إلى المنزل :" أنصحك بالا تلحّي عليه بشأن الزواج، فإني أخاف من ذلك كل الخوف، لأنه - قد هجر زوجته- أصبح ينظر إليها الآن كقدّيسة موقرة مرسومة على زجاج كنيسة..وهو لن يجرؤ على ان يحطّم نافذة الكنيسة هذه!.. فالأفضل - والأكثر بساطة- أن نستولي على ثروته شيئا فشيئا!".

وقالت"**مارجوت**":" حسنا، لقد حصلنا على الجزء الأكبر منها.. أليس كذلك؟". فمضى "**ريكس**" يقول لها:" يجب ان تدفعيه إلى أن يبيع تلك الأرض التي يملكها

في "بوميرانيا" ، وان يبيع صوره، او يبيع احد منازله في "برلين" .. إننا- بشيء من الدهاء - نستطيع ان ندبر الأمرا.. أما- في الوقت الحاضر- فإن دفتر "الشيكات يؤدّي المهمة على خير وجه.. إنه يوقع على كل شيء كانه الآلة ، ولكن حسابه في البنك لن يلبث أن ينفد، فيجب ان نسرع نحن أيضا!.. ولسوف يكون بديعا أن نتركه في الشتاء.. وقبل أن نذهب، سنشتري له كلبا، كتذكار صغير لعرفاننا بالجميل!" .

وقالت "مارجوت" :" لاتتكلّم بصوت مرتفع هكذا.. فقد بلغنا الصخرة" .. كانت هذه الصخرة كتلة كبيرة، رمادية اللون، مغطاة بالنباتات المتسلقة ، وتبدو كأنها شاة رابضة .. وقد جعلا هذه الصخرة علامة للحد الذي بعده يكون من الخطر الكلام .. ومن ثم سارا صامتين. وبعد بضع دقائق ، أصبحا بالقرب من باب الحديقة ، فما لبثت "مارجوت" ان ضحكت فجاة ، وأشارت إلى سنجاب يجري، فتناول "ريكس" حجرا وقذفه به، ولكنه اخطاه ، فقالت "مارجوت" هامسة :" اقتله.. فهو يسبب ضررا كبيرا للأشجار !" .. وهنا ارتفع صوت يقول :" من الذي يسبّب ضررا للاشجار؟" .. وكان ذلك هو صوت "ألبينوس" .. كان واقفا - يترنّح قليلا - بين شجيرات "السيرنج"، على عتبة حجرّية صغيرة.

وعاد يقول :" "مارجوت" .. من الذي تكلّمينه هناك؟" .

ثم تعثر فجاة ، وسقطت منه عصاه ، فانحط جالسا على العتبة. فقالت له "مارجوت" وهي تمسكه في عنف :" كيف جرؤت على ان تذهب بعيدا إلى هذا الحدّ وحدك؟" .

ثم عاونته على الوقوف ، وقد التصقت بيده حبات صغيرة من الحصى، فراح ينفضها كما يفعل الطّفل.

وقالت "مارجوت" ، وهي تدفع بالعصى في يده:" كنت اريد ان امسك سنجابا.. ماذا كنت تظنني افعل؟.

فقال "ألبينوس" :" ظننت ..!" ثم صاح بحدة:" من هناك؟" .. وكاد ان يفقد توازنه مرة أخرى، وهو ينحرف إلى ناحية "ريكس" الذي كان يسير في حذر عبر

الفناء..

فقالت "**مارجوت**" وقد اوشك صبرها ان ينفد: " ليس ثمة احد هنا.. إنني وحدي، فلماذا انت في هذه الحالة؟" .

قال وهو يبكي : " عودي بي إلى المنزل، فهنا اصوات كثيرة جدا.. اشجار ، ورياح، وسناجب ، واشياء لااعرفها.. إنني لااعرف ماذا يجري حولي.. إن كلّ شيء يضجّ بالأصوات" .

*****

وكالعادة ، غابت الشمس خلف القمة المجاورة.. وكالعادة كذلك، جلس "**ريكس**" و"**مارجوت**" جنبا إلى جنب، على الاريكة ، وراحا يدخّنان ، وعلى بعد بضع اقدام منهما ، جلس "**ألبينوس**" في مقعده الجلدي المستطيل ، يحدجهما بنظرة ثابتة من عينيه الصافيتين الزرقة ، غير المبصرتين.. ثم صعد إلى غرفته ، لينام مبكرا.

وفي جوف الليل، استيقظ ، فوضع يده على ساعة بجانبه لازجاج لها، وظل يتحسسها بأصابعه حتى عرف موضع العقربين ، فإذا بها الساعة الواحدة والنصف.. وكان يشعر باضطراب عجيب ، وقد منعه شيء ما عن ان يركّز فكره في تلك؛ المعاني الجميلة السامية التي كانت وحدها قادرة على ان تحميه من أهوال الظلام الذي يكتنفه..

وعاد إلى الاضطجاع، وهو يفكّر قائلا في نفسه: " ترى ما الذي يكربني؟.. أهي "**اليزابيث**" ؟.. كلا، فإنها نائية جدا .. نائية جدا، في مكان ما عند سفح الجبل .. هذا الطيف العزيز الواهن الحزين، لاينبغي لي ابدا أن أزعجه .. فماذا إذن يا ترى؟!.

وبدون أن يدري ما كان يبتغي ، انسل من الفراش، وراح يتحسس طريقه إلى باب "**مارجوت**" .. ولم يكن لغرفته باب آخر غيره يخرج منه، وقد كان يعلم أنها تغلقه دائما بالليل.. فقال في نفسه في حنان: ما احكمها!" .

ثم وضع اذنه على ثقب المفتاح عسى أن يسمع تنفسها وهي نائمة، ولكنه لم يسمع

شيئا .. فهمس قائلا: " إنها لهادئة كفار صغير.. لو امكنني فقط أن أريت رأسها ثم ابتعد !.. ربما تكون قد نسيت أن تغلق الباب ! " ..

وراح يضغط أكرة الباب .. كلا إنها لم تنس..

وتذكر–فجأة– كيف أنه ذات ليلة من ليالي الصيف حارة– حين كان شابا طائشا– تسلل على الإفريز الخارجي لحائط منزل على "الراين"، من غرفته إلى غرفة الخادم.. ولكنه لم يجد الخادم في فراشها وحيدة.. إلا أنه كان في ذلك الوقت رشيقا خفيف الحركة، ثم أنه كان– في ذلك الحين –مبصرا.. بيد أنه قال في نفسه في جرأة جنونية: " ولماذا لاأحاول الآن؟ هبني سقطت ودق عنقي ، فهل يهم ذلك؟" .

وراح يبحث أولا عن عصاه حتى وجدها ، ثم اتجه إلى النافذة واعتلى حافتها ، ثم مد عصاه نحو اليسار إلى النافذة المجاورة ، فسمع وقع العصا على الزجاج. وأدرك أنها مفتوحة .. وقال في نفسه: " إنها تنام نوما عميقا. ولاعجب فهي مرهقة، إذ إنها تهتم بأمري طول النهار! " .

حتى إذا جذب العصا ، تعلقت في شيء ما، ثم أفلتت من يده وسقطت على أرض الحديقة، فصدر عنها صوت خافت.. وعندئذ أمسك "ألبينوس" بإطار النافذة، وهبط إلى الإفريز الخارجي البارز من الجدار .. واصطدم – إلى اليسار– بشيء ظنه أنبوبة المياه، فتشبث به، ومر فوقه ، ممسكا بيده إطار نافذة الحجرة المجاورة، وقد أصبحت الآن أمامه، فتمتم في زهو: " ما أبسط هذا!" . ثم همس قائلا: "هاللو "مارجوت" ! " . وهو يحاول أن ينسل خلال النافذة المفتوحة إلى الداخل فأفلتت يده وكاد أن يسقط إلى الخلف في الحديقة .. وراح قلبه يدق دقًا عنيفا، بيد أنه ظل يتلوى ملقيا بجسمه على حافة النافذة حتى تخطاها ، وهنالك اصطدمت يده بشيء ثقيل سقط على الأرض محدثا صوتا.

ووقف داخل الغرفة ساكنا، وقد اكتسى وجهه بالعرق.

وشعر على يده بشيء لزج ، لم يلبث أن عرف أنه من مادة "الراتنج" المتحلبة من خشب الصنوبر الذي بني به المنزل.. وقال في فرح: " "مارجوت" ياحبيبتي ! " ..

ولكنه لم يسمع صوتا.. وراح يتحسس الفراش، فإذا هو مرتب .. إذن لم تكن "**مارجوت**" قد نامت بعد..

وجلس "**ألبينوس**" على حافة الفراش، وراح يفكر: لو ان الفراش كان مشوشا ودافئا ، لكان من السّهل ان يفهم انها ستعود بعد لحظة ، ولكنه لم يكن كذلك!.. وظل بضع لحظات بلا حراك ، ثم تحسّس طريقه إلى الردهة ، وقد اربكه كثيرا عدم وجود عصاه معه، وراح ينصت .. وتوهّم انه سمع- في مكان ما- صوتا خافتا مكتوما ، يتراوح بين الصريف والحفيف ، فراح ينادي قائلا: " "**مارجوت**" ، اين انت؟" .

وظل كل شيء ساكنا برهة ، ثم فتح باب.. فصاح مرة أخرى ، وهو يتحسس الطريق بيديه في الردهة : " "**مارجوت**".. "**مارجوت**" !؟.. وعندئذ سمع صوتها يجيبه في هدوء : " نعم، نعم.. ها انذي!" . فقال لها: ماذا حدث يا "**مارجوت**" ؟.. لماذا لم تأو إلى الفراش؟" . وهنا اصطدمت به في الردهة المظلمة ، فما إن مسها حتى أحس بانها عارية،، وأجابته قائلة: " كنت مستلقية في الشمس،كما أفعل دائما في الصباح" .

وقال وهو يتنفس بصعوبة : " ولكننا الآن في الليل !؟.

.. ثم أردف قائلا: " لاأستطيع ان افهم،.. إن ثمه خطأ في مكان ما .. فقد تحسست بيدي عقربي الساعة ، فإذا هي الواحدة والنصف "فقالت: " هراء.. إنها السادسة والنصف" وانه لصباح مشمس جميل .. لابد ان ساعتك مخطئة ، لانك تتحسس العقربين كثيرا .. ولكن قل لي ، كيف خرجت من غرفتك ؟" . ولكنه عاد يقول: " "**مارجوت**" .. هل حقا نحن الآن في الصباح؟" .

*****

وفجاة ، التصقت به، وطوقت عنقه بذراعيها، وهي واقفة على أطراف اصابعها ، كما كانت تفعل في الأيام الخالية.

وقالت بصوت ناعم: " بالرغم من انّه الصباح،، فإنني إذا أحببت ، إذا أحببت ياحبيبي.. وكاستثناء عظيم.."

ولم تكن تميل أبدا لأن تفعل ذلك، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة .. ولم يعد "**ألبينوس**" يملك أن يدرك ان الجو لايزال باردا، وانه ما من طيور هنالك تغرد.. إذ لم يعد يحس بغير شيء واحد فقط ، هو السعادة العنيفة، الملتهبة التي هزت كيانه .. ثم استلقى في رقاد عميق، ونام حتى الظهيرة.. وإذ استيقظ بعد ذلك، عنفته "**مارجوت**" على تسلقه للنافذة . وكانت ما تزال متميّزة غيظا، حين رأته يبتسم ابتسامة حزينة، فصفعته على وجهه!

بيد ان "**ألبينوس**" استلقى طول النهار على مقعده في غرفة الجلوس مفكرا في ذلك الصّباح السّعيد، وهو يسائل نفسه: " ترى كم يوما عساه يمرّ قبل ان تتكرر هذه الساعات؟!

وفجاة، سمع- بشعور غريزي محض- شخصا ما يسعل سعالا خافتا مكبوتا ، فتولته الدهشة. فما كان من الممكن ان يكون هذا الشخص هو "**مارجوت**" .. ثم إنه كان يعلم أنها في المطبخ .. ومن ثمّ صاح قائلا : " من هناك؟" .. ولكن أحدا لم يجبه، فقال في ضيق: " إنها لأوهام .. مرة أخرى!" .. ثم ادرك -بغتة – ذلك الشيء الذي ضايقه كثيرا في الليل.. نعم، نعم.. إنه تلك الأصوات الغريبة التي كان يسمعها أحيانا!

وقال لـ"**مارجوت**" حين عادت : " قولي لي يا "**مارجوت**" .. اليس هناك شخص آخر في المنزل غير "**أميليا**"؟.. هل انت متاكدة تماما؟" . فاجابته في فظاظة : " يالك من مجنون! " .

ولكن الشك إذ ثار في نفسه ، ابى ان يتيح له -بعد ذلك- اية راحة او طمانينة.. فجلس طول النهار ينصت في وجوم.. وكان ذلك موضع تسلية عظيمة لـ"**ريكس**" ، فإنه برغم ان "**مارجوت**" توسّلت إليه ان يكون اكثر رزانة وحذرا- لم يكترث بتحذيرها، بل ازداد جراة وطيشا ، حتى لقد حدث- ذات مرة- ان كان يجلس على بعد قدمين من "**ألبينوس**" ، وإذا به يشرع في الصفير ، مقلدا- في مهارة عظيمة -تغريد العصفور- . فلم يسع "**مارجوت**" إلا ان تبادر قائلة إن طائرا قد حطّ على حافة

النافذة!

وقال لها "**ألبينوس**" بعد ذلك ببضعة ايام: " إنني اود ان اتحدث قليلا مع "**أميليا**" ، فإنني احب فطائرها " . فاجابته قائلة: " لاجدوى من ذلك ، فإنها صمّاء تماما ، ثم إنها تخافك إلى درجة الموت" .. واجهد "**ألبينوس**" فكره لبضع دقائق ، ثم قال ببطء : " مستحيل!" .. فتساءلت "**مارجوت**" :" وما المستحيل يا "ألبير" .. فتمتم :" أوه، لاشيء!" .

على انه لم يلبث ان قال بعد قليل :" انا بحاجة قصوى لأن احلق لحيتي .. فابعثي في طلب حلاق من القرية" .

فاجابته :" لالزوم لذلك.. فإن اللحية تناسبك جدا" ..

وخيل لـ"**ألبينوس**" ان شخصا ما- ليس "**مارجوت**" ، وإنما شخص بجانبها – أرسل ضحكا مكتوما!

الفصل السابع والثلاثون

كان "بول" في مكتبه، حين أطلعه أحدهم على صحيفة "البرلينر زايتونج"، وقد ورد بها ملخص للحادث، فعاد إلى منزله في الحال، خشية ان تكون "إليزابيث" قد اطلعت على الصحيفة هي الأخرى. بيد انها لم تكن قد قرأتها ، فمع ان هذه الصحيفة كانت تصل إليهم كلّ يوم ، إلا انهم كانوا -في العادة- لايقراونها، وفي ذات اليوم، أبرق "بول" إلى مخفر الشرطة في (جراس) ، ثم اتصل آخر الأمر بالمستشفى ، فانباه الطبيب هناك بان "ألبينوس" قد نجا من الخطر، ولكنه أصبح أعمى تماما!.. وبمهارة، استطاع "بول" أن ينهي النبأ إلى "إليزابيث" متلطفا.

وإذ كان يُودع أمواله في ذات المصرف الذي يعامله زوج شقيقته، فقد استطاع أن يعرف عنوان "ألبينوس" في "سويسرا".

وكان مدير المصرف صديقا قديما له في العمل ، فاطلعه على الشيكات التي كانت تنهال من هناك بشكل سريع مطرد ، وقد دهش "بول" من ضخامة المبالغ التي كان "ألبينوس" يسحبها .. وكان التوقيع الذي يذيل الشيكات صحيحا ، وإن كانت حروفه مهتزة، ومرتبكة بصورة تبعث على الأسى والإشفاق.. ولكن الأرقام كانت مكتوبة بخط شخص آخر.. شخص متهور ،جسور، وكانت رائحة التزوير تفوح منها، بكيفية ما!.. وحدّس "ميللر" ان الرجل الاعمى إنما كان يوقع على ما يقال له ، وليس على ما يراه.

وكانت ضخامة المبالغ التي يطلبها من بواعث الدهشة. فكانه – هو أو الشخص الآخر- في عجلة جنونية للاستيلاء على اكبر قدر ممكن من النقود. ثم أخيرا ، جاء "شيك" لم يبق من المال ما يفي بقيمته...

وقال "بول" في نفسه : " إن ثمّة عملية قذرة تحدث.،. إنني أحسّ بها في عظامي ، ولكن ما هي تماما؟" .. وخُيّل إليه ان "ألبينوس" وحيد مع عشيقته الخطرة، واقع تحت رحمتها تماما، في سجن عماه المظلم.

ومرت بضعة أيام كان "**بول**" خلالها يحسّ باشد الضيق.. لم يكن الأمر مجرد ان الرجل كان يوقع شيكات، لم يكن بوسعه ان يراها ، فقد كان المال- على كلّ حال- ماله، ومن حقه أن يبدده كيف شاء ، وسواء كان يدري أو لايدري ، لاسيما ان "**إليزابيث**" لم تكن تحتاج لهذا المال ، ولم تعد "**إيرما**" موجودة ليفكر في مصلحتها.. إنما الذي كان يحز في نفسه هو فكرة وجود الرجل وحيدا، معزولا، وعاجزا تماما، وبغير معين في ذلك العالم الشرير الذي ألقى فيه بنفسه!

وفي ذات مساء ، عاد "**بول**" إلى المنزل ، فوجد "**إليزابيث**" تجهز حقيبة السفر.. وتولاه العجب إذ رآها تبدو أكثر سعادة مما كانت منذ شهور عديدة، فسألها قائلا: " ماذا هنالك ؟ أراحلة أنت إلى مكان ما؟" . فقالت ببطء : " بل انت الراحل!" .

الفصل الثامن والثلاثون

وفي اليوم التالي رحل "**بول**" إلى "**سويسرا**" ، فلما بلغ "**بريجور**" استأجر سيارة .. وبعد اكثر من ساعة ، وصل إلى المدينة الصغيرة الواقعة في سفح الجبل الذي كان مسكن "**ألبينوس**" فوقه .. وتوقف "**بول**" بسيارته أمام مكتب البريد ، حيث دلته فتاة ثرثارة تعمل بالمكتب ، على الطريق المؤدّي إلى "الشاليه" ، قائلة إن "**ألبينوس**" يقيم هناك مع ابنة أخيه ومع دكتور.. فانطلق "**بول**" بالعربة في الحال ، وقد عرف من هي ابنة الأخ، ولكنه دهش من وجود الدكتور، وخطر له ان "**ألبينوس**" ربما كان موضع عناية أكبر مما كان يقدّر.

ومن ثم فقد قال في نفسه: " لعلني جئت هنا في مهمة لاداعي لها، ولعله راض كل الرضا بما هو فيه!؟. ثم أردف قائلا: " على انني . مادمت قد جئت – خليق بأن أتكلم ، على أية حال– مع ذلك الدكتور.. يالـ"**ألبينوس**" من مسكين، ويالها من حياة محطمة!.. من كان يظن ان ذلك يحدث؟" .

وفي ذلك الصباح ، كانت "**مارجوت**" ذاهبة إلى القرية مع "**أميليا**" ، فلم تلق بالا إلى سيارة "**بول**"، لولا ان قيل لها– في مكتب البريد– إن رجلا بدينا قد سأل في التو عن "**ألبينوس**" ، وأنه قد انطلق بالسيارة ليراه..

وفي هذه اللحظة بالذات، كان "**ألبينوس**" و"**ريكس**" يجلسان متقابلين في حجرة الجلوس الصغيرة ، التي كانت الشمس تسطع فيها خلال بابها الزجاجي المؤدّي إلى الشرفة.. وكان "**ريكس**" يجلس عاريا تماما!.. وقد كان من نتيجة حمامات الشمس –التي اعتاد أن يحظى بها يوميا – أن بدا جسده المقوس القوي، ذو الشعر الأسود الكث على صدره، أشبه بصقر متمدد ، وقد صبغته الشمس بحمرة قانية..

وكان يمسك بين شفتيه الممتلئتين عودا من القش ، وقد عقد ساقيه الكثيفتي الشعر إحداهما فوق الأخرى، ووضع ذقنه بين يديه في هيئة تمثال المفكر لـ"**روبين**" ، وراح يتطلع إلى "**ألبينوس**" الذي كان بدوره يحدق في اتجاهه بإمعان.

وكان الرجل الاعمى يلبس ثوبا رماديا فضفاضا ، وقد ارتسم على وجهه الملتحي تعبير ينبئ عما كان بنفسه من توتر شديد، وكان ينصت .. فما كان يفعل في الأيام الأخيرة غير أن ينصت ا.. وكان "ريكس" يعرف هذا ، فكان لاينفك يرقب الرجل ليرى كيف ترتسم افكاره على وجهه ، وكأنما قد اصبح هذا الوجه عينا كبيرة بعد أن فقد صاحبه عينيه الحقيقيتين .. وأراد أن يعابثه بلعبة صغيرة تكتمل بها المهزلة التي كان يجد فيها متعته : فاقترب منه ولطم ركبته لطمة خفيفة.. وكان "ألبينوس" – في هذه اللحظة– واضعا يده على جبينه، فظل رافعا إياها ولم ينزلها..ومن ثم اقترب منه "ريكس" ثانية ومس جبينه–مسا خفيفا– بالطرف المزهر لعود القش الذي كان يلوكه بين شفتيه..فندت عن"ألبينوس" آهة غريبة ، وراح يطوح يده ليبعد ما ظنه ذبابة حطت على جبينه.. وأحدث "ريكس" صوتا بشفتيه ، فصدرت عن الأعمى تلك الحركة العاجزة التي كان يجد فيها "ريكس" ملهاة طيبة له!

وفجاة ، رفع "ألبينوس" رأسه في حدة ، كما استدار "ريكس" بدوره.. ومن خلال الباب الزجاجي، رأى رجلا بدينا ذا قبعة مخططة ، وقد تذكر وجهه الأحمر في الحال.. وكان القادم واقفا في الشرفة ، يتطلع إلى أعلى في حيرة، فوضع "ريكس" أصبعه على شفتيه ، وأتى بإشارة يوحي بها إليه بانه آت إليه في لحظة. بيد ان هذا دفع الباب ودخل الغرفة .. ووقف ريثما يسترد أنفاسه ، وهو يحملق إلى ذلك الرجل العريان ، الذي ظل رافعا أصبعه إلى شفتيه وهو يبتسم ابتسامة كالحة. وما لبث "بول" ان قال له: " طبعا انا أعرفك .. إن اسمك "ريكس"!

إذ ذاك انتصب "ألبينوس" واقفا ، وقد فاض اللون الأحمر من الندبة التي في جبينه، فغمر كل وجهه .. ثم راح– فجاة – يصيح ويصرخ ، وقد احتبست الكلمات في فمه ، فما فتئ يصارعها وينتزعها انتزاعا ، حتى نطق أخيرا قائلا:

"بول" ..إنني هنا وحيد.. قل إنني هنا وحيد.. إن ذلك الرجل في "أمريكا"، وليس هنا .. بربك يا "بول" ، إنني اتوسّل إليك.. إنني أعمى.. اعمى تماما!. فقال

"**ريكس**" : " تبا لك، لقد افسدت كل شيء.. ثم جرى إلى الخارج وبدأ يصعد السّلم.. واختطف "**بول**" عصا الرجل الاعمى واندفع خلف "**ريكس**" ، الذي استدار على عقبيه رافعا يديه ليحمي نفسه!.. وراح ذلك الرجل الطيّب القلب، الذي لم يحدث أن ضرب كائنا حيا – طيلة عمره– ينهال في عنف على الرجل العاري، ويهوي بالعصا على رأسه. فوثب هذا إلى الخلف وابتسامته السمجة لاصقة بوجهه ، وفجأة حدث شيء عجيب .. وكما فعل آدم بعد زلتّه ، انزل "**ريكس**" يده في هذه اللحظة – وهو منحن بجانب الحائط الأبيض ، شاحب الوجه– وغطى عورته!

واندفع "**بول**" مرة أخرى نحوه ، ولكنه راغ منه، واندفع يصعد السلم ناجيا بنفسه.. وفي هذه اللحظة شعر، "**بول**" بشخص يلقي بنفسه عليه من الخلف.. وكان ذلك هو "**ألبينوس**" ، وقد تشبّث به وراح ينشج باكيا، وقد أمسك في يده بكتلة رخامية من أدوات المكتب قائلا في حشرجة : ""**بول**" ، "**بول**" .. لقد فهمت كل شيء .. أعطني معطفي بسرعة، إنه معلّق هنالك في المشجب!" .. فقال "**بول**" وهو يتنفس بصعوبة: " أيها تريد؟ المعطف الأصفر ؟!.

*****

وقدمه إليه .. وفي الحال وجد "**ألبينوس**" ما يريده في جيبه.. ووقف وقد انفطر من فرط البكاء ، فقال له "**بول**" : " سآخذك من هذا المكان على الفور ، فاخلع رداءك ، والبس هذا المعطف ! .. هيا، اسرع.. ساساعدك!.. والآن خذ قبعتي ، وليس من المهم انك لاتلبس في قدميك سوى خفي حجرة النوم.. هيا نخرج يا "**ألبير**" !.. لقد جئت بسيارة أمام الباب.. إن أول ما ينبغي عمله، هو إخراجك من هذا المكان اللعين !!. فقال "**ألبينوس**" : " انتظر قليلا.. يجب أن أكلمها أولا.. إنها ستعود بعد لحظة ، ولابدّ من أن اكلمها .. يجب يا "**بول**" .. لن يستغرق ذلك وقتا طويلا" .

ولكن "**بول**" دفعه خارجا إلى الحديقة ثم صاح مشيرا إلى سائق السيارة، فعاد

"**ألبينوس**" يقول: " يجب ان اكلمها.. عن قرب.. بالله يا "**بول**" نبئني حين تعود، فهي لن تتاخر كثيرا.. إنها ستعود الآن ا". ولكن "**بول**" قال: " كلا يجب ان نذهب، وليس هنا سوى ذلك الوغد العاري يطل من النافذة.. هيا يا "**ألبير**". هيا!".. فقال الأعمى :" سنذهب ، على ان تقول لي إذا رايتها.. قد تراها ونحن في الطريق، وعندئذ يجب أن اكلمها .. عن قرب.. عن قرب!".

وسارا في درب الحديقة. ولكن "**ألبينوس**" لم يلبث- بعد بضع خطوات- ان فتح ذراعيه بغتة ، وسقط إلى الخلف مغمى عليه .. فجاء سائق السيارة مسرعا ، وعاون "**بول**" على رفعه ونقله إلى السيارة . وقد بقي أحد خفيه في الدرب.. وفي اللحظة ذاتها ، وصلت سيارة قفزت منها "**مارجوت**" ، وجرت نحوهم صائحة بشيء ما.. ولكن سيارتهم كانت قد تحركت بالفعل ، وكادت أن تصدمها وهي تدور حول الطريق، ثم اندفعت إلى الأمام واختفت خلف منعطف!

الفصل التاسع والثلاثون

في يوم الثلاثاء ، تلقّت "إليزابيث" برقية .. وفي حوالي الساعة الثامنة من مساء الأربعاء ، سمعت صوت "بول" في بهو مسكنها ، ووقع عصا على الأرض .. وما لبث الباب ان فتح، ودخل "بول" يقود زوجها الذي بدا حليقا ، وعلى عينيه نظارة سوداء ، وثمة ندبة في جبينه الشاحب .. وسترته الأرجوانية الغريبة اللون- التي لايمكن ان يكون قد اختارها بنفسه-متهدلة عليه.

وقال "بول" في صوت خافت : ها هو ذا!" .. فشرعت "إليزابيث" تنتحب ، وهي تضغط فمها بمنديلها.. وانحنى "ألبينوس" بسكون في اتجاه صوت البكاء المكتوم، فقال "بول" وهو يقوده ببطء :" هيا فلنغسل أيدينا!!.

وجلس ثلاثتهم في غرفة الطعام ، يتناولون العشاء.. ووجدت "إليزابيث" عناء في ان تُعوّد عينيها النظر إلى زوجها، وقد كان يخيل إليها أنه يحس بنظراتها.. وكانت حركاته البطيئة الحزينة تملأ قلبها بشفقة عظيمة صامتة.. اما "بول" فقد راح يتكلّم معه كما لو كان طفلا ، ويقطع له اللحم في طبقه إلى قطع صغيرة.

وافردت له الغرفة التي كانت مخصصة لـ"إيرما" .. وقد دُهشت "إليزابيث" إذ وجدت انه قد سهل عليها أن تعكر سكون هذه الغرفة الصغيرة ، من أجل خاطر هذا الغريب الصامت، وأن تغيّر وتبدّل كل محتوياتها لتجعلها ملائمة لاحتياجات الرجل الأعمى..

وظل "ألبينوس" لايقول شيئا .. ففي اول الأمر- حين كان مع "بول" في "سويسرا- توسّل إليه كثيرا وفي إلحاح عنيف ان يطلب من "مارجوت" ان تاتي وتقابله ، مقسما له أن هذا اللقاء الأخير لن يستمر اكثر من دقيقة واحدة..

وإن كان الأمر- في الواقع- يقتضي وقتا طويلا لأن يتحسس في الظلمة حتى يمسكها بقوة بإحدى يديه، ثم يفرغ المسدس في اتجاهها ، مغرقا جسدها بسيل من الرصاص.. بيد ان "بول" رفض بتشبث أن يجيبه إلى طلبه ، فلاذ "ألبينوس"- بعد ذلك- بصمت

تام.. رحل من "سويسرا" في صمت ، ووصل إلى "برلين" في صمت ، وظل صامتا في الأيام الثلاثة التالية.. فلم تسمع "**إليزابيث**" صوته ابدا، حتى خُيِّل إليها انه ابكم، كما كان أعمى !.. بينما ظل ذلك الشيء الثقيل الأسود-الذي كان يضم في خزانته سبع ميتات فظيعة- ملفوفا بمنديل حريري ، ومستلقيا في جيب معطفه.. حتى إذا استقر في غرفته ، نقله إلى درج من ادراج صوان بجانب فراشه ، واحتفظ بالمفتاح في جيب ردائه، وكان يضعه بالليل تحت وسادته .. وقد لوحظ مرة او مرتين يتحسس شيئا ما في يده ، ولكن أحدا لم يعلق على ذلك بكلمة.. كان ملمس هذا المفتاح في يده، وثقله في جيبه ، يشعرانه بالطمأنينة ، وكأنما هو طلسم كفيل بان يعيد له – في يوم من الأيام- نور عينيه!

وبقي صامتا .. وأصبحت "**إليزابيث**" تتكلم إلى الخدم وإلى "**بول**" في صوت هامس ، وتسير في خطوات حذرة خفيفة، كأنما ثمة في البيت مريض في خطر ، ومن ثمّ فقد راحت تبدو له طيفا رقيقا ، كذلك الطيف الذي ظل يحتفظ به لها في مخيلته.. تلك الذكرى الصامتة التي كانت تمر بخياله في هدوء ممتزجة باثر خفيف من شذا عطرها.. كان هذا هو كل ما بقي له منها.. اما المخلوقة الأخرى، الشرسة ، القوية ، اللدنة ، الشبيهة بالأفعى الكبيرة، التي كان يتوق لان يهوي عليها ويحطمها دون توان ، فقد كانت في مكان آخر .. ولكن أين؟.. إنه لم يعد يعرف ، وإن ظلت تتألق في خياله- بقوة عارمة – صورة "**مارجوت**" و"**ريكس**"، منهمكين في حزم الأمتعة بعد رحيله، وعينا كل منهما مخيفتان، محملقتان ، تقدحان شررا.. ثم كان لايلبث أن يتمثل "**مارجوت**" تدلل "**أكسيل ريكس**"، وتعانقه ، وتربت جسده العاري .. ثم يتمثلهما يمضيان .. ولكن إلى أين، إلى اين؟.. ما من بصيص من النور كان يلوح له في الظلام.. ولكن طريقهما المتعرج كان يشتعل فيه، تاركا أثرا كالذي تتركه الحشرة السّامة وهي تزحف على بشرة الإنسان!

*****

ومرت ثلاثة أيام صامتة.. وفي اليوم الرابع، حدث أن كان "**ألبينوس**" في الصباح الباكر وحيدا- إذ كان "**بول**" قد ذهب لتوه إلى مقر الشرطة كي يوضح بعض الأمور، وكانت الخادمة في غرفة خلفية، ولم تكن "**إليزابيث**" قد استيقظت بعد إذ قضت ليلة مسهّدة.. فراح "**ألبينوس**"- وقد ثقل عليه الكرب- يتنقل من مكان إلى مكان ، وهو يتحسس باصابعه الأثاث والأبواب .. وفي هذه الأثناء دوّى رنين جرس التليفون في غرفة المكتب، فاوحى إليه بانه يستطيع بهذه الوسيلة أن يحصل على معلومات ، إذ قد يعثر على من ينبئه بما إذا كان الفنان "**أكسيل ريكس**" ، قد عاد إلى "**برلين**" .. ولكنه لم يستطع أن يتذكر رقم تليفون اي شخص يجد عنده انباء ، فضلا عن انه كان يعرف أنه لن يقوى على النطق بهذا الاسم رغم قصره .. وإذ استمر رنين التليفون في إصرار ، تلمس "**ألبينوس**" طريقه إلى المنضدة ، وامسك بالمسماع.. وإذ صوت – بدا له مالوفا – يساله عن الهر "**هوشدارت**" .. أي "**بول**" ، فاجاب "**ألبينوس**" قائلا: "إنه في الخارج" .

وتردد الصوت هنيهة .. وفجاة ، قال في وضوح :" هل هذا انت يا هر "**ألبينوس**"؟" . فاجاب :" نعم ، ومن انت ؟" .

فاجاب قائلا:" "**شيفر ميللر**" .. لقد حاولت لتوّي الاتصال بالهر "**هوشدارت**" ، ولكنه لم يصل بعد إلى مكتبه .. ومن ثم خطر لي أنني قد اجده بالمنزل .. كم انا سعيد إذ وجدتك يا هر "**ألبينوس**"؟" .

وتساءل "**ألبينوس**" :" ماذا حدث ؟" .. فقال :" حسنا .. قد لايكون في الأمر شيء، ولكنني رأيت أن من واجبي أن اتاكد .. فقد جاءت "**فراولين بيترز**" الآن، لتاخذ بعض الأشياء، وقد ادخلتها مسكنك .. ولكنني لااعلم بالضبط، ومن ثم رأيت من الأفضل.."

وقال "**ألبينوس**" :" لاباس!" . وهو يحرّك شفتيه بصعوبة ، وقد شعر فيهما بتثاقل شديد، وكأنما سرى فيهما مخدر قوي.. فتساءل الرجل قائلا: "ماذا تقول يا

هـر"ألبـينوس"؟!... فبذل هذا جهدا كبيرا كي يخرج الحروف ، ثم قال في وضوح :" لاباس" . ووضع المسماع بيد مرتعشة.

وعاد متخبطا إلى غرفته ، ففتح الدرج السرّي، ثم عاد يتلمس طريقه إلى البهو، وهنالك راح يبحث عن قبعته وعصاه .. فلما استغرق في ذلك وقتا طويلا ، ويئس من العثور عليهما، سار متعثرا حتى أشرف على السلم، فقبض على سياجه ، ونزل الدرجات ، وهو يتمتم في نفسه محموما .. وإن هي إلا لحظات حتى كان واقفا في الشارع، وقطرات باردة تنزل على جبهته إذ كان المطر يتساقط .

فاستند إلى سياج الحديقة الأمامية ، وراح يرجو في ياس أن يسمع بوق سيارة قادمة .. وسرعان ما اقترب منه صوت عجلات تسير بحذر على الأرض المبللة، فصاح مناديا .. ولكن صوت العجلات تجاوزه غير مكترث به.

*****

وما لبث أن سمع صوت شاب لطيف يقول له :"هل أساعدك في العبور؟" فقال له "ألبـينوس" متوسلا :" أرجو –بحق السماء– أن تستدعي لي سيارة!" ومرة أخرى، اقترب صوت عجلات.. وساعده شخص ما على الصعود إلى السيارة ،وصفق خلفه الباب .. وعندئذ فتحت نافذة في الطابق الرابع ، ولكن الوقت كان قد فات ! .. فقد أسرع "ألبينوس" هامسا للسائق:" انطلق راسا، إلى الأمام!" .. حتى إذا تحركت السيارة . نقر باصبعه على الزجاج وأخبر السائق بالعنوان، ثم قال في نفسه:" سوف أعطيه اجر العودة كذلك" .

ومضى يتذكر .. عند أول منعطف سيكون في "**موتز ستراس**" .. وسمع إلى اليسار جلجلة الترام الكهربائي .. ومر بيده على المقعد ، ثم الجزء الأمامي من السيارة ، ثم موطئ القدمين .. وفجاة ، ازعجته فكرة أن يكون ثمة شخص يجلس بجانبه .. ودارت السيارة في منعطف آخر .. لابد أن تكون هذه "**فكتوريا لويزن بلاتز**"أو "**البراجر بلاتز**" .. وفي لحظة سيكون في "**الكايزرالي**"

ووقفت السيارة، فهل تراه وصل ؟.. هذا غير محتمل ، ولابد أن السيارة تقف عند تقاطع طرق .. فالأمر يحتاج لخمس دقائق اخرى.. ولكن باب السيارة فتح، وقال السائق: " هذا رقم ٦٥ .. فمد "**ألبينوس**" قدمه خارج السيارة .. وفي الفضاء المقابل له، سمع نسخة طبق الاصل من الصوت الذي كلمه منذ لحظة في التليفون..

صوت "**شيفر ميللر**"، بواب المنزل ، وهو يقول له :" إنني مسرور بأن أراك مرة أخرى يا هر "**ألبينوس**" .. إن السيدة الصغيرة في مسكنك؛.. وهي.."

وطلب إليه "**ألبينوس**" أن يصمت ، ثم همس قائلا:" ادفع أجر العربة من فضلك.. فإنني لا أبصر! " .. وهنا اصطدم بركبته شيء كان ينطلق مقرقعا مجلجلا، ولعله طفل كان يمر بدراجته في الطريق.. وعاد يقول: "قدني إلى المنزل، واعطني مفتاح مسكني.. اسرع من فضلك!.. والآن، قدني إلى المصعد .. كلا ، كلا .. يمكنك أن تبقى هنا، فسوف أصعد وحدي..، سأضغط الزرّ بنفسي! " .

وصدر عن المصعد صوت صريف خافت ، فشعر بدوار خفيف ، وخُيّل إليه أن الأرض تهتز تحت خفّيه المصنوعين من اللباد .. وأخيرا ، ها هو ذا قد وصل .. وخرج من المصعد ، وتقدم إلى الأمام ، وخطا بقدم واحدة، فكاد أن يهوي .. وتوقف لحظة وهو يرتعش ، ومد يده هامسا . " إلى اليمين .. خطوة أخرى إلى اليمين" .. وأخيرا وجد ثقب الباب ، فدس فيه المفتاح وأداره ..

آه .، هذا هو الصوت الذي يبحث عنه منذ أيام .. هنالك إلى اليسار ، في حجرة الجلوس الصغيرة..

فثمة خشخشة أوراق ، وصوت صريف خافت، كالصوت الذي يصدر من مفاصل شخص يجلس القرفصاء .

وقال صوت "**مارجوت**" الصافي :" أريدك لحظة يا هر "**شيفر ميللر**" .. يجب أن تساعدني في حمل هذه الأشياء! " ..

وتوقّف الصوت ، فقال "**ألبينوس**" في نفسه :" لقد رأتني"، ثم سحب المسدس من جيبه .

وسمع إلى اليسار ، في غرفة الجلوس ، صوت حقيبة تغلق، ثم أرسلت "**مارجوت**" زفرة ارتياح صغيرة .. لقد اغلقت الحقيبة اخيرا ..وعادت تقول في صوت رتيب:" .. أو ربما يحسن أن تستدعي .." .. وبدا انها بوغتت ، فصمتت تماما!.. وكان "**ألبينوس**" ممسكا بالمسدس في يده اليمنى ، مستعدا لإطلاقه .. وراح يتحسس بيده اليسرى حتى لمس مصراع الباب المفتوح فدخل ، وصفق الباب خلفه ، وأسند ظهره إليه.

كان كل شيء هادئا .. وكان يعلم انه وحيد مع "**مارجوت**" في الغرفة ، وأن لهذه الغرفة بابا واحدا، هو الذي اغلقه خلفه .. وكان بوسعه أن يتبين الغرفة بوضوح، كما لو كان يراها بعينيه تماما.. فإلى اليسار الاريكة ذات النسيج المنقوش ، بجانب الحائط الايمن.، والمنضدة الصغيرة التي تحمل تمثال راقصة الباليه المصنوع من الخزف .. وفي الركن القريب من النافذة ، الصوان الذي تعلوه الأيقونات الفاخرة .. وفي الوسط المنضدة الأخرى الكبيرة الفخمة اللامعة..

*****

ومد "**ألبينوس**" قبضته ، وراح يحرك المسدس في بطء يمنة ويسرة، مرهفا أذنيه عسى أن يلتقط أي صوت ينم عن موقع "**مارجوت**" بالضبط .. كان يشعر انها في مكان قريب من الأيقونات، إذ كانت تهب عليه من ذلك الاتجاه نفحة واهنة من الحرارة المضمخة بعطر "**ليربلو**" ... وفي تلك الزاوية كان شيء ما يرتعش ، كالهواء على رمال الشاطئ في يوم شديد القيظ.، وزاد من ضيق الحيز الذي كانت يده تروح وتجيء فيه.. وفجاة ، سمع حفيفا خفيفا، فهل يضرب ؟.. كلا ، ليس بعد .. يجب أن يزداد اقترابا منها ، وإذ كان يفعل ذلك ، ارتطم بالمنضدة الوسطى، فوقف بلا حراك..

وشعر أن "**مارجوت**" تتسلل مبتعدة عن اتجاه يده ، ولكن جسمه هو- وإن يكن ساكنا لايطرف- كان يصدر حفيفا يمنعه من أن يسمعها .. نعم ، لقد ابتعدت قليلا ناحية النافذة ، وانطلقت تصرخ.. إن هذا التصرّف يكون عونا إلهيا ، إذ يتيح إحكام الرماية ، ولكن ، ماذا لو مرقت منه حول المائدة، ثم خرجت من الباب الذي يقوم

خلفه؟..

الأفضل ان يغلق الباب إذن.. كلا، لم يكن به مفتاح..

لقد كانت الأبواب دائما ضده..

وامسك طرف المائدة بإحدى يديه، ثم تقهقر متراجعا ودفعها نحو الباب حتى اصبحت خلفه.. وعندئذ شعر مرة اخرى بالحرارة تنبعث من امامه تنتقل ، وتتقلص، وتتضاءل.. وإذا كان قد أغلق الباب ، فقد أحس بشيء من التحرر في الحركة .. وما لبث أن شعر- مرة أخرى- بشيء حيّ يرتعد في الظلام، فتقدم بقدر ما يمكن من البطء، حاسبا لكل جزء من الثانية حسابا.. وكان سكوتها يثيره في أول الأمر، ولكنه اصبح يميزها بوضوح تام.. لم يكن الذي يميزه هو تنفسها ، ولانبضات قلبها ، وإنما شيء عام.. هو حياتها ذاتها !.. تلك الحياة التي سيقضي عليها- بعد لحظة- وبعد ذلك .. السلام، والصفاء ، والنور.. وفجأة أحس بحركة في الركن المقابل له ، فحرك المسدس مجبرا كيانها الحار على العودة إلى مكانه الأول.. ولكن ما لبث ان أحس بها تختفي كلهب ينطفئ، ثم أحس بها تزحف مقتربة من قدميه .. فلم يستطع أن يضبط نفسه أكثر من ذلك.. وفي زمجرة عنيفة، ضغط الزناد.

ومزقت الرصاصة الظلام ، ثم ارتطم به شيء ما، عند ركبتيه فوقع على الأرض، متخبطا في مقعد ألقي عليه .. وسقط منه مسدسه ، ولكنه وجده في الحال، وفي ذات اللحظة ، أحس بتنفس سريع يتردد بالقرب، وبرائحة عطر وعرق تملأ انفه ، وبيد باردة سريعة الحركة تحاول أن تخلص السلاح من قبضته .. وأمسكت يده عندئذ بكائن حي، تندّ عنه صرخات مكتومة ، وكانه مخلوق من المخلوقات التي تتراءى في الكابوس .. وما لبث أن شعر بذلك الكائن ينتزع المسدس من يده ، وبفوهة المسدس تلتصق به ثم سمع صوت انفجار مكتوم خيل إليه انه على بعد أميال عديدة.. وشعر في ذات الوقت بوخزة في جنبه ، ملأت عينيه بنور عظيم. وإذ ذاك ، شعر براحة عجيبة ، وكانه مستلق في فراشه.

وقال في نفسه : " إذن لقد انتهى كل شيء.. ينبغي أن اظل ساكنا هكذا هنيهة ، ثم أسير في بطء شديد على رمال الألم المتألقة هذه، نحو تلك الموجة الشديدة الزرقة .. أي

سعادة في الزرقة؟.. لم أكن أعرف قط كيف يمكن ان تكون الزرقة .. أية حياة مضطربة. كانت حياتي.. انا الآن اعرف كل شيء .. وذلك الشيء الذي يقترب ، ثم يقترب ، ثم يقترب .. ها هو ذا يغرقني .. كم يؤلمني.. لااستطيع أن اتنفس!".

وكان جالسا على الأرض، وقد أحنى رأسه ، ثم ما لبث أن مال إلى الأمام في بطء ، وسقط كدمية كبيرة على أحد جانبيه..

وكانت تلك هي معالم المنظر الأخير في المسرحية : باب مفتوح على مصراعيه.. منضدة مدفوعة على الباب .. بساط متكور تحت المائدة .. مقعد ملقى بجانب جثة رجل في رداء ارجواني ، وخفين من اللباد .. ومسدس متوار تحت الجثة ..والصوان الذي كانت فوقه الأيقونات ، وقد أصبح الآن خاليا منها .. المنضدة الأخرى الصغيرة- التي كان فوقها تمثال راقصة الباليه- وقد خلت من التمثال ، ولم يعد فوقها سوى قفاز نسوي، أسود من الخارج، أبيض من الداخل.. وبجانب الأريكة – ذات النسيج المنقوش- حقيبة صغيرة رشيقة الصقت بها بطاقة ملونة مكتوب عليها "روجينار"، فندق "**بريتانيا**".

والباب المؤدي من البهو إلى الخارج مفتوح كذلك على مصراعيه!

تمت

مكتبة



417



ولد "فلاديمير فلاديميروفيتش نابوكوف" في ٢٣ إبريل "نيسان" عام ١٨٩٩في مدينة "سان بطرسبرج" بـ"روسيا". حيث نشأ في أحضان عائلة تتحدث ثلاث لغات، ومن ثم تمكن من القراءة للكثير من الكتاب مثل "تولستوي" و"تشيكوف" و"فيرلين" و"فلوبرت" و"ريميود" وغيرهم. درس اللغة والأدب السلافي بكلية "ترينيتي" بـ"كامبريدج" وحصل على درجة الماجيستير عام ١٩٢٢. وخلال الثمانية عشر عاما التالية، عاش "نابوكوف" متنقلاً بين "برلين" و"باريس"، حيث كان يكتب تحت اسم مستعار هو "سيرين"، وكان يحاول زيادة دخله من خلال الترجمات ودروس اللغة الإنجليزية ودروس التنس وتأليف الكلمات المتقاطعة باللغة الروسية لأول مرة في "روسيا".

وفي عام ١٩٤٠ توجه "نابوكوف" إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعدما أجبر على مغادرة "فرنسا". وهناك قام "نابوكوف" بالتدريس في "ويللسلي" و"هارفارد" و"كورنيل"، كما اعتزل الكتابة بالروسية وبدأ التأليف بالإنجليزية. مع ذلك فإن تلك الحقبة التي عاشها "نابوكوف" في "أمريكا" شهدت أروع أعماله مثل "لوليتا" عام ١٩٥٥ و"بنين" عام١٩٥٧، كذلك فقد قام خلال تلك الفترة التي قضاها في "أمريكا" بترجمة روائع الأدب الروسي إلى الإنجليزية، كما كتب العديد من كتب النقد الأدبي. رحل "فلاديمير نابوكوف" عن الحياة في عام ١٩٧٧ في مدينة "مونترو" بـ"سويسرا".

يهجر "ألبينوس" -وهو مخرج سينمائي واعد في منتصف العمر زوجته من أجل حبيبته "مارجوت" التي تريد أن تصبح نجمة سينمائية. عندما يقدمها "ألبينوس" لـ"ريكس" -وهو منتج سينمائي- تحدث الكارثة. إنها رواية تهكمية رائعة تدور حول الرغبة والخداع والتحايل، تم تحويلها إلى فيلم سينمائي في الثلاثينات من القرن العشرين حيث حمل هذا الفيلم اسم "عالم برلين".

ISBN 9953-443-37-8

